صفحات
من التاريخ الحضرمي

صفحات

من التاريخ الحضرمي

تَأْليف

سعيد بن عوض باوزير

حقوق هذه الطبعة محفوظة لـ



الجمهورية اليمنية / عدن

هاتف (٣٩٧٧٧٦/ ٢/ ٠٠٩٦٧) فاكس (٣٩٧٧٧٥/ ٢/ ٠٠٩٦٧)

Email: drwfaq@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الايداع في المكتبة الوطنية/ عدن

٨١٨/٢٠١١م





تقديم

نجيب سعيد باوزير

في تسعينيات القرن العشرين الماضي شاركتُ في فعالية نظَّمها الأخ الدكتور عبدالله سعيد باحاج لمناقشة كتاب «صفحات من التاريخ الحضرمي»، وقد حاولت هذه المشاركة أن تعطي فكرة عامة عن الكتاب: محتواه، وظروف كتابته، وأهميته؛ ولذلك ارتأيت أنها مناسبة لأن تتصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب التي طلب مني الإخوة الكرام أصحاب دار الوفاق للدراسات والنشر الموافقة - باسم ورثة المؤلف - على إصدارها.

وأنا - إذ أحيِّي وأشكر دار الوفاق على اهتمامها بنشر المؤلفات التي تتناول الشأن اليمني - أعتبر هذا الإصدار خطوة أخرى متقدمة على طريق نشر التراث الكامل للأستاذ المؤرخ والمفكر والأديب سعيد عوض باوزير في صورة معتمدة ومشرفة تليق بأهمية ومكانة هذا التراث.

ولقد أشرت في هذه الكلمة إلى ندرة الأخطاء المطبعية نسبياً في الطبعة الأولى من الكتاب، ولكن هذه الأخطاء القليلة انسحبت - مع الأسف - على الطبعة الثانية التي صدرت عن دار الهمداني؛ ولذلك فإن إحدى مزايا هذه الطبعة الجديدة هي أننا قمنا بمراجعة الكتاب وتنقيته من تلك الأخطاء استناداً إلى المسودة التي تركها المؤلف - رحمه الله - ضمن أوراقه المخطوطة.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق فيما نحاوله ونهدف إليه من خدمة

وصيانة هذا التراث القيّم للأستاذ باوزير حتى يكون نبراساً للأجيال القادمة.

* * *

جرت العادة على اعتبار كتاب «صفحات من التاريخ الحضرمي» للأستاذ سعيد عوض باوزير الكتاب الثاني في سلسلة كتبه التاريخية الثلاثة التي أطلق عليها بعض الباحثين اسم «الثلاثية التاريخية»، وهو فعلاً الكتاب الثاني في تاريخ الصدور؛ فقد صدر كتاب «معالم تاريخ الجزيرة العربية» في عام **١٩٥٤**م، وصدر كتاب «الصفحات» في عام **١٩٥٩**م، وصدر كتاب «الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي» في عام **١٩٦١**م، كما أن هذا هو الترتيب الطبيعي والمنطقي له في الثلاثية؛ فقد كان تاريخ الجزيرة العربية هو الإطار العام الذي انتقل منه المؤرخ بعد ذلك إلى التركيز على جزئية من هذا التاريخ هي تاريخ حضرموت، أي أنه تحرك من العام إلى الخاص كما يقول الدكتور صالح علي باصرة في دراسة موجزة له عن المؤرخ.

وأضيف هنا أنه تحرك بعد ذلك من الخاص إلى الأخص، وهو البحث في الحياة العقلية للشعب في هذه المنطقة من الجزيرة، وذلك في كتابه الثالث «الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي».

ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن كتاب «صفحات من التاريخ الحضرمي» كان جاهزاً في مسودته الأصلية عند إعداد كتاب «المعالم» للطبع، مما يؤكد أن هذا الأخير قصد منه بالفعل أن يكون مدخلاً يبسط تاريخ المنطقة كلها التي تعد حضرموت إقليماً من أقاليمها المترامية الأطراف.

من هذه الدلائل التي نجدها على أسبقية كتابة «الصفحات»، أو على الأقل تزامنها مع كتابة «المعالم»، أننا نجد في كتاب «معالم تاريخ الجزيرة العربية» إشارات في الهامش إلى كتاب «تاريخ حضرموت في شخصيات»

على أن فيه تفصيلاً أكثر لبعض الحوادث؛ وهذا هو الاسم الأصلي الذي وضع في البداية لكتاب «الصفحات»، ثم قدم باسم «شخصيات حضرمية» عندما اختير كمنهج مدرسي لمادة التاريخ للصف الرابع النهائي من المرحلة الابتدائية حسب النظام القديم، بعد أن تم تعديله وتبسيط مادته لكي تلائم عقول التلاميذ، كما حذفت بعض الشخصيات حيث اقتصر المنهج على ثلاث عشرة شخصية فقط بينما يتناول كتاب «الصفحات» الأصلي إحدى وعشرين شخصية.

وفي مسودة المنهج يوجد درس عن أبي إسحق الهمداني بينما ليس هناك ذكر لأحمد بن عيسى المهاجر، ولكن عند إقرار المنهج في صورته الأخيرة التي طبعتها ووزعتها إدارة المعارف بالدولة القعيطية في **١٤** ربيع الثاني **١٣٧٧**هـ الموافق **٦** نوفمبر **١٩٥٧**م تم حذف درس أبي إسحق ووضع درس المهاجر بدلاً منه، ويبدو أن ذلك قد تم بناءً على الملاحظات التي تقدم بها بعض المختصين في دراسة التاريخ الحضرمي والتي تناولت قضايا مختلفة في الكتاب.

ومن الأدلة الأخرى وجود رسالة موجهة إلى المؤلف بخط الأديب والمؤرخ الأستاذ محمد بن هاشم مؤرخة في **٢٥** ذي الحجة **١٣٧٢**هـ، وهذا التاريخ يوافق سنة **١٩٥٣**م أي قبل صدور كتاب «المعالم»، ويقول الأستاذ ابن هاشم في بداية رسالته هذه: «قد قرئ عليَّ كتابكم «تاريخ حضرموت في شخصيات» فأعجبت به والله أيَّما إعجاب...»، ثم يشهد ابن هاشم للمؤرخ بأنه يكتب تاريخه وعقله أمام قلمه، وأنه - أي ابن هاشم - لم يستطع أن يظفر في الكتاب بزلة تحيّزية واحدة.

والمسودة الكاملة الباقية للكتاب في صورته الأخيرة التي انتهى المؤلف من كتابة كلمتها التصديرية في **٤** ذي الحجة **١٩٧٤**هـ الموافق **٢٣** يوليو **١٩٥٥**م، هذه المسودة يتصدرها عنوان «صفحات من التاريخ

الحضرمي»، ومكتوب تحت العنوان: مجموعة تراجم لأمراء وسلاطين وعلماء من الحضارم، وليس هناك اختلاف يذكر بين المسودة وبين الكتاب المطبوع إلا في المقدمة الخاصة بتاريخ حضرموت القديم والتي يظهر أنها أعيدت كتاباتها بالكامل، وفيما عدا ذلك لا توجد إلا تعديلات طفيفة في بعض فصول الكتاب مثل الفصلين اللذين يترجمان للجمعدار عمر بن عوض القعيطي والسلطان عوض بن عمر القعيطي، وكذا الفصل الذي يترجم للشيخ محمد بن عمر بن سلم.

ومن الزيادات القليلة التي أدخلت على هذا الفصل حكاية الأبيات التي وردت في قصيدة السيد حسين بن حامد المحضار العلوي وزير الدولة القعيطية في رثاء الشيخ بن سلم، والتي كان أهالي الغيل يرددونها:

ليت الفدا يقبل وبانفدي على الشيخ أربعون
وإلا مائه من خلق لا نفعوا ولا باينفعون
جلوس في الدنيا كذا مثل البهائم ياكلون
عليك يا بن سلم حتى الطير بايبكي شنون

وهذا مثال على التعديل الذي يعطي إضافة أو معلومة جديدة، ولكن غالباً ما تكون هذه التعديلات في الصياغة فقط، حيث يكون البديل دائماً هو الأفضل من حيث التركيز وتماسك العبارة وإشراقها؛ مما يدل على الحس النقدي الذي كان يمارسه المؤلف على كتابته، والحرص على تجويدها لكي تكون أبلغ وأوقع في النفس، مبتعدا بًها عن الترهل والحشو.

وأود الإشارة إلى أن الأخطاء المطبعية نادرة في الطبعة الأولى من الكتاب بالرغم من كثرة الأسماء المحلية وغير المحلية للأماكن والأشخاص والقبائل، والتي يتوقع في العادة حدوث أخطاء في كتابتها.

ولعل من المناسب أن أوجه هنا تحية تقدير إلى روح الشخص الذي قام بالإشراف على طباعة الكتاب في مطبعته، «المطبعة السلفية» بالقاهرة،

وهو الكاتب والصحفي المعروف الأستاذ المرحوم محب الدين الخطيب صاحب مجلة «الفتح»، الذي كانت له أيادٍ خيّرة كثيرة في خدمة الأهداف الإسلامية والعربية من خلال الصحافة والنشر، وقد نشر بعض كتابات الأستاذ علي أحمد باكثير الأولى.

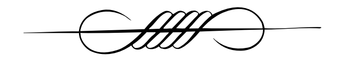
وهكذا، فبالإضافة إلى أن كتاب «صفحات من التاريخ الحضرمي» يعد واسطة العقد في ثلاثية الأستاذ باوزير التاريخية، فإنه كان أفضلها حظاً في الطباعة والانتشار.

وقد وجدت الأستاذ الكبير الدكتور شوقي ضيف في الجزء الخامس من موسوعته القيمة عن تاريخ الأدب العربي يشير إلى الكتاب أكثر من مرة باعتباره مرجعاً مهمّاً من مراجع البحث عند حديثه عن الثقافة في الجزيرة العربية؛ فقد أشار إليه مرتين في الهامش مع اسم المؤلف،كما وردت في متن الكتاب هذه العبارة في ص **٥٦**: «وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين، وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمي ما يصور - من بعض الوجوه - النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها: تريم وغير تريم».

وهذا يدلنا على أن الكتاب قد أدى فعلاً الغرض المتوخى من تأليفه، وسد جزءاً كبيراً من الفراغ في المعلومات التاريخية عن المنطقة.

وقد طبع الكتاب طبعة ثانية في دار الهمْداني بعدن عام **١٩٨٣**م، ثم طبع بطريقة التصوير بواسطة مكتبة الثقافة بعدن، وما زال يلقى رواجاً وإقبالاً شديدين؛ ذلك أنه بالرغم من اتخاذه اسم «صفحات من التاريخ الحضرمي» الذي يوحي بالتفرق والانقطاع بين الفترات التاريخية، إلا أنه في الحقيقة يقدّم بانوراما كاملة للمهم من الأحداث السياسية والاجتماعية التي مرت بالبلاد الحضرمية في عهودها الإسلامية وحتى منتصف القرن العشرين من العصر الحديث، بعد أن يمهّد لذلك بفصل كامل في المقدمة يتحدث فيه عن تاريخ حضرموت القديم حتى ظهور الإسلام.

ورغم أن المؤلف يشكو من الغموض الذي يكتنف بعض الفترات التاريخية المهمة نجد أننا نتابع قصة حضرموت من خلال الشخصيات المترجم لها، ونلمّ بقدر وافٍ من المعلومات السياسية والاجتماعية والثقافية الآخذ بعضها برقاب بعض من عصر إلى آخر، ونتعرف على كمٍّ هائل من أسماء المناطق والقبائل والمواقع الأثرية وغيرها.. كل ذلك في تناول سلس وشائق وموضوعي بالقدر الذي تتيحه طبيعة الموضوع والمصادر المتوفرة، وهو بهذه الصفة يقدّم خدمة كبيرة للباحث والمثقف والقارئ العادي الذي يريد أن يلمّ بتاريخ جزء عزيز من وطنه مجموعاً بين دفتي كتاب واحد.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيد خلقه محمد وعلى آله وصحبه،،، أما بعد:

فهذه «صفحات من التاريخ الحضرمي»، عرضتها في شكل تراجم لشخصيات حضرمية، اخترتها من طبقات وطوائف مختلفة، ورتبتها ترتيباً زمنياً حسب ظهورها على مسرح التاريخ منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحاضر، متتبعاً في تاريخ هذه الشخصيات النواحي العامّة التي تصوّر الحياة السياسية أو الاجتماعية في العهود التي عاشت فيها، قاصداً بذلك تمكين القراء من الاطلاع على التاريخ الحضرمي من جوانبه المختلفة وفي أهمّ أدواره، سالكاً سبيل الإيجاز، مقتصراً على التعرض لأبرز الحوادث التي توضح المعالم التاريخية لهذا الجزء المهم من جنوب الجزيرة العربية.

كنت أودُّ أن أضيف إلى هذا الكتاب شخصيات أخرى في التعرض لتاريخها تحقيق لبعض الغرض الذي قصدت إليه، ولكن حال دون ذلك قِلّة ما لديَّ من المعلومات عن هذه الشخصيات، وسوف أحاول الكتابة عنها في طبعة ثانية من هذا الكتاب أو في جزء مستقل، عندما تتوفّر لدي المصادر الكافية للحديث عنها وتصوير العهد الذي عاشت فيه.

وقد حرصت أثناء كتابتي لهذه الفصول التاريخية على التقَيُّد بمنهج خاص، محاولاً بذلك الابتعاد عن مسالك الخطأ ومواقع الزلل، فكنت مثلاً أتجرّد عن كل رأي سابق حتى يثبت البحث صحته، وأتشكك فيما هو من قبيل المبالغات، وأقارن بين الحوادث وبين ظروف الزمن الذي حدثت فيه، وأقف موقف الحذر من رواية كل صاحب مذهب أو عقيدة تؤيّد مذهبه

أو عقيدته، وأحوال الجمع بين النصوص المتعارضة قدر الإمكان.

ولست أدري إلى أي حدٍّ كان نصيب هذه المحاولة الشاقة من التوفيق؟ ولكني أظن أنني كنت أميناً في تطبيق هذا المنهج، حريصاً على هذه الأمانة قدر الإمكان، وهذا هو حسبي وكفى.

غيل باوزير - حضرموت المؤلف

رمضان **١٣٧٦**هـ - أبريل **١٩٥٧**م سعيد عوض بن طاهر باوزير

مقدمة

لَمَّا كانت تراجم الشخصيات التي يتألف منها هذا الكتاب مقتصرة على عرض المهمّ من الأحداث السياسية والاجتماعية التي مَرَّت بالبلاد الحضرمية في عهودها الإسلامية؛ فقد رأيتُ من الواجب أن أُقدِّم لقراء هذا الكتاب موجزاً للمعروف من تاريخ حضرموت الجاهلي منذ أَقْدَم عهودها إلى أن أكرمها الله بالإسلام، ففي ذلك رَبْطٌ للمعلومات التاريخية وإتمام للفائدة، ولعل في هذه المقدمة ما يحقق هذا الغرض.

❖ عاد:

المؤرخون - حتى الآن - لا يعرفون من سكن الأحقاف قبل عاد، فعندهم أن قبيلة عاد أقدم الأقوام البائدة، حتى إن الناس يضربون بقِدَمِهم المثل، فإذا أرادوا المبالغة في شيء قالوا عنه إنه عاديّ: أثر عاديّ، وبناء عاديّ.

والقرآن الكريم يذكر أن الأحقاف كانت مساكن قبيلة عاد ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾، والأحقاف الذي يشير إليه القرآن هو الرمل بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر، أما أخو عاد فهو النبي هود - عليه السلام - ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فعادٌ - إذن - هم قوم هود ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

والأخبار عن عاد قليلة جداً، ولا يستطيع الباحث المحقق أن يطمئن منها إلى أكثر مما ورد في القرآن الكريم عنهم من أنهم كانوا يعبدون الأوثان، ويكذبون برسالة هود، ويصرّون على كفرهم؛ فأهلكهم الله

بالريح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

ويقول المفسرون: إنَّ عاداً أصابهم قحط شديد وجفاف دام سنوات، فاضطر قسم منهم إلى الرحيل إلى البيت الحرام للاستسقاء، وفي أثناء غياب هؤلاء حل العذاب بقومهم، حيث كانت الريح تدخل تحت الرجل منهم فتقذف به، كما كانت تقلع الشجر وترفع البيوت فتهدمها، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ولم ينجُ من هذا العذاب إلا هود ومن آمن به والوفد الذي عاد من مكة، ومن هؤلاء تتألف عاد الثانية كما يقول المؤرخون، وقد زعموا أنّ الملك اتصل لهم ألف سنة أو يزيد، وهم يستدلون على وجود طبقتين لعاد، ظهرت الثانية منهما بعد هلاك عادٍ الأولى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

ويذكر التاريخ أن خلافات حدثت بين عاد الثانية وقبيلة ثمود المجاورة لها أدت إلى نشوب حرب بين الفريقين، كان الظَّفَر فيها لثمود، حيث قتل عدد كبير من عاد، وتفرق الآخرون فلا يعلم ما كان أمرهم بعد.

وقد كانت منازل ثمود في الجهات الجنوبية بين عسير واليمن وحضرموت، ثم انتقلت بدواعٍ غير معلومة بعد حروبها مع عاد من بلادها الأصلية في الجنوب إلى شمالٍ الحجاز في وادي القرى، وأنشأت في العلا ومدائن صالح والحجر منشآت بقيت لنا آثارها حتى الآن.

ويقول الدكتور جواد علي في «تاريخ العرب قبل الإسلام»: إنَّ هناك حقيقة تاريخية تؤيِّد الروايات العربية التي تقرن اسم عاد بثمود، فقد عيَّن بطليموس موضع عاد، وجعلهم في شمالي غربي الجزيرة على مقربة من ثمود، وكلهم يسكنون في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطريق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن، وقد أدرك بعضهما الآخر كما يظهر من رواية بطليموس، وقد عثر على نقوش ثمودية في اليمن، مما يدل على وجود صلات بين ثمود واليمن، ولعلهم كانوا يقيمون في اليمن.

ويذكر بعض الرواة أن هوداً ارتحل ومن معه من المؤمنين بعد النكبة التي حلت بقومه إلى الشحر، وقال آخرون إلى ناحية اليمن، فلما مات دفن بأرض حضرموت، ولم يقم دليل تاريخي علمي - حتى الآن - على موضع قبر النبي هود - عليه السلام - ويزعم الناس في حضرموت أن القبر الذي يقصده الناس كل عام للزيارة في منتصف شهر شعبان هو قبر هود، ويقع في شرق وادي حضرموت بالقُرْبِ من وادي برهوت.

وحتى يعثر الباحثون على الآثار التي تقدم المعلومات الصحيحة عن تاريخ عاد؛ فإن كثيراً مما ذكره المؤرخون عن ذلك العهد يجب أن ينظر إليه بكثير من الشك والتردد؛ إذ لا دليل على هذه الأخبار سوى أقوال الرواة من الأخباريين الذين لا يستندون في أقوالهم إلى نصوص علمية معترف بها.

وكما أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الأخبار في تحقيق الأحداث

التي حصلت في عهد عاد وبلادهم، كذلك لا يمكن تحديد الزمن الذي قامت فيه حكومة عاد حتى تقوم أدلة تاريخية قاطعة على ذلك بما يسفر عنه التنقيب عن الآثار في يوم من الأيام.

❖ القحطانيون:

يرجع المؤرخون نسب أقدم من سكن حضرموت بعد عاد إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح - عليه السلام - ويذكر النسابون لقحطان عدة أولاد من بينهم حضرموت ويعرب وعُمان وجرهم، ويزعمون أن يعرب بن قحطان كان ملكاً باليمن، وأنه غلب بقايا عاد، ووزع إخوانه على الأقطار، فأقرَّ أخاه حضرموت على الأرض التي سميت باسمه، فقيل لها: حضرموت، وعيَّن عُمان على أرض عُمان، وولى جرهماً على الحجاز، ومن نسل هذا جرهم الثانية لا البائدة، وهناك أقوال أخرى في تسمية حضرموت بهذا الاسم، وكلُّها مما لا يستطيع طالب الحقيقة أن يطمئن إليه.

❖ مملكة حضرموت:

الكتابات الجاهلية التي ترجم المستشرقون عدداً منها تحدثت بشيء من الوضوح والتفصيل عن مملكة حضرمية كان لها شأن بين ممالك الجنوب القديمة، وقد ورد اسم حضرموت في الكتابات المعينية، وعُثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت عاشوا قبل ميلاد المسيح بمئات السنين، وقد تحدَّث كُتّاب اليونان والرومان قبل الميلاد عن مملكة حضرموت وما كان لها من شأن عظيم في العالم الاقتصادي بين ممالك الجنوب.

ولما زار المستر وندل فلبس الأمريكي حضرموت في طريقه إلى بيحان سنة ١٩٥٠م للبحث عن تمنع عاصمة قتبان كتب يقول: «قامت اقتصاديات أربع من الممالك الهامة على ما كانت تدرُّه قوافل البخور في جنوب

الجزيرة العربية من الثراء زهاء ألفين من السنين، فقد كانت القوافل تنساب في مهل من غابة البخور في حضرموت متجهة نحو الشمال على طول الجزيرة، ثم تعود محملة بالذهب والفضة من مصر واليونان وروما كما ذهبت محملة بالبخور والبهارات».

وإلى جانب هذه الثروة التي أشار إليها وندل فلبس والتي كان مصدرها التجارة العظيمة التي تتألف من حاصلات البلاد والبضائع الواردة من الخارج في طريقها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط كان للحضارم شهرة أيضاً في النسيج، وصناعة الحلي الدقيقة، والأثاث، وزخرفة الآنية، وتركيب المواد ذات الروائح الطيبة، كما كان لهم اهتمام بالزراعة، وإقامة السدود، وغراسة الأرض، وغير ذلك من مختلف نواحي النشاط الاقتصادي، وقد كانت حضرموت تعرف عند بعض الكتاب القدماء بأرض اللُّبان، ووصف هؤلاء الكتاب الميناء الذي تصدر منه كميات اللبان وصفاً يستدل منه على أنه الموضع الذي يعرف الآن بـ«حصن غراب».

❖ ملوك حضرموت:

ذكر المؤرخ ابن خلدون أنه كان في حضرموت ملوك يقاربون ملوك التبابعة في علوِّ الصيت ونهاية الذكر، ثم ذكر عدداً منهم وجانباً من تاريخهم، وقد تمكَّن علماء الآثار من الحصول على أسماء عدد من ملوك حضرموت غير أنهم اختلفوا في الترتيب الزمني لحكم هؤلاء الملوك.

وهذه قائمة[١] بأسماء من عثر عليهم من ملوك حضرموت كما وضعها المستر فلبي:

(١) صدق إل - صديق ايل - ملك حضرموت ومعين، وقد حكم على

---

(١) نقلاً عن الدكتور جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام جزء (٢).

تقديره في حوالي سنة ألف وعشرين قبل الميلاد.

(٢) شهر علن بن صدق إل، تولى الحكم في حوالي سنة ألف ق.م.

(٣) معد يكرب بن اليفع يثع ملك معين، تولى الحكم في حوالي سنة تسعمائة وثمانين ق.م، ويرى فلبي أن حضرموت ألحقت بعد موت معد يكرب بمملكة معين، وظلت تابعة لها إلى حوالي سنة «٦٥٠» ق.م.

(٤) السمع ذبين - ذبيان - بن ملكي كرب.

(٥) يدع إل «ايل» بين بن سمه يفع، وقد حكما من سنة ستمائة وخمسين إلى سنة خمسمائة وتسعين قبل الميلاد، ثم أصبحت حضرموت على رأي «فلبي» جزءاً من قتبان أو سبأ حتى سنة مائة وثمانين قبل الميلاد.

(٦) يدع ال بين بن رب شمس، وهو مؤسس أسرة ملكية جديدة في العاصمة شبوة، وحكمه في حدود سنة مائة وثمانين قبل الميلاد.

(٧) اليفع ريم «ريام» بن يدع ال بين، وحكم في حوالي سنة مائة وستين قبل الميلاد.

(٨) يدع اب غيلن «غيلان» بن يدع ال بين، وقد حكم في حوالي سنة مائة وأربعين قبل الميلاد.

(٩) العذ «العز» بن يدع اب غيلان وشقيق امينم «أمين»، وقد حكم في حوالي سنة مائة وعشرين قبل الميلاد.

(١٠) يدع أب غيلان بن امينم، وقد حكم في حوالي سنة مائة قبل الميلاد.

(١١) يدع ال بين بن يدع اب غيلان، وحكم في حوالي سنة ثمانين قبل الميلاد، وترك «فلبي» فجوة لم يعرف من حكم فيها، جعلها بين سنة ستين وسنة خمس وثلاثين قبل الميلاد.

(١٢) عم ذخر، حكم في حوالي سنة خمس وثلاثين قبل الميلاد،

وربما لم يتولَّ الحكم.

(١٣) العذ يلط بن عم ذخر، وحكم في قرابة سنة خمس عشرة قبل الميلاد.

(١٤) الهان «علهان» أو سلفان ين العذيلط، حكم في حدود سنة خمس بعد الميلاد.

(١٥) العذيلط بن ألهان، حكم من سنة **٢٥** إلى **٦٥** ب.م.

(١٦) أب يزع وكان مكرباً، من المحتمل أنه حكم في حوالي سنة خمس وستين بعد الميلاد.

(١٧) يرعش بن أب يزع، ربما حكم حوالي سنة **٨٥** ب.م.

(١٨) علهان بن يرعش، **١٠٥ - ١٢٥** بعد الميلاد.

ويرى «فلبي» أنه منذ سنة **١٢٥** حتى **٢٩٠** بعد الميلاد كان الوضع في حضرموت غامضاً؛ فلا يُعرف من حكم فيها؟ أكان يحكمها مكربون، أم كانت تحت حكم مملكة سبأ وذي ريدان؟ غير أنها خضعت نهائياً في سنة **٢٩٠** بعد الميلاد لحكم ملوك سبأ وذي ريدان، فصاروا يعرفون لذلك منذ هذا العهد بملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت.

❖ سبأ تحكم حضرموت:

يقول الدكتور جواد علي في «تاريخ العرب قبل الإسلام»: إنه عثر على نص يدل على أن شمر يرعش ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات كان معاصراً للملك الحضرمي شرح إيل، وهذا يدل على أن مملكة حضرموت بقيت إلى ما بعد الميلاد حتى أيام شمر يرعش، وهو الذي تولى الحكم من سنة مائتين وسبعين إلى ثلثمائة بعد الميلاد - على تقدير فلبي - يحكمها وُلاةٌ من الحضارم يحملون لقب ملك، غير أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال بل كانت خاضعة في الواقع لمملكة «سبأ وذي ريدان».

وقد وقعت في أيام شمر يرعش هذا حرب بين سبأ وحضرموت أضعفت حضرموت كثيراً، ولعلَّها هي التي أجبرتها على الخضوع لسبأ والاعتراف بملك سبأ ملكاً على حضرموت.

ولما أراد الملك شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد - ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال والسواحل - بناء أحد السدود أمر بنقش تاريخ البناء على جداره، وفيه يقول: إنَّ العمل كان في سنة **٥٦٤** - **٥٦٥** الحميرية، وهذا يوافق عامي **٤٤٩** - **٤٥٠** من الأعوام الميلادية.

وهذا صريح في أن حضرموت ظلت إلى هذا التاريخ تابعة لليمن.

❖ حصون دفاع:

في كتابة سجَّلَها «شكم سلحان بن رضوان» قال الدكتور جواد علي: يظهر أنه كان من الموظفين أو الأعيان البارزين في حكومة حضرموت أن المكرب يرعش بن ابيزع كلَّفه بناء حصن «قلت» وغيره من الحصون، وإقامة استحكامات لصدِّ الحميريين الذين كانوا يطمعون في ضم حضرموت إلى ممتلكاتهم، وقد قام بهذا العمل مائة وعشرون عاملاً في خلال ثلاثة أشهر تقريباً.

وكان من بين هذه الحصون استحكامات ساحلية بنيت لحماية البر من الهجوم الحميري المتوقع، وحصون لحماية المنفذ المؤدي إلى وادي «ابنة» وإلى مدينة «ميفعة»، وبنيَ لهذه المدينة سور قوي وبُرجان هما: برج يذان، وبرج يذتان، وباب يكن، وأماكن يلتجئ إليها الجنود إذا لزم الدفاع عن المدينة، وموانع لسد الطرق وعرقلة الزحف، والذي قام بهذا العمل جماعة من الجنود، ويفيد هذا النص أن الحضرميين تمكنوا من صد محاولات الحميريين الهجوم على بلادهم.

❖ مؤسس شبوة:

الملك «يدع ال بين بن رب شمس» هو الذي أسس مدينة شبوة التي أصبحت عاصمة حضرموت بعد ذلك كما تدل الكتابات الحضرمية، وتدل بعض الكتابات على أن «يدع ال بين بن غيلان» بنى سور مدينة شبوة، وحصَّنه من أطرافه الثلاثة ابتغاء وجه الإلهتين «ذات حشول» و«ذات حميم» وتقرباً إلى «صدق ذخر» كبير حضرموت.

وقد تحدث المستر «فلبي» عندما زار شبوة أخيراً عما عثر عليه من آثار معابدها وقصورها القديمة وعن بقايا السدود التي كانت في شبوة لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها في إرواء تلك المناطق الواسعة الخصبة.

❖ مدينة ميفعة:

في بعض الكتابات ما يفيد أن «يدع ايل بن سمه علي» رَمَّم أسوار هذه المدينة، وميفعة هذه مدينة حضرمية يظهر أنها كانت عاصمتهم القديمة، وفي كتابة أخرى أن «هبسل بن شجب» هو الذي قام ببناء سور المدينة، كما بنى فيها بيوتاً ومعابد، وأتمَّ عمله بعده ابنه «صدق يد» فأعلى سور المدينة وأحكمه.

وفي كتابة[١] عثر عليها في وادي بيحان دُونت بمناسبة الإصلاح الذي أجري على جدران مدينة ميفعة ورد اسم «يدع ال بن سمه يفع»، واسم «السمع ذبيان بن ملك كرب»، ويرى «هومل» أن هذه الأسماء تشير إلى أسرة حكمت حضرموت، ويقدر «فلبي» حكمها بنحو ستين عاماً من سنة ستمائة وخمسين قبل الميلاد فما بعد.

---

(١) جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام.

❖ حصن أنود:

وعثر على كتابات مهمة جداً في مكان يُدعى «عقلة»، زاره المستر «فلبي» ووجد فيه خرائب جاهلية، وهو يشرف على وادٍ يمتد فيتَّصل بتلال شبوة، ويرى جواد علي أن هذا المكان هو «حصن أنود» الذي يقيم فيه ملوك حضرموت في القديم حفلاتهم عندما يتلقبون بلقب جديد لم يكونوا يعرفون به قبل انتقال العرش إليهم، وقال: إن هذا الحصن قد يكون قلعة كان يقيم بها الجيش؛ لحماية مزارع هذا الوادي.

وجاء في إحدى الكتابات أن الملك «العذيلط» زار حصن أنود لإعلان نفسه ملكاً على حضرموت لمناسبة تلقبه بلقبه الجديد، وقد رافقه في هذه الزيارة عدد من الزعماء والرؤساء، وفي كتابة أخرى سجَّلها «رب شمس» جاء فيها أنه رافق شقيقه «يدع اب غيلان» ملك حضرموت إلى حصن أنود لمناسبة الاحتفال بأخذ الملك لقبه، ولا يُعرف متى نشأت هذه العادة عند ملوك حضرموت، ولا السبب الذي جعلهم يختارون هذا المكان بالذات لإقامة حفلاتهم دون غيره.

ويرى «بيستن» أن الكتابات التي عرفت باسم كتابات عقلة واستنسخها «فلبي» تعود إلى ما قبل مائة وخمس عشرة قبل الميلاد، ويمتد تاريخها إلى ما بعد الميلاد، وربما إلى حوالي ثلاثمائة بعد الميلاد، حيث فَقَدت - على رأيه - حضرموت في ذلك الوقت استقلالها، واندمجت نهائياً في مملكة «سبأ وذي ريدان»[1].

❖ مدينة مذاب:

من مدن حضرموت المشهورة في القديم مدينة «مذاب»، وتقوم عليها الآن مدينة حريضة.

---

(١) الدكتور جواد علي.

وقد وَجَدت بعثة إنجليزية في هذا الموضع آثار معبد ضخم لعبادة الإله «سين»، ويعرف هذا المعبد باسم معبد «سين بن ذو مذاب»، ووجدت عند أبوابه كتابة دوَّنها رجل من الأشراف كان كبيراً على قبيلة «رمى»، ذكر فيها أنه جدَّد تلك الوجهة وعمرها، كما عثر على قبور بالقرب من حريضة يظن أنها تعود إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد.

❖ حروب حضرموت:

في عهد الملك «العذيلط» وقعت حرب بين حضرموت وبين «شعرم أوتر» الهمداني ملك سبأ وذي ريدان، وساعد حضرموت في هذه الحرب عدد من القبائل والجنود المرتزقة، ولكن جيوش الهمداني انتصرت على الحضرميين في موضع يقال له «ذات غراب»، وتقدم بعد ذلك أحد رجاله ويُدعى «سعد أحرس»، وكان قائداً ومفتشاً على الحدود، فأغار على أرض ردمان وأنزل بها أضراراً فادحة، ووصل «شعرم أوتر» نفسه بجيوشه إلى موضع سقطت الحروف الأولى من اسمه في الكتابة وبقي حرفان هما «. . . وت» لذلك يرى «كلاسر» أنهما بقية اسم عاصمة حضرموت شبوت أي شبوة، كما يرى أن سبب هذا النزاع كان التنافس على اقتسام تركة حكومة قتبان.

وكما كانت حضرموت في هذه المرة تحارب الهمدانيين كانت في وقت آخر تحارب إلى جانبهم ضد الحميريين، فقد ورد في بعض الكتابات أن الملك «علهان» الهمداني تمكن بالاشتراك مع حليفه «يدع ال» ملك حضرموت من محاربة الحميريين والتغلب عليهم، هاجمتهم قواته من الشمال وقوات حضرموت من الشرق، وكانت حضرموت التي استولت على أكثر أراضي قتبان تخشى حكومة مأرب والحميريين والريدانيين جميعاً، فقد أخذوا يهددون حضرموت وينافسونها في الغنائم التي حصلت عليها من قتبان، ولهذا كان من مصلحتها هذه المرة الاتفاق مع الهمدانيين.

ثم استمرت المعارك في أيام حكم ولَدَيْ «علهان الهمداني» حتى تم النصر في الأخير للريدانيين والحميريين.

ذهاب مملكة حضرموت:

تنقسم المدة التي حكم فيها الحميريون اليمن إلى قسمين:

القسم الأول عبارة عن زمن حكم الطبقة الأولى منهم والتي تلقب بملوك سبأ وريدان، وتبتدئ من سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد، وتنتهي بضم حضرموت إلى حكومتهم سنة مائتين وخمس وسبعين تقريباً بعد الميلاد.

أما القسم الآخر فهو الزمن الذي يلقب فيه ملوكهم بالتبابعة، ويبتدئ بانهيار المملكة الحضرمية وضمها نهائياً إلى حكم التبابعة الحميريين حوالي سنة مائتين وخمس وسبعين بعد الميلاد، حيث ضمت حضرموت إلى ألقاب ملوكهم، فسمي الملك منهم «ملك سبأ وريدان وحضرموت»، وينتهي بانتهاء دولة حمير الثانية سنة خمسمائة وخمس وعشرين ميلادية، والعرب لا يسمون ملك حمير تُبَّعاً حتى يضم حضرموت والشحر إلى مملكته.

وعلى ذلك يكون ذهاب المملكة الحضرمية التي نتحدث عنها الآن في أواخر القرن الثالث بعد الميلاد حين ضمها حكام اليمن الأقوياء من التبابعة إلى مملكتهم.

❖ آلهة حضرموت:

سبقت الإشارة إلى اكتشاف معبد الإله سين بالقرب من حريضة، ويرمز إلى القمر، وكان يعرف باسم «معبد سين ذو مذاب»، وكان الناس ينذرون له النذور، ويتقربون إليه؛ ليمنحهم العمر الطويل والخير والبركة.

وتدل الكتابات الحضرمية على وجود آلهة كثيرة كان يتعبد لها الحضرميون، منها سين الذي سبق ذكره، وحول، وعثتر، وشمس، ويُعَدُّ

الإله سين الإله القومي الرئيسي لشعب حضرموت؛ ولوجود معابد كثيرة في حضرموت لعبادة «سين» ورد هذا الاسم مضافاً إليه كلمة أو كلمات لتمييز المعابد بعضها عن بعض، مثل: سين ذو مذاب، وسين ذو مشور، وسين ذو علم إله علق أحن، وعلق أحن هذا اسم موضع قديم في حضرموت.

وتفيد النصوص التي عثر عليها أنه كان عند الحضرميين نوع من الشعور الديني الجامح نحو هذه الآلهة، فقد ورد في بعضها ما ترجمته: أن جسمه وروحه وأولاده وما يمتلكه ويقتنيه ونور عينيه وكل ما يفكر به في قلبه هو لسين إله حضرموت، وفي نص ظهر فيه اسم الملك «العذيلط» دوَّنه رجلان ربما كانا من موظفي هذا الملك، جاء فيه أنهما قدَّما سبعة تماثيل من الذهب باسم ملك حضرموت إلى الإله «سين ذو علم».

❖ النقود:

كان العرب الجنوبيون يضربون على النقود صوراً تمثل الملوك الذين أمروا بضربها، وعلى أطرافها اسم صاحبها أو نعته أو الطغراء التي كانت تشير إليه، ويرى بعض العلماء أن عرب الجنوب تعلموا ضرب النقود من اليونان.

وقد عثر على عدد من النقود الحضرمية صُوِّر على بعضها صورة نسر، وكتب على جانب منه «شقر»، ويرمز هذا الطائر إلى الإله القمر إله الحضارمة وهو الإله سين، وتاريخ هذا النقد يعود إلى القرن الثاني للميلاد في رأي بعض العلماء، ويرى البعض الآخر أنه ضرب في حوالي سنة ثلاثمائة بعد الميلاد، وأن من المحتمل أن يكون هذا النقد من ضرب الملك «شمر يرعش» بعد أن انضمت حضرموت في عهده إلى مملكة سبأ وذي ريدان.

❖ المسند:

المسند هو أقدم الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن،

فهو أقدم من القلم النبطي الذي استعار منه عرب الشمال خطهم الأول، وقد اشتهر المسند بأنه خط حمير، ولكن الحميريين لم يكونوا أول من أوجده، فقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وغيرهم.

ويتألف المسند من تسعة وعشرين حرفاً، وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث أنها لا حركة في الكتابة فيها، ولا ضبط في أواخر الكلمات، وقد يكتب الحرف المشدد مرتين، وتقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار، وتقرأ في بعض الأوقات من اليسار إلى اليمين على طريقة الكتابة اللاتينية، ويمزج بين الطريقتين أحياناً، فيكتب من اليمين إلى اليسار، فإذا انتهى السطر كتب من اليسار إلى اليمين وهكذا على شكل حلزوني.

ويرى ابن خلدون أن الخط بلغ في دولة التبابعة مبلغاً كبيراً من الإحكام والجودة؛ لما بَلَغَته دولتهم من الترف والحضارة، ولم تكن الكتابة منتشرة بين سكان الجنوب، وإنما كانت معروفة بين الخاصة منهم.

❖ اللغة:

كان أهل اليمن وحضرموت وعُمان يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم لهجة قريش وعرب الشمال، ولكن هذا الاختلاف بين لهجات العرب عند ظهور الإسلام لم يكن كبيراً جداً، فقد كان هناك شيء من التقارب في الألسنة بين عرب شبه الجزيرة في تلك الآونة.

ذلك أن سكان الجنوب - بما كان لهم من قوة ورقي - استطاعوا أن يوجدوا صلات تجارية وسياسية بينهم وبين جيرانهم من العرب، فكان ذلك سبباً في تقلص الفوارق الكبيرة بين لغتهم ولغة عدنان، وتقارب اللغتين في الألفاظ، وتجانس اللهجتين في المنطق.

ولما أخذت دولة الحميريين تدول، استطاعت لغة عدنان أن تتغلب على لغة حمير وأدبها؛ بفضل الأسواق والحج ومنافسة العدنانيين

للحميريين، ثم جاء الإسلام فساعد على محو اللهجات الجنوبية.

وقد تمكن المستشرقون من التقدم تقدماً محسوساً في دراسة اللهجات الجنوبية القديمة، فوضعوا مؤلفات في نحوها وصرفها، كما شرعوا في وضع معجم لغوي لها، وأصبح من الممكن بفضل هذه الدراسات قراءة الكتابات القديمة وفهمها بسهولة.

❖ التقويم:

لم يُعرف حتى الآن ما إذا كان العرب قبل الإسلام يستعملون تقويماً ثابتاً يؤرخون به الحوادث أم لا؟ وكل ما عُرف أنهم كانوا يستعملون جملة طرق في تأريخهم للحوادث، فأرخوا بحكم الملوك، وبأيام الرؤساء والمشايخ وأرباب الأسر، وهي طريقة عُرفت عند المعينيين والسبئيين والقتبانيين والحضرميين وغيرهم، فكانوا يشيرون إلى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان، أو في السنة كذا من حكم الملك فلان مثلاً.

ويظهر أن عرب الجنوب كانوا يستعملون التقويم الشمسي في الزراعة، كما كانوا يستعملون التقويم القمري والتقويم النجمي الذي يقوم على رصد النجوم، وقد اتخذ الحميريون منذ سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد تقويماً ثابتاً يؤرخون به، وهي السنة التي قامت فيها الدولة الحميرية.

وكان العرب قبل الإسلام يستعملون أسماء أشهر لم يستعملها المسلمون عند ظهور الإسلام مثل: موتمر وناجر وخوان وصوان وناطل وداغل وغيرها، ويظهر أنها لم تكن شائعة عند القبائل، ولذلك لم يُكتب لها البقاء، ولعل أكثرها كان قد أهمل استعمالها أو أصبح استعمالها شاذاً قبل الإسلام، وهذه الأسماء أقدم عهداً من الأشهر المستعملة في التاريخ الهجري بكثير.

أما الأسماء في الجاهلية فهي: السبت: شيار. الأحد: أول.

الإثنين: أهون، وأوهد. الثلاثاء: جبار. الأربعاء: دبار. الخميس: مؤنس. الجمعة: عروبة.

❖ القوانين:

لم يعثر الباحثون - حتى الآن - على نصوص تتحدث عن التشريعات والقوانين التي كان يصدرها ملوك حضرموت أو معين أو سبأ، غير أنه لا يستطيع أحد أن يدعي أن تلك الحكومات لم يكن لديها تشريع ولا قوانين[١].

فقد عثر الباحثون على عدد غير قليل من الكتابات ظهر أنها أوامر وقوانين وتعليمات أصدرها ملوك قتبان، فلا يمكن أن يكون القتبانيون جيران حضرموت قد انفردوا وحدهم دون غيرهم من ممالك الجنوب في التشريع[٢].

وقد كانت هذه القوانين القتبانية محكمة ومنطقية وراقية إذا قيست بالقوانين التي كانت عند الشعوب الأخرى في ذلك الوقت، وكانت تتناول كيفية دفع الضرائب وأوقات تقديم حصص الحكومة من الحاصلات الزراعية، وتأجير الأراضي الحكومية إلى الأهلين، وتنظيم علاقة الأفراد بعضهم ببعض، كما تبين العقوبات التي تفرض على المجرمين، ومنها ما يتعلق بتنظيم أمور التجارة في قتبان، إلى غير ذلك من القوانين التي لها صلة بالأمن وتنظيم شؤون الاقتصاد في البلاد.

وبالجملة فإن المعلومات التي عثر عليها الباحثون عن القوانين القتبانية تعطي صورة عن مدى اهتمام ممالك الجنوب العربي قبل الإسلام بفرض القوانين وسن التشريعات، وسوف تكون للنتائج التي تفسر عنها أبحاث

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢) نفس المصدر.

المنقبين أهمية كبرى في اكتشاف نواحي الحضارة في هذا الجزء المهم من بلاد العرب.

❖ الأجانب في جنوب الجزيرة:

لم تكتمل حتى الآن الأبحاث التاريخية عن صلة الجنوب العربي قبل الإسلام باليهود واليونان والرومان والأحباش والفرس وغيرهم من الأجانب، وإذا كانت المعلومات التي وصلت إلينا عن صلة اليمن بهؤلاء الأجانب لا بأس بها فإن التاريخ الحضرمي من هذه الناحية لا يزال غامضاً.

والروايات في هجرة اليهود إلى جزيرة العرب مختلفة، فبينما تقول بعض الروايات: إنَّ العبرانيين هاجروا قبل أيام داود إلى بلاد العرب وسكنوا في الحجاز في منطقة يثرب وفي خيبر، تفيد روايات أخرى أنهم هاجروا في أيام داود، وبعض الأخبار تُرجِع هجرة اليهود إلى أيام خراب الهيكل على أيدي بخت نصَّر البابلي، وإلى فتح الرومان لفلسطين، حيث فضَّلت جماعات منهم الذهاب إلى اليمن والحجاز، ومن هؤلاء المهاجرين العبرانيين يتكون يهود خيبر ويهود اليمن، وفيهم - كما يظهر - عرب تهودوا بتأثير التبشير، وقد كانت الديانة اليهودية معروفة في حضرموت قبل الإسلام، إما بواسطة هجرة العائلات اليهودية أو بفعل التبشير.

وقد كانت الأخبار التي انتشرت عن ثروة الجنوب العربي وأهميته في عالم التجارة سبباً في تفكير الإسكندر في غزو جزيرة العرب بحراً، وقد شرع فعلاً في تهيئة السفن وإعداد البحارة، ولكن موته المفاجئ ثم تنازع قواده وانقسامهم صرف قواده عن تنفيذ هذه الفكرة، وحاول أغسطس قيصر من بعده احتلال الجزيرة من البر، فمُنِيَ جيشه بخسارة عظيمة، وهلك منه خلق كثير.

وفي أيام البطالسة بمصر قدم «أريستون» أحد رجال بطليموس الأول

إلى البحر الأحمر؛ لتعرف سواحل بلاد العرب، فطاف بسواحل خليج العقبة والحجاز، وذكر قوم ثمود ومعين، وهو أول إغريقي أشار إلى ثمود.

وفي أيام بطليموس فيلادلفوس أُسست موانئ جديدة في سواحل البحر الأحمر؛ لرسوِّ السفن فيها، والمحافظة على سلامة الطرق البحرية إلى جزيرة سقطرى حيث أنشئت فيها جملة مستعمرات يونانية، وقد بقي اليونان فيها عصوراً غير أن نزولهم فيها - كما يقول الدكتور جواد علي - لا يدل حتماً على احتلالهم لها، وقد ذكرت الكتب الكلاسكية أسماء مواضع في سواحل الجزيرة العربية اتخذت منازل لإقامة البحارة الإغريق والتجار بها دعيت بأسماء يونانية.

وقد ترك هذا الاتصال التجاري بين اليونان وعرب الجنوب آثاراً واضحة منها: الكلمات المعربة الإغريقية الأصل، والنقود التي عثر عليها في العربية الجنوبية والتي ظهر أن بينها وبين نقود عصر البطالسة شبهاً كبيراً جداً، كما عثر على كتابات عربية بالمسند في بعض جزر اليونان يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

ولما ضعف خلفاء الإسكندر وانحلت مملكتهم واستولى الرومان على مصر أوعز «أغسطس» إلى حاكم مصر أوليوس غالوس» بغزو جزيرة العرب والاستيلاء عليها وعلى ثروتها العظيمة من الاتجار بالمرِّ واللبان والبخور والأفاويه، وكلف هذا القائد بقيادة الحملة سنة أربع وعشرين قبل الميلاد.

وقد تعرض جيش الرومان في هذه الحملة لصعاب ومخاطر كثيرة؛ بسبب بعد المسافة ووعورة الطرق وقلة الماء فيها وعدمه أحياناً، ومات بعضهم بالأمراض والأوبئة، ومن بين الأسماء التي ذكر مؤرخو هذه الحملة وصول الجيش إليها نجران والجوف بالقرب من حدود حضرموت، ولكنا لم نقف حتى الآن على ما يدل على وصولهم إلى حضرموت، وقد نشبت معارك قتل فيها عدد كبير من العرب على زعم مؤرخ هذه الحملة «سترابون».

ويرى بعض المؤرخين أن الجيش الروماني نزل أولاً إلى ميناء «لويكة كومة» ميناء النبط الأعظم، وهو - في رأيه - ما يعرف اليوم بـ«الحوراء»، ثم سلك طريق يثرب واتجه إلى القصيم حيث دخل قلب نجد، ثم سار في اتجاه نجران، ومنها دخل اليمن، فاصطدم باليمانيين، ولما عاد سلك طريقاً أخرى أقصر من الطريق التي جاء بها حتى وصل إلى ينبع حيث أبحر من بقي حيًّاً منهم إلى مصر.

ويظهر أن الرومان بعد إخفاق حملتهم هذه لم يفكروا في غزو جديد لبلاد العرب، بل اكتفوا بتحسين علاقاتهم مع العرب؛ للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية، وأغلب الباحثين يرون أن تلك الحملة كانت في عهد حكومة سبأ وذي ريدان.

أما الأحباش فقد أخذوا يطمعون في بلاد حمير من أوائل عهد المسيحية على أثر ذهاب دولة سبأ، ويرى بعض المؤرخين أن جماعة من الأحباش احتلوا الشواطئ الجنوبية عند بلاد المهرة في القرن الأول قبل الميلاد يترقبون فرصة للوثوب على الحميريين طمعاً في ثروة بلادهم.

وهناك أخبار صحيحة تقول بأن الأحباش حملوا على شواطئ اليمن في أوائل القرن الثاني للميلاد، وعادوا فجدَّدوا الحملة في أواخر القرن الثالث، ففتحوا بعض اليمن وبعض تهامة، ثم طردهم الحميريون، وعادوا بعد خمسين سنة فاكتسحوا اليمن كلها، وتوالت الوقائع بين الأحباش وحمير في أوساط القرن الرابع للميلاد، كانت الحرب فيها سجالاً، واستعاد الحميريون سلطتهم سنة ٣٧٤م وما زالت في قبضتهم حتى غزاها الأحباش المرة الأخيرة سنة ٥٢٥م في عهد الملك ذي نواس الحميري الذي كان شديد التعصب لليهودية، والذي غزا نصارى نجران، وخدَّد لهم الأخاديد وحرقهم فيها.

ولما ضاق الحميريون بسلطة الأحباش استنجد سيف بن ذي يزن - أحد

أمراء حمير - بكسرى ملك فارس سنة **٥٧٣**م فأمدَّه بجيش حارب الأحباش واحتل به البلاد، وظل حكم الفارسيين في اليمن إلى أن جاء الإسلام.

ولم أقف فيما اطلعت عليه من المصادر التاريخية على ما يشير إلى امتداد الغزو الروماني أو الاحتلال الحبشي والفارسي إلى حضرموت، وربما تكشف الدراسات التاريخية عما يوضح الغموض في هذه الناحية.

❖ أرض الطيب والبخور:

ذكر «سترابون» مؤرخ الحملة الرومانية إلى بلاد العرب أن أرض الطيب والبخور تتألف من أربعة أقسام وهي: معين وسبأ وقتبان وحضرموت، وقال عن حضرموت: إنهم أبعد هذه الشعوب إلى الشرق، و«سترابون» بهذا يشير إلى الشعوب الرئيسية التي يتألف منها مجتمع العربية السعيدة في ذلك الوقت، ولم يكن يقصد الناحية السياسية إذ لم تكن في العربية الجنوبية حكومة مستقلة أثناء الحملة الرومانية غير حكومة سبأ كما يرى الدكتور جواد علي.

وذكر «سترابون» أن المجتمع في ذلك العهد كان يتكون من طبقات لكل طبقة واجب ووظيفة، وهي وراثية تنقل من الآباء إلى الأبناء، وهذه الطبقات هي: طبقة المحاربين، وطبقة التجار، وطبقة المزارعين.

ومن الكتَّاب الكلاسيكيين الذين نقل عنهم جواد علي المؤرخ ديودروس وقد قال عن السبئيين: إنَّ في أيديهم البخور واللبان والطيوب والمرَّ والبلسم والعنبر والكحل وكل السلع الثمينة التي تباع بأعلى الأثمان وأغلاها، وعندهم مختلف أنواع الماشية، وتربتهم خصبة جداً، ولهم مملكة وملوك يتوارثون الملك، ولهم سلطان واسع، وحكم مطلق في تشريع القوانين وإصدار الأحكام، وهم أغنياء جداً؛ ولذلك اتخذوا آنيتهم من الذهب والفضة، وجعلوا قوائم أسرَّتهم وكراسيهم من هذين المعدنين، وكسوا أبواب المعابد والغرف بالذهب، وطعَّموا الجدران والتماثيل بالأحجار الثمينة.

والجرهائيون من بين شعوب الجزيرة العربية الذين تحدث الكُتَّاب الكلاسيكيون عن ثروتهم وتجارتهم العظيمة، وكانوا يتاجرون مع حضرموت، فتصل قوافلهم إليها في أربعين يوماً وتعود وهي محملة بحاصلات العربية الجنوبية وحاصلات إفريقية المرسلة بواسطتها، وهي بضاعة نافقة ذات أثمان عالية في الأسواق التجارية لذلك العهد.

❖ حضارة العرب القدماء:

وبالجملة فإنَّ ما قيل عن جهل العرب قبل الإسلام وبداوتهم على وجه الإطلاق وعزلتهم عن بقية أجزاء العالم شيء لا يستند إلى أساس، فهذا تاريخ الجنوب العربي يثبت - بما لا يقبل الشك - مشاركتهم في التاريخ العالمي وفي الثقافة الإنسانية، ويقدم الأدلة القاطعة على ما كان لجزيرتهم من شأن عظيم في العالم الاقتصادي، ويحدِّثنا عما أنشأوا من حضارات، وما وضعوا من نظم للرِّي، وما بنوا من معابد ضخمة، وهياكل كبيرة، وبيوت وقصور فخمة، وكيف كانوا يسيرون تجارتهم إلى أسواق العالم القديم، وسفنهم إلى البحار النائية.

وتروي كتب التاريخ أنه كانت لهم علوم وفنون تتناسب وما وصلوا إليه من درجات التمدين والحضارة، وكانت لهم قوانين موضوعة وشرائع مسنونة ومدارس ومعاهد للتربية والتعليم[١]، فمن علومهم هندسة إرواء الأرض وعمارة المدن وعلم الآلات والحساب والطب والبيطرة والزراعة والآداب، غير أن هذه المعارف كانت عملية تعتمد على التجارب.

❖ حكومة كندة:

كان الحميريون أثناء حكمهم لحضرموت يولُّون أصحاب الكفاءات من الكنديين بعض الأعمال الحكومية، كما كانوا يصاهرونهم ويستخدمون

---

(١) تاريخ التربية لمصطفى أمين.

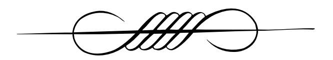
خاصتهم وكبارهم في مصالحهم الخاصة ويدخلونهم في بطانتهم وحاشيتهم، فلما ضعفت الدولة الحميرية وتفككت أوصالها برزت كندة تفرض سلطانها على كثير من مناطق البلاد الحضرمية.

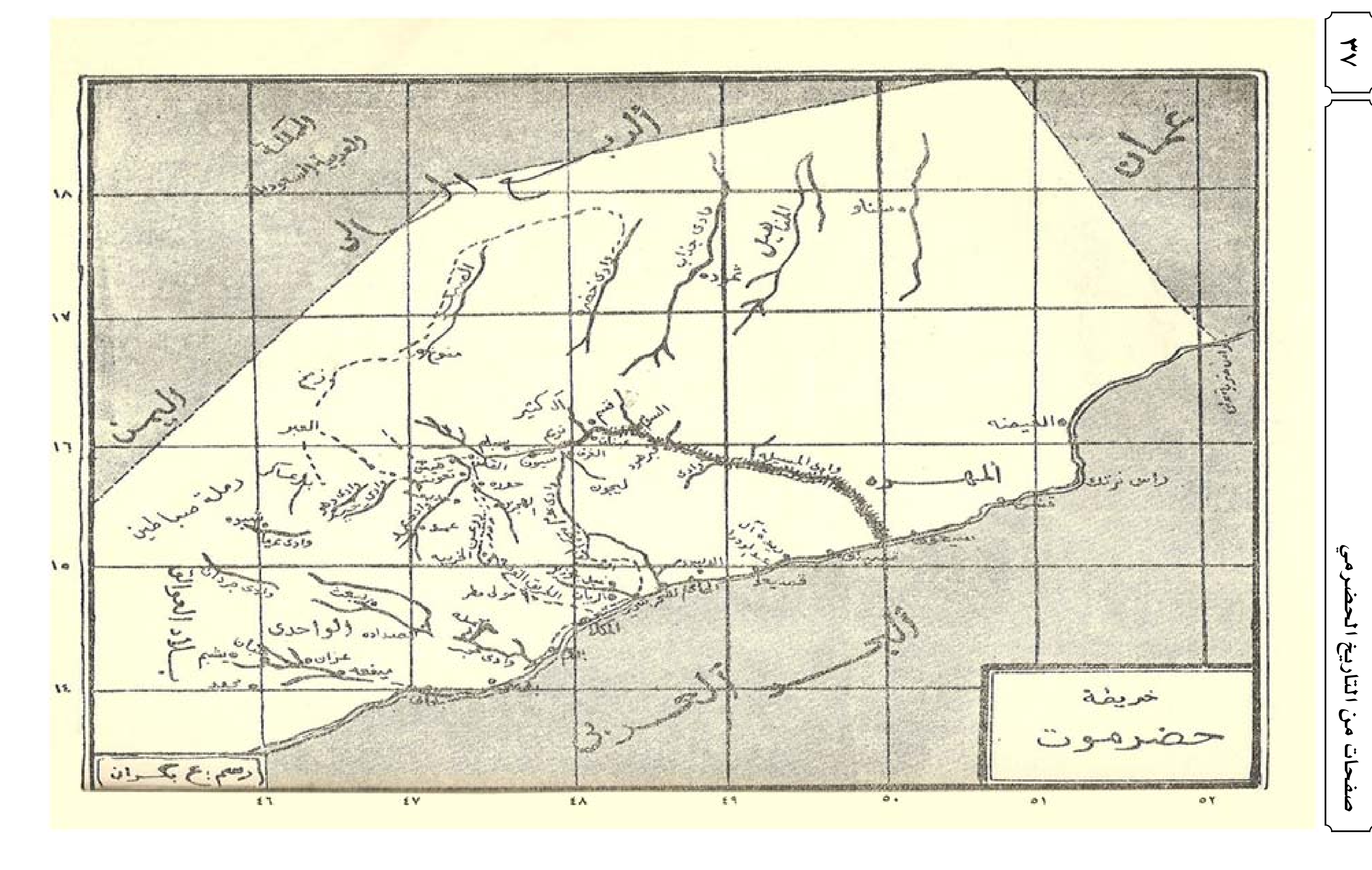
ويقول النسَّابون: إنَّ كندة من ولد عفير بن عدي بن الحارث بن مُرَّة بن أدد بن زيد بن كهلان القحطاني، وقالوا: إنَّ لعفير ابناً يُدعى ثور أعقب من فخذين هما معاوية وأشرس، فمن عقب أشرس: السكون والسكاسك وآل شبيب وآل عقبة وسعد وتجيب والصدف، ومن عقب معاوية الملوك المشهورون، ويسمى بمعاوية الأكرمين، ويقال: إنه كان في بني معاوية سبعون ملكاً آخرهم الأشعث بن قيس الذي ترجمنا له في فصل خاص من هذا الكتاب.

وقد كان بين كندة وحضرموت حروب في الجاهلية أفنت كثيرا مًنهم، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وبقي العداء بينهم حتى جاء الإسلام، ويذكر المؤرخون من رؤساء كندة في هذه الحروب سعيد بن عمرو بن النعمان بن وهب وكان على بني الحارث بن معاوية، وشرحبيل بن الحارث وكان على السكون.

ولما جاء الإسلام كان في بني عمرو بن معاوية أربعة رؤساء أو أمراء كلهم إخوة أبناء أب واحد وهم: جمد ومخوص ومشرح وأبضعة، وكانت لهم أخت تدعى «العمرّدة»، وكان لكل واحد منهم وادٍ يملكه ومحجر خاص يقيم فيه، أما بنو الحارث بن معاوية فكان أميرهم الأشعث بن قيس.

ولم تكن البلاد الحضرمية جميعها خاضعة لكندة في هذا العهد، فقد كان هناك أمراء آخرون من حضرموت وغيرهم يسيطرون على بعض مناطق في الساحل والداخل، ربما كان أبرزهم وأعظمهم شأناً وائل بن حجر الحضرمي الذي افتتحنا هذا الكتاب بفصل خاص عنه.




خريطة
حضرموت
عمان
اليمن
الربع الخالي
المملكة العربية السعودية
المهرة
البحر العربي
بلاد العوالق
الواحدي
رملة صباطين
العبر
آل كثير
الغيضه
راس فرتك
سناو
المكلا
رسم: ع بكران
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢

«١»

وائل بن حجر الحضرمي

أنباء الحجاز - إسلام حضرموت - بقية أبناء الملوك - وثيقة تاريخية - عودته إلى حضرموت - انتشار الإسلام

❖ أنباء الحجاز:

وردت الأنباء - إلى حضرموت - ذات يوم تحملها قوافل الحجاج العائدة من مكة بعد انتهاء موسم الحج تتحدث عن فتى قريش ودعوته الجديدة إلى التوحيد وإصلاح النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والوثنية، فلم يحفل بها سادات الحضارم وأمراؤهم بادئ الأمر، ولم يعيروها كبير اهتمام؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا ما سيكون لصاحب هذا الأمر من شأن، وما ستحرز دعوته من نجاح.

واستمرت وفود الحضارم كل عام تشهد موسم الحج، وتعود بما تسمع وترى من أخبار محمد - عليه السلام - وانتشار دعوته متحدثة عن تفاصيل هذه الدعوة الجديدة، وما كان يلقاه صاحبها من معارضة وأذى من قومه وعشيرته الأقربين.

وفي أحد مواسم الحج هذه عرض النبي - عليه السلام - نفسه على من حضر الموسم من حجاج الحضارم طالباً إليهم نصرته وحماية دعوته، فلا يقطعون فيما عرض عليهم برأي ويقولون: قوم الرجل أدرى به.

وتتوالى الأيام سراعاً، فإذا محمد - عليه السلام - في المدينة على

رأس جماعة كبيرة من المسلمين، قد نبذوا حياة الوثنية وعادات الجاهلية، واستقبلوا عهداً جديداً يعبدون فيه إلهاً واحداً ويدينون بدين واحد يدعو إلى المساواة ومحو الفوارق بين الناس، وإلى جمع شتات المسلمين تحت نظام واحد وسلطة واحدة، ثم لم يكتفوا بإعلان دعوتهم والجهر بها فقط، بل جردوا سيوفهم يحاربون بها كل من عارضهم أو أضمر في نفسه كيداً لهم ومحاربة لدينهم، فهزموا قوات المشركين في بدر وحنين وغيرهما من المواقع الحربية، وفتكوا بيهود بني قريظة، وأجلوا غيرهم من يهود الحجاز، وانسحب الروم أمامهم في تبوك، وتمَّ لهم نصر الله وتأييده حين فتحوا مكة وأسلم المتخلفون من قريش.

❖ إسلام حضرموت:

وتناقل الناس في أنحاء الجزيرة العربية أنباء الانتصارات التي أحرزها المسلمون، وتحدثوا عن وفرة عددهم، وقوة جيوشهم وصلابتهم في دينهم وتحمسهم لعقيدتهم، فأسرعوا إلى إعلان إسلامهم، وقدمت وفود منهم إلى المدينة في السنة العاشرة من الهجرة تعبِّر عن طاعتها وإذعانها حتى لم يبقَ في شبه الجزيرة العربية بطن أو قبيلة إلا أسلم.

وآن لحضرموت أن تعتنق الدين الجديد: دين الإسلام، وتنضم إلى الوحدة التي دعا إليها نبي المسلمين حيث لا مجال للتردد، لقد وضح الحق ووصلت الدعوة الجديدة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من نجاح وانتشار، فاجتمع أصحاب الكلمة وذوو الرأي من الحضارمة تحت رئاسة أمرائهم ورؤسائهم؛ ليصلوا إلى نتيجة بشأن هذا الانقلاب التاريخي العظيم الذي أوشك أن يبدل التقاليد والعادات والأنظمة والمعتقدات، وانفضَّت اجتماعاتهم عن قرارات حاسمة تقضي بوجوب اعتناق الدين الإسلامي، والدخول في جماعة المسلمين، والانضمام إلى وحدتهم الكبرى، وأسرعت البلاد ترسل ممثليها إلى المدينة عاصمة الإسلام الأولى تقدِّم

الطاعة، وتعلن عن إسلام الحضارمة وإذعانهم لأحكام الدين الجديد وتعاليمه.

تجهَّزَ الأشعث بن قيس الكندي أمير بني الحارث بن معاوية في ثمانين راكباً من قومه للقاء النبي - عليه السلام - في المدينة، كما قدم عليه فيها ملوك بني عمرو بن معاوية وأمير جردان ورئيس الجعفيين قيس بن سلمة في رهط من عشيرته، وكذلك أمير بلاد الشاطئ وائل بن حجر الذي نتحدث عنه في هذا الفصل الأول من الكتاب، وكان النبي - عليه السلام - يَقْبَل إسلامهم، ويُقِرُّ كل أمير على إمارته.

❖ بقية أبناء الملوك:

وكان النبي - عليه السلام - قد أخبر أصحابه بقدوم وائل بن حجر قبل أن يقدم المدينة، فقال لهم ذات يوم: «يأتيكم بقية أبناء الملوك»، فلمَّا قدم وائل في السنة العاشرة من الهجرة، رحَّب به النبي، وأدنى مجلسه، وبسط له رداءه الشريف؛ ليجلس عليه مبالغة منه - عليه السلام - في إكرامه، وقال: اللَّهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة، ثم أصعده على المنبر وأقطعه أرضاً وكتب له عهداً، وقال: هذا وائل سيد الأقيال، أي الملوك؛ لأن القَيْل في اصطلاحهم الملك.

ولما همَّ وائل بالانصراف من هذه المقابلة أمر النبي - عليه السلام - معاوية بن أبي سفيان أن يصحبه إلى المنزل الذي أُعِدّ لإقامته فيه بالحرَّة في ضاحية المدينة، فمشى معاويةُ معه، وكان وائل راكباً، وفي الطريق إلى الحرة جرى بينهما الحديث التالي:

معاوية: أعطني نعلك أتوَقَّ بها الرمضاء.

وائل: لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك.

معاوية: أرْدفني إذن.

وائل: لستَ من أرداف الملوك.

معاوية: إنَّ الرمضاء قد أحرقت قدمي.

وائل: امشِ في ظل ناقتي كفاك بها شرفاً.

وخضع معاوية القرشي لزهو الملك الحضرمي وشعوره بمركزه؛ تنفيذاً لأمر النبي له في أن يصحبه إلى الحرَّة، فسار معه حافياً.

وقد عاش وائل حتى قدم على معاوية بالشام وهو أمير المؤمنين، فتلقاه معاوية وأكرمه ورحب به، وقدم له من صنوف الاحترام والتقدير ما جعل وائلاً يتذكر الحديث الذي جرى بينهما في الطريق إلى الحرَّة، ويقول: وددت لو كنت حملته بين يديَّ، وعرض عليه معاوية جائزة سنية، فأبى أن يأخذها، وقال له: أعطها من هو أحوج إليها مني.

❖ وثيقة تاريخية:

وفي هذا الكتاب الذي كتبه النبي - عليه السلام - لوائل بن حجر وثيقة تاريخية تعطينا صورة عن أسلوب الكتابة وعن المفردات اللغوية المستعملة في ذلك العصر بين الحضرميين، فقد كان النبي - عليه السلام - يخاطب كل قوم بلهجتهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضرموت، إنك إن أسلمت لك ما في يديك من الأرض ويؤخذ من عشر واحدة، ينظر في ذلك ذوا عدل، وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين، والنبي والمؤمنون أشهاد عليه».

وفيه: إلى الأقيال العباهلة(١) والأرواع(٢) المشابيب(٣).

---

(١) العباهلة: هم الذين أقرّوا على ملكهم لا يزالون عنه، واحده عبهل.

(٢) الأرواع: جمع رائع، وهم الحسان الوجوه، أو الذين يروعون الناس.

(٣) المشابيب: أي السادة، واحدهم مشبوب.

وفيه: في التبيعة[١] شاة لا مقوّرة الألياط[٢] ولا ضناك[٣]، وانطوا[٤] الثبجة[٥]، وفي السيوب[٦] الخمس، ومن زنى ممبكر[٧] فاصفعوه[٨] مائة واستوفضوه[٩] عاماً، ومن زنى ممثيب فضرجوه[١٠] بالأضاميم[١١]، ولا توصيم[١٢] في الدين ولا غمة في فرائض الله[١٣]، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل[١٤] على الأقيال.

❖ عودته إلى حضرموت:

وعاد وائل إلى حضرموت بعد أن قبل النبي إسلامه وأقره على إمارته، وظل الرجل عامر القلب بالإيمان ممتلئ الصدر بحب الدين الجديد وتعظيم صاحب الرسالة العظمى، إلى أن أدركته منيته بالعراق في آخر خلافة معاوية، وكان قد انتقل إليها في آخر أيامه وله عقب بها، وقد عدَّه المؤرخون بين رجال الحديث ورواته، فذكروا[١٥] أنه روى عنه ابناه علقمة

---

(١) التبيعة: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان.
(٢) مقوّرة الألياط: هزيلة مسترخية الجلد. الأقوار: الاسترخاء. الألياط: الجلود.
(٣) الضناك: المكتنزة اللحم، يقال للذكر والأنثى بغير هاء.
(٤) انطو: اعطوا.
(٥) الثبجة: الوسط لا من خيار المال ولا من رذالته.
(٦) السيوب: الركاز.
(٧) ممبكر: أي من البكر.
(٨) اصفعوه: اضربوه.
(٩) استوفضوه: انفوه.
(١٠) ضرجوه: ارموه.
(١١) الأضاميم: الحجارة.
(١٢) لا توصيم: لا تكاسل ولا توان.
(١٣) لا غمة في فرائض الله: أي لا يستتر بها وإنما يجهر بها.
(١٤) يترفل: أي يتسوّد ويترأس.
(١٥) الإصابة في أسماء الصحابة ج٦ .

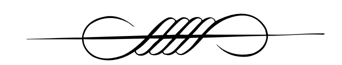
وعبدالجبار وزوجه أم يحيى ومولى لهم وكليب بن شهاب وحجر بن عميس وآخرون، كما ذكروا أن من عقبه العلامة عبدالرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير والفيلسوف الكبير.

❖ انتشار الإسلام:

وانتشر الإسلام في أنحاء البلاد الحضرمية بعد عودة الوفود، وحلَّ الدين الجديد محل الأديان التي كان الحضارم يدينون بها، فقد كانت الأغلبية منهم وثنية كغيرهم من العرب، وكانت هناك أقليات تعتنق اليهودية أو النصرانية.

وأقبل زياد بن لبيد عاملاً على حضرموت من قبل النبي - عليه السلام - فأقام في تريم وتارة في شبام، وأمده النبي بمعاذ بن جبل يطوف بأرجاء البلاد يعلِّم الناس القرآن، ويفقههم في الدين، وأقام زياد عنه نوابا فًي أنحاء القطر يجمعون الصدقات، وكان زياد يوزِّع صدقات الأغنياء على الفقراء، ويرسل ما فضل عن الحاجة إلى المدينة.

وبذلك استقبلت حضرموت عهدا جًديداً في ظل الإسلام خلعت فيه حياة الجاهلية وعبادة الأوثان، وانصرفت إلى توحيد الله وعبادته، وتطبيق أحكام الدين الإسلامي راضية مطمئنة.



«٢»

الأشعث بن قيس الكندي

سيد كندة - إسلامه - زواجه أم فروة - بيعة الصديق - شرارة فتنة - تطور الموقف - الأشعث في الميدان - المعركة الفاصلة - الأشعث أمام الخليفة - نشاطه الحربي والسياسي - أحفاد الأشعث

❖ سيد كندة:

سيد من سادات كندة وأمير من أمرائها المعروفين بالفصاحة والشجاعة، كان أبوه قيس ملكاً عظيم السلطان، وكان صاحب ثروة وكرم وشهرة واسعة، قصده الشعراء ومدحوه وأثنوا عليه، وكان يقود بنفسه جيوشه في الغزوات والحروب التي تنشب بينه وبين جيرانه من مذحج وبني عامر وغيرهم من العرب، وفي إحدى حروبه مع مذحج وقع ابنه الأشعث أسيراً ففداه بثلاثة آلاف بعير بزيادة ألف بعير عن دية الملوك.

نشأ الأشعث - لذلك - في أحضان الملك ونعيمه وأبهته، واكتسب من محيطه خبرة بشؤون الحرب وتصريف الأمور، وورث عن أبيه مكانته في كندة ونفوذه بينهم، وكان خليقاً بذلك لشجاعته وإقدامه ودهائه وفصاحته.

وشهد الأشعث كثيراً من الحروب مع أبيه فجعلت منه بطلاً مغواراً بصيراً بالحرب، رابط الجأش ثابت العزيمة، ولما قتل أبوه سنة **٣٥** بعد الميلاد النبوي في إحدى وقائعه الحربية مع قبيلة مراد جمع جموعاً كثيرة

لقتالهم واشتبك معهم في معارك انتهت بوقوعه أسيراً في أيديهم ولم يطلق سراحه حتى افتدي بألف ناقة وألف طرفة من طرائف اليمن.

ولم يكن الملك في هذا العهد يعرف نظاماً أو حدوداً معينة، إنما هي سلطة مطلقة لا حدّ لها، أشبه ما تكون برئاسة القبائل التي تعتمد على العصبية ولا تتقيد بنظام خاص، وقد كان صاحبنا الأشعث يعتمد في نفوذه على عشيرته من بني الحارث بن معاوية، وكان يقيم في محجره الخاص بين منازل قومه.

وقد عاصر الأشعث أمراء آخرون من كندة وغيرهم لهم في مناطقهم وبين عشائرهم ما للأشعث من نفوذ وسلطان، فكان في بني عمرو بن معاوية خمسة رؤساء أو أمراء كلهم إخوة أبناء أب واحد وهم: جمد ومخوس ومشرح وأبضعة وأختهم العمرَّدة، وكان لكل منهم وادٍ يملكه ومحجر خاص يقيم فيه، وكان لغير هؤلاء أمراء آخرون يقيمون في شبام ودوعن وعمد وجردان والشحر وغيرها من مناطق الدواخل والسواحل.

❖ إسلامه:

لما جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كان الأشعث بن قيس رئيس أكبر الوفود الحضرمية التي قدمت على النبي - عليه السلام - في السنة العاشرة من الهجرة، فقد تحدث التاريخ بأن الأشعث تجهز في ثمانين راكباً من قومه اختاروا لهم أجود إبلهم وأقواها وأعدوا لهذا السفر الطويل الشاق من زاد وسلاح وأبّهة ما حسبوا أنه يكبرهم في صدور من يمرون بهم من العرب في اليمن ونجران، ومن يقدمون عليهم في الحجاز من سادات قريش وأشراف الأوس والخزرج.

ومرت أسابيع وركب الأشعث مجداً في سيره يطوي الوهاد والنجاد ويقطع المفاوز والأودية ويمر بسادات القبائل ورؤسائها فيقابل بما هو له أهل من ترحاب وإكرام حتى يقدم المدينة بعد ما يقرب من شهرين.

وبينما كان النبي - عليه السلام - ذات يوم في المسجد بين أصحابه يتحدث إليهم كعادته، أقبل الأشعث في ركبه الفخم يشق شوارع المدينة لا يفارقون ظهور إبلهم حتى وصلوا المسجد فأناخوها بفنائه، ودخلوا على النبي في أحسن هيئتهم، قد رَجَّلوا لممهم وتكحلوا ولبسوا جبب الحبر بطنوها بالحرير - والحبر أثواب يمانية ذات خطوط تنسج من القطن أو الكتان - فبالغ النبي في إكرامهم والحفاوة بهم، وكان مما قاله لهم حين رآهم يلبسون الحرير: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: فما هذا الحرير في أعناقكم؟ فبادروا فشقوه من جببهم وألقوه.

❖ زواجه أم فروة:

ولم يشأ الأشعث أن ينصرف إلى حضرموت حتى يربط هذه الزيارة التاريخية بصلة متينة، فخطب «أم فروة» بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق، ولم يتردد الصديق في قبول هذه الخطبة إذ كانت بمعرفة النبي - عليه السلام - وموافقته، وبذلك أصهر الأشعث إلى قبيلة تيم القرشية وإلى كبير المسلمين وأكثرهم حظوة عند رسول الله وصاحبه في الغار، وهي بعد ذلك عمة أم المؤمنين وزوج رسول الله عائشة الصديقة بنت الصديق، ولكن زواجه لم يتم بها إلا في السنة الثانية عشرة من الهجرة بعد وفاة رسول الله وفي خلافة الصديق.

ويذكر بعض المؤرخين أن النبي - عليه السلام - خطب قتيلة بنت قيس أخت الأشعث، كعادته في الإصهار إلى قبائل العرب رغبة في تقريبهم إلى الإسلام وتوكيداً للصلات التي يسعى النبي - عليه السلام - في عقدها مع قبائل العرب الكبرى، ولكن رسول الله توفي قبل أن تقدم عليه.

❖ بيعة الصديق:

لم يمض على إسلام الحضارم سنة واحدة حتى قدم البريد بكتاب من الخليفة الأول إلى زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبي ويأمره بأخذ البيعة على من

قِبَلَه من أهل حضرموت، فجمع زياد الناس، وقام فيهم خطيباً: أخبرهم بموت النبي - عليه السلام - ودعاهم إلى بيعة أبي بكر، فأسرع الكثير منهم إلى البيعة، وتردد البعض وتأخر عن المبايعة وكان في مقدمة هؤلاء الأشعث بن قيس فقد اعتزل في جماعة من كندة.

والواقع أن الناس كانوا حديثي عهد بالدين الجديد ولم يعرفوا بعد نظام الحكم في الإسلام شأنهم شأن غيرهم من العرب الذين تأخر إسلامهم ولم يفوزوا بشرف الاتصال المباشر بالنبي - عليه السلام -، والاستماع إلى أحاديثه وتعاليمه، ففاجأهم موت النبي - عليه السلام - قبل أن تتهيأ أذهانهم لمعرفة الوضع السياسي الذي ينبغي أن يخضع له المسلمون، فحصل اضطراب في كافة أنحاء الجزيرة.

تأخر فريق من العرب عن البيعة لأبي بكر وامتنع فريق عن دفع الزكاة وتطلع بعض من لم يخلص للإسلام إلى الفتنة لهوى في نفوسهم، وكان رأي بعض زعماء كندة أنه إذا خضعت حضرموت لحكم النبي حال حياته فلا مانع من أن تستقل عن سلطة من يتولى الحكم بعده، ومن هؤلاء حارثة بن سراقة الكندي الذي عَبَّر عن هذا المعنى بقوله:

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا ... فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر
أيورثها بكراً إذا كان بعده ... فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ولكن الخليفة أبا بكر استعمل الشدة والحزم في هذه الفتنة، فأسرع إلى قتال المرتدين والمتخلفين عن البيعة والمانعين للزكاة فكان النصر حليفه، ولم تمض السنة التي لحق بها الرسول بربه حتى عادت الجزيرة العربية إلى وحدتها أشد إيماناً بدينها وأقوى تمسكاً به.

❖ شرارة الفتنة:

إن دفع الزكاة لعامل الخليفة هو المظهر الأول للاعتراف بالخليفة والطاعة له، لذلك تولّى زياد جمع صدقات بني عمرو بن معاوية بنفسه

ليتأكد من صحة الأخبار التي بلغته عنهم، فقدم عليهم ذات يوم وهم بموضع لهم يسمى الرياض، فبدأ بغلام منهم يقال له شيطان بن حجر فأخذ فيما أخذ منه ناقة أعجبته ووَسمها بميسم الصدقة، وكانت هذه الناقة - واسمها «شذرة» - لأخي شيطان العداء بن حجر، وليست عليه صدقة، وقد ظن أخوه حين سلمها لزياد أنها من إبله، فقال العداء مخاطباً لزياد:

العداء: هذه ناقتي شذرة.

شيطان: صدق أخي فأني لم أعطكموها إلا وأنا أراها غيرها، فأطلق شذرة وخذ غيرها.

زياد: - متهماً لهما - لا. ولا تنعم ولا هي لك، لا سبيل إلى ردها، لقد وقع عليها ميسم الصدقة، وصارت في حق الله.

العداء: - منادياً قومه - يا آل عمرو بالرياض أضام وأضطهد؟ إن الذليل من أكل في داره. ونادى: يا أبا السميط عقلت ابنة المهرة، فأقبل أبو السميط حارثة بن سراقة فقصد لزياد وهو واقف:

حارثة: أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيرا مًكانها؛ فإنما بعير مكان بعير.

زياد: ما إلى ذلك من سبيل، لقد عقلتها ووسمتها بميسم الصدقة.

حارثة: أطلقها أيها الرجل طائعاً قبل أن تتركها وأنت كاره.

زياد: لا والله لا أطلقها.

حارثة: ذاك إذا كنت يهودياً. وقام إلى الناقة فحلَّ عقالها، وضرب على جنبها فبعثها وقام دونها وهو يقول:

يمنعها شيخ بخدَّيه الشيْب ملمع كما يلمع الثوْب

ونهض زياد غاضباً فصاح في أصحابه فاجتمع إليه شباب من حضرموت والسكون فأمرهم بالقبض على حارثة، فكتفوه وكتفوا شيطان والعداء وارتهنوهم، وأخذوا الناقة فعقلوها كما كانت، وكان زياد قد

اتهمهم[١] بالكفر ومباعدة الإسلام.

❖ تطور الموقف:

وهكذا تطور الموقف وتوترت العلاقات ولم يكن بد من الالتجاء إلى السلاح، فقد غضبت بنو معاوية لحارثة، ونادوا بحمل السلاح وأظهروا أمرهم، وانضمت إلى زياد حضرموت والسكون. واجتمع عسكران عظيمان من هؤلاء وأولئك، فأرسل زياد إلى بني معاوية يقول لهم:

زياد: إما أن تضعوا السلاح وإما أن تؤذنوا بحرب.

بنو معاوية: لا نضع السلاح أبداً حتى ترسلوا إلينا أصحابنا.

زياد: لا يرسلون أبداً حتى تتفرقوا وأنتم صاغرون.

السكون - لزياد -: إنه لا يحسم الخلاف إلا السيف، ولن يخضع بنو معاوية إلا للقوة، فاهجم عليهم وأعمل السيف في رقابهم.

ورأى زياد أن لا بد من تحكيم السيف فهجم عليهم ليلاً وقتل منهم عدداً وتفرق الباقون هاربين وخلى عن النفر الثلاثة فعادوا إلى أصحابهم مصممين على حرب زياد، وقالوا لهم: لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين، ونادوا بمنع الصدقة[٢].

وقيل لزياد: إن أقواماً من السكاسك قد انضموا إليهم وقد تسرع إليهم قوم من السكون وشذاذ حضرموت ويخشى أن يفض الناس إليهم من حولك، فالرأي أن تبادئهم بالهجوم وهم في منازلهم، فجمع زياد جيشاً كبيراً وهجم عليهم في محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا فَأكبوا على بني عمرو بن معاوية وهم عدد القوم وشوكتهم من خمسة أوجه في خمس فرق، فقتلوا ملوكهم مشرحاً ومخوصا وَجمداً وأبضعة وأختهم العَمرَّدة،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج٢ .
(٢) الطبري ج ٢ .

وأكثروا القتل، وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بالسبي والأموال، وأخذوا طريقاً يفضي بهم إلى عسكر الأشعث وبني الحارث بن معاوية.

❖ الأشعث في الميدان:

لما مر سبي بني عمرو بن معاوية بعسكر الأشعث استغاث النساء ببني الحارث بن معاوية وصرخن:

يا أشعث. يا أشعث. خالاتك. خالاتك.

وصاح الصبيان أيضاً، فحمي الأشعث أنفاً وثار في بني الحارث وخرج في جماعة منهم فعرض لزياد ومن معه ونشبت معركة أصيب فيها عدد من أصحاب زياد وانهزم بقيتهم، وخلص الأشعث نساء بني عمرو وأطفالهم.

وأدرك الأشعث أن زياداً لن يتركه بعد هذه الحادثة فجمع إليه بني الحارث وبني عمرو ومن أطاعه من السكاسك ومن حوله من القبائل واجتمعت إليه عظماء كندة مجمعين على منع الزكاة ومحاربة زياد وعدم الخضوع له.

وعظم على زياد عصيانُ كندة وتألُّبهم فكتب إلى أبي بكر يستمده، فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية - وكان والياً على صنعاء - يأمره بإنجاد زياد وأن يسير مع عكرمة بن أبي جهل لقتال كندة، وكان هذا قد قدم أبين من ناحية عمان ومعه جيش كبير من مهرة والأزد وناجية وعبدالقيس.

والتقى المهاجر بعكرمة في مأرب، ثم تعجل المهاجر في سرعان الناس، واستخلف على الجيش عكرمة، وسار من مأرب ماراً برملة صيهد حتى قدم على زياد.

❖ المعركة الفاصلة:

كانت كندة قد تجمعت بمحجر الزرقان تحت قيادة الأشعث معلنة

العصيان مصممة على الدفاع متفقة على الخروج على سلطة الخليفة، وطابقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة[١] إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فإنهما قاما في بني معاوية فقالا: والله إن هذا لقبيحٌ بأقوام أحرار التنقل، إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح، اللهم إنا لا نمالئ قومنا على هذا، وخرج شرحبيل وابنه حتى أتيا زياداً فانضما إليه[٢].

ولم يكن بُدّ من إخضاعهم للسلطة السياسية العليا في المدينة لتتم الوحدة التي أرادها الله لدينه وللمسلمين؛ لذلك أمر الخليفة بقتالهم، فقصد إليه زياد ومعه المهاجر قائد الجيش الذي أرسله الصديق من اليمن فالتقى الفريقان في محجر الزرقان في معركة طاحنة انهزمت على أثرها كندة، والتجأت إلى حصن لهم منيع فسيح يُدعى «النجير» على بعد ثلاثة أميال شرقي مدينة تريم، وكانوا قد أصلحوا من بنائه وحصنوه وقد تجمعت فيه كندة، ومن انضم إليهم من السكاسك وحضرموت والسكون.

كانت للنجير ثلاث طرق تؤدي كلها إليه، عسكر زياد على أحدها، وعسكر المهاجر على الآخر، وبقي الثالث لكندة يذهبون منه وتأتي منه إليهم المواد، فلما قدم عكرمة نزل بهذا الطريق وأحكم عليهم الحصار وفرّق الخيل في منازل كندة وأمر بمشاغبتهم ومناوشتهم، وبعث المهاجر إلى الساحل خالداً المخزومي وربيعة الحضرمي فقاتلوا المتخلفين عن البيعة المانعين للزكاة وأخضعوهم، وبعث يزيد بن قنان من بني مالك بن سعد إلى قرى بني هند في شرق وادي حضرموت إلى برهوت فأكثر فيهم القتل.

وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم فقالوا: الموت خير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ .
(٢) كان ذلك قبل تجمع بني معاوية في محجر الزرقان.

لكم مما أنتم فيه، جُزُّوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة، ثم جزّوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفرّ بعضهم عن بعض، وجعل راجزهم يرتجز في جوف الليل فوق حصنهم ويقول:

صباح سوء لبني قَتيره ولـلأمير من بني المغيره

فلما أصبحوا خرجوا على الناس فاقتتلوا حول الحصن حتى كثرت القتلى في كل طريق من الطرق الثلاثة، وعادوا إلى حصنهم وقد كثرت فيه القتلى.

وأيقنت كندة أن جيوش الخليفة لن تنصرف عنهم وأن المدد لا ينقطع لهم، ورأى الأشعث أن لا مناص من التسليم فخرج من الحصن إلى عكرمة بأمان - وكان لا يأمن غيره - فأبلغه عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه وعلى تسعة نفر من أقاربه وبني عمه على أن يفتح لهم باب الحصن فأجابه إلى ذلك وقال: انطلق فاستوثق لنفسك ثم هلمّ كتابك أختمه، فكتب وثيقة الأمان للعشرة النفر، وفيهم أخو الأشعث وبنو عمه وأهلوهم، ولما أراد الأشعث أن يكتب نفسه وثب عليه معدان بن الأسود بشفرة وأخذ بحقوه وقال: اجعلني من العشرة أو أقتلك، فكتبه وترك نفسه، وقد عَدَّ أصحاب الأشعث تسليمه للحصن بهذا الشرط غدراً منه وخيانة.

فتح الأشعث باب الحصن فاقتحمه الجيش ولم يدعوا فيه مقاتلاً إلا قتلوه ضربوا أعناقهم صبراً، ثم وضعوا الحرس على ما في الحصن من عائلات وأموال، وقد بلغ عدد النساء ألف امرأة، ودعا الأشعث بأولئك النفر ودعا بكتابه فقرأه المهاجر، فإذا الأشعث ليس فيه فقال: الحمد لله الذي أمكن منك يا أشعث لقد كنت أشتهي أن يجزيك الله، وشدّه وثاقاً وهمّ بقتله، فقال له عكرمة: أَخّره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا، فقال المهاجر: إن أمره لبيّن، ولكني أتبع المشورة وأوثرها، وأخّره

وبعث به إلى أبي بكر مع السبي.

وكان عدد القتلى في هذه المعارك كثيراً، ويقدَّر عدد الأسرى بنحو ستة آلاف، وقد جرح من الصحابة رجال عادوا إلى تريم ليتداووا بها ويضمدوا جراحهم، فمات منهم جماعة ودفنوا فيما يعرف اليوم بمقبرة زنبل.

❖ الأشعث أمام الخليفة:

انتهت الاضطرابات في حضرموت بعد هذه الحادثة وعاد إلى البلاد هدوءها واطمئنانها، وتجهز الجيش عائداً إلى المدينة ومعه السبايا والأسرى ومن بينهم الأشعث، فدعا به أبو بكر وجرى بينهما الحديث التالي:

- ما تراني صانعاً بك يا أشعث؟
- إني لا أعلم برأيك.
- إني أرى قتلك.
- لقد فاوضت القوم في عشرة فما يحل دمي.
- أفوّضوا إليك؟
- نعم.
- ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك؟
- نعم.
- فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من في الصحيفة، وإنما كنت قبل ذلك مفاوضاً - أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وتردّ علي زوجتي، فوالله ما كفرت بعد إسلامي، ولكني شححت على مالي، فأطلقني واستبقني لحربك تجدني خير أهل بلادي لدين الله.
- انطلق، فيبلغني عنك خير.

وقبل الخليفة رجاء الأشعث وتجافى له عن دمه وردّ عليه زوجته،

وأراد الأشعث أن يولم وليمة بهذه المناسبة، فاخترط سيفه ودخل سوق الإبل فجعل لا يرى جملاً ولا ناقة إلا عرقبه.

فصاح الناس: كفر الأشعث، فلما فرغ طرح سيفه وقال: إني والله ما كفرتُ، ولكن زوّجني هذا الرجل أخته، ولو كنا في بلادنا لكانت وليمة غير هذه، يا أهل المدينة كلوا، ويا أصحاب الإبل تعالوا خذوا أثمانها، وقد عاشت معه أم فروة طويلاً وولدت له محمداً وإسحق وأم قريبة وحبانة[1].

❖ نشاطه الحربي والسياسي:

لما تحركت جيوش المسلمين إلى الشام لقتال الروم وكان الأشعث من بين أوائل المتجهزين لهذا الغزو، وقد شهد هناك وقعة اليرموك الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون في أواخر خلافة أبي بكر وبداية عهد عمر بن الخطاب، كما شهد وقعة القادسية بالعراق سنة خمس عشرة هجرية على رأس جماعة من قومه وقد أبلى في معارك العراق والشام بلاء حسناً، وكان له خطر كبير في هذه المعارك.

وكان الأشعث من بين أعضاء الوفد الذي أرسله سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في العراق إلى كبير فارس بالمدائن «يزدجرد» يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وقد اختار سعد أعضاء هذا الوفد من أبرز ذوي الكفاءات والمؤهّلات الممتازة في جيشه، فلما دخلوا على «يزدجرد» وهو بين وزرائه وأهل مشورته قالوا له: اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسلم فتنجِّي نفسك، فغضب «يزدجرد» وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

وقد أثارت شجاعة الأشعث وبلاؤه في المعارك الحربية إعجاب القائد

---

(١) معجم البلدان.

العبقري الكبير خالد بن الوليد رضي الله عنه فأجازه مرة بعشرة آلاف عندما كان بقنسرين من أرض الشام، وكانت هذه الجائزة الكبيرة من بين الأشياء التي أغضبت الخليفة عمر بن الخطاب على خالد وكانت سبباً في عزله.

فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما وكان بالشام أن يستدعي خالداً وأن يعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم أأجاز الأشعث من ماله أو من مال المسلمين؟

فإن زعم أنها من ماله فقد أسرف وإن زعم أنها من مال المسلمين فقد أقر بخيانته، وأمره أن يعزله ويتولّى عمله.

ولما قدم رسول الخليفة بهذا الكتاب كتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ولم يذكر له عن كتاب الخليفة شيئاً، بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر، ثم قام الرسول الذي أوفده الخليفة يسأل خالداً:

رسول الخليفة: أمِن مالك أجزت الأشعث بعشرة آلاف أم من مال المسلمين؟

خالد: [ساكت، قد عقدت الدهشة لسانه].

رسول الخليفة: أجِبْ، أكانت العشرة الآلاف من مالك أم من مال الأمة؟

خالد: [صامت لا ينبس ببنت شفه].

رسول الخليفة: يلح في السؤال.

بلال - بأمر من عبيدة -: إن أمير المؤمنين أمر أن تعقل بعمامتك، وأن تنزع عنك قلنسوتك حتى تجيب عما تسأل الآن عنه.

خالد: [غارق في دهشته لا يخرج عن صمته].

بلال - يتناول قلنسوة خالد ويلم يديه وراء ظهره ويعقله بعمامته، ويقول -: ما تقول، أمن مالك أم من مال المسلمين؟

خالد - في هدوء ورزانة -: بل من مالي.

بلال - وقد أعاد قلنسوة خالد وعممه بيده -: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا.

وقد كان الأشعث يسكن الكوفة أثناء الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس. ولما توفي الخليفة عمر بن الخطاب ولاه الخليفة الثالث عثمان حكم أذربيجان فكان الأشعث عاملاً عليها(١) إلى أن أدركت عثمان الوفاة فكتب إليه علي بن أبي طالب أن يأخذ له البيعة من أهل أذربيجان ويَحْضُرَ إليه، وهذا بعض ما جاء في الكتاب:

«من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الأشعث بن قيس. أما بعد: لقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك، وكان طلحة والزبير أول من بايعني ثم نقضا بيعتي على غير حدث، وأخرجا أم المؤمنين إلى البصرة فصرت إليهما في المهاجرين والأنصار فالتقينا فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجنا منه فأبيا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البقاء. وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله وأنت من خُزَّانِي عليه حتى تسلِّمه إليَّ إن شاء الله وعَليَّ ألّا أكون شَرَّ وُلاتك والسلام».

ولما تناول الأشعث خطاب علي قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس إن عثمان - رحمه الله - ولاني أذربيجان وهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس علياً وطاعته لنا لازمة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك.

وقد فكر الأشعث في أن يلحق بمعاوية، فدعا إلى منزله أهل ثقته من أصحابه(٢) وقال لهم: إن كتاب علي جاءني، وقد أوحشني وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية. فقال القوم: الموت خير لك من ذلك،

---

(١) الكامل لابن الأثير.

(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟

فعدل عن الذهاب إلى معاوية وقدم على الإمام - رضي الله عنه - وشهد معه حروبه مع معاوية في صفين.

وكتب التاريخ المعتمدة تروي القصة التالية فتقول: لما نزل معاوية بصفين سبق أصحاب علي إلى الماء وحال بينهم وبين أن يستقوا من الفرات، فحزن عليٌّ لما فيه الناس من العطش، وقال للأشعث: اذهب إلى معاوية فقل له: إن الذي جئنا به غير الماء ولو سبقناك إليه لم نَحُلْ بينك وبينه، فإن شئت خلَّيتَ عن الماء وإن شئت تناجزنا عليه، فانطلق الأشعث إلى معاوية فقال له: إنك تمنعنا الماء وايم الله لنشربنه فمرهم يكفوا عنه قبل أن تغلب عليه، والله لا نموت عطشا وًسيوفنا على رقابنا، ولما امتنع معاوية قال له عمرو بن العاص: لقد شجعت الجبان وحملت من لا يريد قتالك على قتالك.

وعاد الأشعث يقول للإمام علي: أيمنعنا القوم وأنت فينا ومعنا السيوف؟ خلّ عنا وعن القوم، فوالله لا أرجع إليك حتى أرده أو أموت دونه، فقال علي: لك ذلك، وانصرف الأشعث فنادى في الناس: من كان يريد الماء فميعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء، فانضم إليه جماعة عند الصباح هجم بهم على أصحاب معاوية فزحزحهم عن الماء واستولى عليه.

وقد أدرك معاوية أهمية الأشعث في النزاع بينه وبين علي فأرسل إليه أخاه عتبة بن أبي سفيان يوم صفين وقال له: ألِنْ إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى بالأشعث فأتاه فقال له:

«أيها الرجل، إن معاوية لو كان لاقياً أحدا غًيرك وغير علي لقيك، إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصّهر والعمل، ولست كأصحابك الأشتر وعدي وسعيد بن قيس

وغيرهم، لقد حاميت عن أهل العراق تكرماً وحاربت أهل الشام حمية، وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ولا إلى نصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا».

فأجابه الأشعث: «يا عتبة، أما قولك إن معاوية لا يلقى إلا علياً فلو لقيني ما زاد ولا عظم في عيني ولا صغرت عنه وإن أحب أن أجمع بينه وبين علي لأفعلن، وأما قولك إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن فالرأس الأمير والسيد المطاع وهاتان لعلي، وأما ما سلف إلي من عثمان فوالله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله غنى، وأما عيبك أصحابي فإن هذا الأمر لا يقربك مني، وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيننا حميناه، وأما البقية فلسنا بأحوج إليها منكم» يعني ذلك الصلح.

وكان الأشعث من بين الذين أشاروا على الإمام علي بقبول التحكيم حين رفع أهل الشام المصاحف ودعوا إلى تحكيم كتاب الله، فقد قال له: يا أمير المؤمنين أرى الناس قد رضوا بما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد؟ قال ائته، فأتاه فقال لمعاوية: لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه. فقال الأشعث: هذا هو الحق، وعاد إلى علي فأخبره وقال له: لقد أنصفك القوم فأجبهم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، والله لئن لم تقبل هذا لا نرمي معك بسهم ولا حجر ولا نقف معك موقفاً، ثم كان من أمر التحكيم بعد ذلك ما هو معروف في كتب التاريخ.

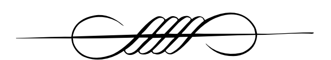
ولم تطل بالأشعث حياة بعد ذلك فقد أدركته الوفاة وهو بالكوفة بعد قتل الإمام علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن علي، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

❖ **أحفاد الأشعث:**

روى ابن قتيبة قال[1]: «لما قدم الحجاج العراق أميراً زوج ابنه محمداً ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس رغبة في شرفها مع ما كان لها من جمال وفضل في جميع حالاتها وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه، وكان لها أخ يقال له عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث له أبهة في نفسه وكان جميلاً بهياً منطقياً مع ما كان له من التقدم والشرف فازدهاه ذلك وملأه كبراً وفخراً وتطاولاً، فألزمه بنفسه وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصته وأهل سره وأجرى عليه العطايا الواسعة صلة بصهره وحباً لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله».

«فأقام عبدالرحمن كذلك حيناً مع الحجاج لا يزيده الحجاج إلا إكراماً ولا يظهر له إلا قبولاً، وفي نفس الحجاج من عجبه ما فيها لتشمخه زاهياً بأنفه... حتى إذا عيل صبر الحجاج أراد أن يبتلي حقيقة ما يتفرس فيه وأن يبدي منه ما يكتم من غائلته، فكتب إليه عهده على سجستان فلما بلغ ذلك أهل بيت عبدالرحمن فزعوا من ذلك فزعاً شديداً فأتوا الحجاج فقالوا: أصلح الله الأمير إنا أعلم به منك ولقد أدبته بكل أدب فأبى أن ينتهي عجبه بنفسه ونحن نتخوف أن يفتق فتقاً أو يحدث حدثاً يصيبنا فيه منك ما يسوءنا، فقال الحجاج: القول كما قلتم والرأي كالذي رأيتم، ولقد استعملته على بصيرة فإن يستقم فلنفسه نظر، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يُهدَ إن شاء الله....».

فلما توجه عبدالرحمن إلى عمله توجه وهو مصر على خلع طاعة الحجاج ولم يلبث أن أقدم على خلع الطاعة الأمر الذي أدى إلى حروبه مع الحجاج المعروفة في كتب التاريخ والتي لا نريد أن نطيل بذكرها هنا فالتعرض لذلك خروج عما نحن بصدده.



(١) الإمامة والسياسة.

«٣»

عبدالله بن يحيى الكندي

نذر الثورة - الخروج على بني أمية - الزحف إلى صنعاء - إلى أم القرى - معركة قديد - نجدة دمشق - طالب الحق في المعركة - الجيش الأموي في شبام - رثاء طالب الحق

❖ نذر الثورة:

إذا طوينا القرون القهقرى فأتينا إلى دمشق عاصمة الخلفاء من بني أمية حيث بويع لآخر خليفة أموي هو مروان بن محمد الجعدي سنة **١٢٧هـ** وجدنا الفتن والاضطرابات قد أقلقت مركز الخلافة فقد ماج العالم الإسلامي بالثورة وانتشرت الفوضى في ممالك الدولة وضرب الفساد والظلم أطنابه.

وإذا انتقلنا من عاصمة الأمويين إلى حضرموت وجدنا شاباً حادّ الذكاء بعيد النظر فصيحاً بليغاً شجاعاً كريماً على جانب عظيم من الورع والصلاح والتقوى، ذلك هو عبدالله بن يحيى الكندي أحد بني عمرو بن معاوية، وقد حدّث عن نفسه فقال:

«لقيني رجل فأطال النظر إلي فقال: ممن أنت؟ قلت: من كندة، قال: من أيهم؟ قلت: من بني شيطان، قال: والله لتملكن ولتبلغن خيلك وادي القرى وذلك بعد أن تذهب إحدى عينيك، فذهبت أتخوف ما قال وأستجير الله فرأيت باليمن جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة، فقال

لأصحابه: ما يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه.

❖ الخروج على بني أمية:

وكتب عبدالله بن يحيى إلى جماعة من زعماء الإباضية بالبصرة شركائه في المذهب والعقيدة يشاورهم في الخروج على الخليفة الأموي فكتبوا إليه:

إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة من عباده يبعثهم إن شاء لنصرة دينه ويختص بالشهادة منهم من يشاء.

وإجابة لطلب عبدالله بن يحيى قدم إليه من البصرة جماعة من الإباضية على رأسهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلج بن عقبة السقوري فحثوه على الخروج.

وقد تم لعبدالله بن يحيى الانقلاب الذي أراده في حضرموت دون أن يريق في سبيله دماً، فقد بويع بالخلافة سنة **١٢٩**هـ وأمر بحبس إبراهيم بن جبلة عامل بني أمية في حضرموت، وكان يقيم بدمون ثم أطلقه حيث لحق بصنعاء، وبذلك فصل حضرموت عن دمشق عاصمة الخلافة واستأثر فيها بالسلطة وانصرف إلى إصلاح شؤون البلاد، فنشر الأمن وحقق العدل وبنى المساجد وأطعم الفقراء فأحبه الناس والتفوا حوله وهابته القبائل وأكبروا همته وطموحه وسموه طالب الحق.

❖ الزحف إلى صنعاء:

لم تكن ثورة «طالب الحق» تهدف إلى تخليص حضرموت من حكم الأمويين فحسب بل كان يطمح إلى أبعد من ذلك، فقد أعد العدة لغزو اليمن والحجاز والقضاء على سلطان بني أمية فيهما ونشر الأمن والعدل في ربوعهما ومن يدري؟ فربما كان يفكر في غزو الشام ومحاربة الخليفة الأموي في عقر داره.

ففي ذلك العام الذي أعلن الكندي فيه ثورته أي عام ١٢٩هـ توجه بألفي مقاتل من أبطال الحضارم ومن أنصاره إباضية البصرة إلى صنعاء عاصمة اليمن وأناب عنه في حضرموت عبدالله بن سعيد الحضرمي ولم يكد خبر هذا الزحف يصل إلى القاسم بن محمد عامل مروان على صنعاء حتى تأهب للقاء الثائر الكندي وخرج من صنعاء في عدة آلاف بعدما استخلف عليها الضحاك بن زمل.

والتقى الجيشان في الطريق إلى صنعاء في موضع يقال له «بلج» وكان الليل قد أظلم فلم ينتظروا بالقتال إلى الصباح، واصطدم الجيشان في معركة دامية استمات فيها جيش الكندي وأبلى بلاء حسناً حتى تم له النصر، وأسفرت المعركة عن هزيمة شنيعة بعامل صنعاء، وتفرق جيشه الكثيف تاركاً وراءه كثيراً من القتلى.

واستطاع عامل صنعاء أن يجمع فلول جيشه وينظم شتاتهم ويعسكر بهم قريباً من صنعاء، فلحقهم الكندي وهجم عليهم أعنف هجوم لم يستطيعوا الثبات معه فانهزموا شر هزيمة ولم يتمكنوا من الدفاع عن صنعاء، فدخلها طالب الحق ظافراً منتصراً واستولى عليها وجمع ما فيها من الخزائن والأموال، وأسر عاملها الضحَّاك بن زمل كما أسر إبراهيم بن جبلة الكندي عامل دمون الذي طرد من حضرموت، ثم قصد المسجد وصعد المنبر يخطب في الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام:

«أيها الناس: إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالاً، لا نبتغي به بديلاً، ولا نشتري به ثمناً قليلاً، وحرَّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ندعوكم إلى فرائض بينات، وآيات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو

إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد والوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله.

أيها الناس: إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم في جنب الله، يقتلون على الحق شهداء فما نسيهم ربهم وما كان ربك نسياً، أوصيكم بتقوى الله، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به، فأبلوا الله بلاء حسناً في أمره وذكره، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم».

وقد أقام «طالب الحق» في صنعاء بعد ذلك أشهراً أزال في خلالها المظالم ونشر العدل وأحسن السيرة، وقصده الشعراء ومدحوه، وأتته سادات القبائل من كل أرجاء اليمن.

❖ إلى أم القرى:

في أواخر ذي القعدة من سنة **١٢٩**هـ اختار طالب الحق جماعة من أبطال جيشه وجهزهم إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار، فتحرك هذا الجيش من صنعاء قاصداً الحجاز، فقدمها والناس متهيئون للحج، فعسكر أبو حمزة بجيشه خارج مكة، وجرى بينه وبين أمير مكة عبدالواحد بن سليمان مفاوضات انتهت بموافقة أبي حمزة على أن لا يحدث حدثاً حتى يقضي الحاج عمله خشية إزعاج حجاج بيت الله، وبعد أن انقضت أعمال الحج خرج عامل مكة منها متجهاً إلى المدينة لأنه رأى أن لا فائدة في الدفاع، فسلمها إلى أبي حمزة بدون قتال.

بعد أن قدم عبدالواحد بن سليمان إلى المدينة كتب إلى مروان يخبره بما حدث، ويعتذر لخروجه من مكة، فكتب مروان إلى عامله بالمدينة يأمره بالمسير لقتال جيش الثائر الكندي، فخرج في ثمانية آلاف رجل قاصداً مكة، وخرج أبو حمزة المختار في أبطال كندة وتميم وغيرهم بعد أن استخلف على مكة إبراهيم بن الصباح.

❖ معركة قديد:

والتقى الجيشان في طريق المدينة بموضع يقال له «قديد»، وكان عدد الجيش الأموي يفوق جيش أبي حمزة أضعافاً مضاعفة، وأمر أبو حمزة جيشه أن لا يقاتلوا حتى يبدأهم الجيش الأموي بالقتال حقناً لدماء المسلمين، فلم يحدثوا حدثاً حتى رمى أحد الجنود الأمويين أبا حمزة المختار بسهم فأخطأه وأصاب رجلاً آخر، فقال أبو حمزة: شأنكم الآن فقد حل قتالهم.

واشتبك الجيشان في معركة شديدة حامية الوطيس انكشفت عن انهزام الجيش الأموي وقتل ألفين ومائتين وثلاثين منهم وتفرق الباقون تاركين المدينة المنورة أمام جيش أبي حمزة فدخلها على رأس جيشه بعد أن تم له النصر، ثم قصد المسجد وقام في الناس خطيباً وكان من جملة ما قال:

«إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا غدراً، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعُنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله، ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، أقبلنا من قبائل شتى كل جماعة منا على بعير واحد عليه زادهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخواناً، ثم لقينا رجالكم بـ«قديد» فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين».

❖ نجدة دمشق:

اتصل بمروان نبأ احتلال المدينة فجهز أربعة آلاف فارس من أهل الشام استعمل عليهم عبدالملك بن عطية السعدي وأمره بالجد في السير

وأعطى كل رجل من أصحابه مائة دينار وفرساً عربياً وبغلاً لثقله ومتاعه، فلما كانوا بموضع يقال له «المعلى» بعث أبو حمزة جيشاً لقتالهم مؤلفاً من ستمائة رجل تحت قيادة بلج بن عقبة، فالتقى الجيشان بوادي القرى لأيام خلت من جمادى الأولى سنة مائة وثلاثين للهجرة.

دعاهم بلج إلى الكتاب والسنة وذكر بني أمية وظلمهم فأسمعوه ما يكره، فحمل عليهم بلج وأصحابه فانهزمت طائفة من أهل الشام وثبت ابن عطية وقال: ناضلوا عن دينكم وأميركم فكروا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل بلج وأكثر أصحابه وانحازت بقية منهم نحو المائة إلى جبل اعتصموا به فقاتلهم ابن عطية ثلاثة أيام، فقتل منهم سبعون رجلاً ونجا ثلاثون، فرجعوا إلى أبي حمزة.

عند ذلك خرج أبو حمزة من المدينة قاصداً مكة وولى عليها رجلاً يقال له المفضل، فثار عليه عمر بن عبدالرحمن من أحفاد زيد بن الخطاب في كثير من البربر والزنج والعبيد، فقتل المفضل وقتل معه عامة أصحابه، ودخل ابن عطية المدينة دون أن يلقى قتالاً.

أقام ابن عطية بالمدينة شهراً وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم توجه إليه ابن عطية، وفرق أصحابه فرقتين: نزلت إحداهما بالأبطح ونزل هو في الفرقة الأخرى محاذياً لأبي حمزة، وكان أبو حمزة قد عسكر بأسفل مكة وعسكر أبرهة بن الصباح بالأبطح في ثمانين فارساً، ونشب القتال بين أبرهة وأهل الشام فهزمهم وفروا هاربين إلى عقبة منى، ثم كروا مرة أخرى وقاتلوا قتالاً شديداً فقتل أبرهة، وتفرق جيش أبي حمزة، وتبعهم أهل الشام يقتلونهم حتى دخلوا المسجد.

والتقى أبو حمزة بابن عطية بأسفل مكة، وخرج أهل مكة مع ابن عطية ودارت معركة حامية قتل في نهايتها أبو حمزة على فم الشعب، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز وتقول:

أنا الجعيداء وبنت الأعلم من سأل عن اسمي فاسمي مريم
بعت سواريَّ بسيف مخذم

ودعا ابن عطية بالأسرى وكانوا أربعمائة، فقال لهم: ويلكم ما دعاكم إلى الخروج مع هذا؟

قالوا ضمن لنا الكَنّة، يريدون الجنة وهي لغتهم، فقتلهم وصلب أبا حمزة وبعث برأسه إلى مروان، كما صلب أبرهة بن الصباح ورجلين من أصحابهم على فم الشعب، ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس وحج مهلهل الهجيمي في خلافة السفاح العباسي فأنزل أبا حمزة ليلاً فدفنه.

❖ طالب الحق في المعركة:

لحقت فلول جيش أبي حمزة بعبدالله بن يحيى الكندي وكان لا يزال مقيماً في صنعاء، فخرج قاصداً الحجاز لقتال ابن عطية في جماعة من أصحابه ومن اليمانيين، وبلغ ابن عطية خبره فشخص إليه والتقى به أثناء الطريق فنشب القتال بينهما وكثر القتل وتشاغل أهل الشام بالنهب، فركب طالب الحق فرسه وحمل عليهم حملة فرقتهم وقتل منهم مائة وقائداً من قوادهم يقال له يزيد القشيري، ثم التقوا في غد عند موضع كثير الشجر والكرم فطال القتال واستمر القتل، فترجل عبدالله بن يحيى في ألف فارس فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً، وانهزم الباقون فتفرقوا في كل وجه ولحق من نجا منهم بصنعاء، وبعث ابن عطية برأس عبدالله بن يحيى إلى مروان مع ابنه يزيد بن عبدالملك بن عطية.

❖ الجيش الأموي في شبام:

كتب مروان إلى ابن عطية يأمره بتعقب أصحاب عبدالله بن يحيى في اليمن وحضرموت والقضاء عليهم، فتوجه إلى اليمن في جيش كثيف، فلما

قرب من صنعاء خرج منها عامل عبدالله بن يحيى فدخلها وأقام فيها أشهراً تتبع أثناءها بقية الثوّار وقاتلهم حتى أخضعهم، وخرج عليه يحيى بن عبدالله السباق في جمع كثير فهزمه وقتل عامة أصحابه، وخرج يحيى بن كرب الحميري بساحل البحر وانضم إليه نحو مائة رجل من الإباضية فقاتلهم ثم هربوا إلى حضرموت، وحرضوا عبدالله بن سعيد الحضرمي عامل طالب الحق في شبام على قتال ابن عطية، والتف حوله خلق كثير من كندة ونهد وتميم وهَمْدان واحتشدت الجموع في شبام.

وبلغ ابن عطية الخبر فاستخلف على صنعاء ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد وتوجه بجيشه إلى حضرموت فلقيهم بالكسر، ودارت بينهم رحى الحرب هناك، ولما كان الليل أرسل ابن عطية فرقة من جيشه إلى شبام فوصلوها عند الفجر، فتسوروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها، وعاود عبدالله بن سعيد القتال في النهار دون أن يشعر باحتلال شبام، ولكنه أدرك المكيدة عندما رأى جيوش ابن عطية تتسلل إلى شبام وحاول عبثاً استرداد شبام فلم يستطع.

ثم بدا لابن عطية أن يرسل جيوشه إلى مدن الوادي الأخرى ولكن صده عن ذلك كتاب مروان يأمره بالمسير إلى مكة للحج بالناس، فصالح أهل شبام على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم ويولي عليهم من يختارونه، فأجابوه إلى ذلك وتوجه عائداً، فلما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الإباضية فقتلوه ومن معه.

وتزيد بعض الروايات تفصيلاً فتقول: لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جمانة وسعيد ابنا الأخنس في جماعة من قومهما ورجل من نهد وثلاثة من مراد وخمسة من كندة فقصدوا حيث توجه ابن عطية، فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلاً فقتلوهم جميعاً، وأدرك سعيد وجمانة ابن عطية فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره، فقال له ابن

عطية: هل لك يا سعيد في أن تكون أكرم للعرب أسيراً، فقال: يا عدو الله أترى الله كان يمهلك أو تطمع في الحياة، وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلجاً وأبرهة، ثم قتله وبعث برأسه إلى شبام.

وبلغ الخبر ابن أخيه عبدالرحمن يزيد بن عطية وهو بصنعاء فأرسل شعيباً البارقي في جيش كثيف أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن وجاءوا حضرموت من طريق الكسر، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وخربوا دور هينن وقعوظة والمخينيق وحورة وكثيراً من دور شبام، ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا ممن قدروا عليه من الإباضية إلا قتلوه، ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلي الثمينة.

ولم يدم سلطان بني أمية في حضرموت بعد ذلك، فقد طويت صفحة دولتهم بقتل مروان حيث خلفتهم دولة بني العباس، وكان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس السفاح سنة **١٣٢**هـ «**٧٥٠**م» وكان هذا بداية الحكم العباسي في حضرموت.

❖ رثاء طالب الحق:

وفي رثاء عبدالله بن يحيى الكندي وأبي حمزة ومن قتل معهما من الإباضية قال عمرو بن الحصين العنبري هذه الأبيات التي تعتبر في طليعة الشعر العربي:

هَبَّتْ قُبَيل تبلّج الفجر ... هندٌ تقول ودمعها يجري
إذ أبصرت عيني وأدمعُها ... تنهّلُ واكفةً على النحر
أَقَذى بعينك لا يفارقها ... أم عائر أم مالها تذري
أو ذكر إخوان فجعت بهم ... سلكوا سبيلهم على قدر
فأجبتُها بل ذكر مصرعهم ... لا غيره عبراتها يمري
تالله ما في الدهر مثلهمُ ... حتى أكون رهينة القبر

أوفي بذمتهم إذا عقدوا … وأعفُّ عند العسر واليسر

متأهبون لكل صالحة … ناهون من لاقوا عن النكر

صُمت إذا حضروا مجالسهم … من غير ما عيّ بهم يزري

ألا تجيئهمُ فإنهمو … رجف القلوب بحضرة الذكر

لا ليلهم ليل فتلبسهم … فيه غواشي النوم بالسكر

كم من أخ لك قد فجعت به … قوام ليلته إلى الفجر

ظمآن وقدة كل هاجرة … تراك لذته على قدر

ومبرأ من كلّ سيئة … عفّ الهوى ذا مِرَّةٍ شزر

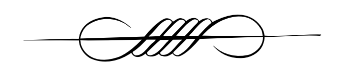
والمصطلي بالحرب يوقدها … بحسامه في فتية زهر

فتخالسوا مهجات أنفسهم … وعداتهم بقواضب بتر

وتوقدت نيران حربهم … ما بين أعلى البيت والحجر

وتصرعت عنهم فوارسهم … لم يغمضوا عيناً على وتر

والقصيدة كاملة في بعض نسخ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني فليرجع إليها من أراد.



«٤»

أحمد بن عيسى المهاجر

أسباب الهجرة - إلى الحجاز أولاً - المهاجر في حضرموت - المهاجر والإباضية - حضرموت في عهد المهاجر - وفاة المهاجر - أحفاد المهاجر

❖ أسباب الهجرة:

في سنة **٢٦٠**هـ ولد بمدينة البصرة من أعمال العراق أحمد بن عيسى بن محمد من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان أبوه عيسى وجده محمد بن علي العريضي قد قدما إليها من المدينة المنورة فسكناها وتوفيا بها.

نشأ أحمد بن عيسى بالبصرة في بيت عرف بالسيادة والعلم والتدين، وبها درس علوم الدين واللغة على آبائه وغيرهم من علماء البصرة، وعنهم أخذ التصوف العملي وتهذيب النفس، ولما تقدمت به السن أسندت إليه رئاسة الأسرة العريضية، نسبة إلى جدهم الأعلى محمد بن علي العريضي.

وكانت العراق في عهده تفيض بمختلف التيارات، اضطراب في الأمن، واختلال في شؤون الحكم، وهدر للعدالة والحق، وانهيار في جميع مرافق البلاد يهدد المملكة بالزوال، وكان ذلك في عصر المقتدر الخليفة العباسي(١).

وقد توالت على البصرة في ذلك العهد عدة غارات من طائفة الزنج

---

(١) من أضواء الماضي للكيالي.

والقرامطة وغيرهم، الأمر الذي أثار الذعر والخوف بين عدد كبير من المواطنين وجعلهم يفكرون في الجلاء عنها، فقد كان صاحب الزنج علي بن محمد يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصرة فيعدهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الآخرة، وادعى النبوَّة سنة **٢٥٥**هـ، واستولى على البصرة هو وأصحابه وأكثروا فيها الفساد، وسبوا نساء المسلمين، ولم يتمكن بنو العباس من قتله حتى سنة **٢٧٠**هـ حيث قتل وانتهى أمره.

وفي سنة **٣١١**هـ استولى أبو طاهر الجنابي على البصرة فوضع السيف في أهلها وأحرق المربد وفزع الناس إلى الماء، فطرحوا أنفسهم فيه ومات بالغرق أكثرهم، وأقام بالبصرة سبعة عشر يوماً حمل خلالها كل ما قدر عليه من الأمتعة والنساء والصبيان وولّى منصرفاً[(١)].

وقد مكنت هذه الغارات المتوالية كثيراً من الطامعين في السلب واللصوصية أن يعيثوا فسادا فًي المدن والقرى، وانتشر الرعب في النفوس حتى صدّق العامة في ذلك العهد خرافة حيوان أطلقوا عليه اسم الزبزب، زعموا أنهم يرونه في الليل على سطوحهم وأنه يأكل أطفالهم وربما قطع يد الإنسان إذا كان نائماً أو ثدي المرأة فيأكله، وكانوا يتحارسون طول الليل ولا ينامون وارتجّت بغداد لذلك حتى أخذ القائمون بالأمر حيواناً غريباً أبلق من كلاب الماء وقالوا لهم: إنه الزبزب، فصلب ولكن ذلك لم يغن شيئاً[(٢)].

ويروي ابن الجوزي في حوادث سنة **٣٠٦**هـ أن بني هاشم وثبوا على علي بن عيسى؛ لتأخر أرزاقهم فمدوا إليه أيديهم، فأمر المقتدر بالقبض عليهم وتأديبهم ونفاهم إلى البصرة وأسقط أرزاقهم، كما ذكر في حوادث سنة **٣١٣**هـ أن بني هاشم ضجوا في الطرقات لتأخر أرزاقهم عنهم، ويقول

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي.
(٢) تجارب الأمم لابن مسكويه، والمنتظم لابن الجوزي.

الشّلي صاحب المشرع بصدد هجرة المهاجر أحمد بن عيسى: إن العلويين لاقوا أنواع الأذى والامتهان وشدة الهوان والامتحان.

على ضوء هذه الحوادث يمكن أن تفهم الأسباب التي دفعت المهاجر إلى الهجرة من البصرة مرتحلاً بعائلته وأتباعه الذين ينيفون على السبعين في وقت تتعسر فيه الرحلات، إذ لا بواخر ولا سيارات غير قوافل الجمال التي تذرع القفار المترامية الأطراف بخطواتها المتئدة، مع ما تتعرض له الرحلات في ذلك العصر من متاعب وأخطار.

❖ إلى الحجاز أولاً:

كانت الحجاز الاتجاه الأول لهجرة السيد أحمد بن عيسى، فقد قدم إليها سنة **٣١٧**هـ ومعه من أبنائه عبيدالله، وحفيده بصري بن عبيدالله، وترك في البصرة منهم محمداً وعلياً وحسناً، ولكل منهم عقب بها.

أقام أولاً في المدينة المنورة متخوفاً ما يشاع عن وشك قدوم القرامطة إلى مكة المقدسة، ولذلك لم يقصدها ذلك العام لأداء الحج، وصحت الإشاعة، وهجم القرامطة فيه على الحرم المكي في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة **٣١٧**هـ فاستباحوا مكة وفعلوا الأفاعيل العظيمة، فقد قيل: إنهم قتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألفاً من الرجال وألوفاً من النساء، ثم نهبوا مكة، وانتزعوا الحجر الأسود من موضعه في الكعبة، ونقلوه إلى واحة القطيف على ساحل الخليج العربي ووضعوه في مسجد الضرار هناك لكي يصرفوا الناس إليه عن مكة والحج إليها.

ومضى على المهاجر في المدينة حول كامل وهو متكدر الخاطر ضيق الصدر من تلك الحوادث يفكر في اختيار البقعة التي يكون هو وذريته فيها بمنجاة من طغيان الفتن وانفجار براكينها، وفي سنة **٣١٨**هـ قصد هو وعائلته وأتباعه مكة المكرمة حتى إذا حجوا وأتموا مناسكهم رحل بهم نحو اليمن مع إحدى القوافل، وأخذ ينتقل في مدنه وقراه وأوديته حتى وصل

إلى حضرموت فوجدها على وفق مرامه من حيث الهدوء والبعد عن الأطماع وقوة التمسك بالدين، فارتاحت نفسه بالإقامة وآثر البقاء فيها.

❖ المهاجر في حضرموت:

قدم المهاجر أولاً إلى قرية الجبيل بوادي دوعن، وكان أهل هذه القرية من الشيعة الذين يخالفون مذهب الإباضية وعقيدتهم، ذلك المذهب الذي تعتنقه الأغلبية في حضرموت، ويقال بأن سكان الجبيل هم الذين اتصلوا بالمهاجر عندما كان بالمدينة المنورة وحسّنوا له الهجرة إلى حضرموت ودعوه إلى الإقامة بينهم[١].

وهذه الرواية تؤيد رأي القائلين بأن قدوم المهاجر إلى حضرموت لم يتم صدفة وبدون سابق تفكير، وإنما كان بعد دراسة تامة واطلاع على أحوالها ونتيجة اتصالات مباشرة أو غير مباشرة تمت بينه و بين جماعة من الحضارم الذين لا يرون رأي الإباضية، والإباضية هؤلاء فرقة من الخوارج لهم مذهبهم الخاص الذي يخالف في كثير من تفاصيله مذهب أهل السنة والشيعة، وقد ظهر هذا المذهب في حضرموت على عهد عبدالله بن يحيى الكندي الذي سبق الحديث عنه واستمر إلى أواخر القرن السابع الهجري.

وقد وجدت بجانب المذهب الإباضيّ الغالب في حضرموت عند قدوم المهاجر مذاهب أخرى لأهل السنة والشيعة وغيرهم، فقد ذكر بعض المؤرخين[٢] أن سكان قرية الجبيل الذي أقام بينهم المهاجر كانوا من الشيعة، ونقل غيره[٣] أن السيد المهاجر كان أول قدومه حضرموت إلى قرى أهل السنة بها من كندة والصَّدف، ويذكر الشيخ محمد بن عوض بافضل في كتابه «صلة الأهل» أن الفقيه أبا يحيى سالم بن فضل كان أحد

(١) تعليقات عبدالله بن محمد السقاف على رحلة باكثير.
(٢) تعليقات السقاف على رحلة باكثير.
(٣) عقود الألماس: لعلوي بن طاهر الحداد.

الذين حاربوا بدعة الإباضية والمعتزلة المنتشرة آنذاك في حضرموت.

لم تطل إقامة المهاجر في قرية الجبيل بوادي دوعن، فقد غادرها بعد مدة يسيرة إلى الهجرين، وكانت الهجرين هذه تتوسط قرى الصّدف من كندة، فإن قراهم تمتد من أواسط دوعن إلى عندل ولحروم وما يلي سدبة، فأقام بها سنوات اشترى له بها عقاراً ونخيلاً، ثم بدا له أن يرحل من الهجرين فتركها متجهاً إلى قارة بني جشير بعدما وهب أملاكه في الهجرين لمولاه شويه، وقارة بني جشير هي من قرى كندة من بني الأعلم وبني حارثة وهي قريبة من قرية بور فكان يقيم بها بين أهله وربما دخل تريم لبعض الشؤون وعاد إليها، وقد بقيت قارة بنى جشير معمورة إلى سنة ٦٠٤هـ حيث خرّبتها قبيلة خيثمة التي انتقلت إلى حضرموت من أعراض جبل السراة، على أنه لم تطب له الإقامة أيضاً في هذا الموضع فانتقل منه إلى الحسيّسة بالقرب من تريم أيضاً حيث استوطنها واشترى بها أطياناً واسعة تسمى «صوحاً» وهي الأرض التي بين الحسيّسة وبور.

وهكذا اضطر المهاجر لأن يغير مواضع إقامته من الجبيل إلى الهجرين فإلى قارة بني جشير فإلى الحسيّسة، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لخلافه مع الإباضية دخلا كًبيراً في هذه التنقلات.

❖ المهاجر والإباضية:

الذين تعرضوا لتاريخ المهاجر من مؤرخي حضرموت يكادون يجمعون على أن السيد المهاجر حارب الإباضية باللسان لا بالسنان، وقارعهم بالحجة والبرهان، ثم استمرت الحرب مستعرة بعد وفاته بين الإباضية من جهة وبين أبنائه وأحفادهم وأنصارهم من علماء الحضارم من جهة أخرى حتى تلاشى هذا المذهب من حضرموت واضمحل في القرن السابع الهجري.

على أن بعض مصادر التاريخ[١] تقول بأن الإباضيين تألّبوا على

---

(١) تعليقات السقاف على رحلة باكثير.

المهاجر لزحزحته عن الإقامة بحضرموت، وأن أهل السنة والشيعة بحضرموت واليمن اجتمعت كلمتهم على نصرته، وأن وقائع حربية نشبت بين الفريقين كان الإباضيون يتلقون الإمدادات فيها من إباضية عمان وغيرها، وأن المهاجر كان يتلقى العتاد والنقود وتأتيه الإمدادات تحملها القوافل براً والسفن بحراً من البصرة يرسلها إليه ابنه محمد الذي تركه هناك وكيلاً على أملاكه ونخيله وتجارته الواسعة، كما يقال بأن معركة فاصلة وقعت في موضع يقال له «بحران» عندما كان المهاجر مقيماً في الهجرين وانكسرت فيها شوكة الإباضية وانتقل المهاجر على إثرها من الهجرين إلى قارة بني جشير كما سبق.

وواضح من هذا أن المهاجر كان يجاهر بمذهبه وعقيدته ويدعو إليهما الأمر الذي أثار الإباضية وجعلهم يفكرون في الحيلولة بينه وبين انتشار مذهبه وعقيدته بكل وسيلة، والواقع أن تاريخ هذا العهد غامض كل الغموض فلا يستطيع الباحث الحريص على الحقيقة أن يتعرف إليها بين تلك المعلومات القليلة جداً والتي حفظت لنا من تاريخ ذلك العهد صورة غير واضحة المعالم.

وحكاية معركة بحران يرويها السيد عبدالرحمن بن عبيدالله في كتابه «البضائع» نقلاً عن مذكرات السيد أحمد بن حسن العطاس، ولكنه يبدي تشككه فيها في موضع آخر من الكتاب من عدة وجوه، وينقل عن شيخه عيدروس بن عمر بن عبدالله بن عمر بن يحيى أن العلويين كانوا متسترين بحمل السلاح على نهج الصحابة علماً وعملاً، ولم يتظاهروا بسلوك مذهب الصوفية إلا من أيام الفقيه المقدم.

❖ حضرموت في عهد المهاجر:

خضعت حضرموت منذ أكرمها الله بالإسلام لحكم المدينة في عهد النبي - عليه السلام - ثم أثناء حكم الخلفاء الراشدين، ولما آلت الخلافة

إلى معاوية بعد قتل الإمام علي وصلح الحسن خضعت حضرموت لسلطان بني أمية ثم لحكم بني العباس سنة **١٣٢**هـ، وفي أيام المأمون العباسي دانت بلاد اليمن وحضرموت لمحمد بن إبراهيم الزيادي الذي ولاه المأمون على اليمن سنة ثلاث ومائتين من الهجرة حين اختل الأمن في البلاد اليمنية وخيف رسوخ التشيع فيها، وقد دخلت في طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة وصار في مرتبة التبابعة، وأصبح الزيادي هذا كملك مستقل وإن كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا، وقد تكونت في اليمن مملكة من أبنائه تعرف بدولة آل زياد دامت إلى سنة **٤٠٩**هـ إلا أنه في أواسط القرن الثالث تقلص نفوذ آل زياد من صنعاء وما حواليها وانحصر في تهامة، وقامت في صنعاء دولة اليعافرة من سنة **٢٤٧**هـ إلى سنة **٣٨٧**هـ، ويتحدث التاريخ بأن حكام صنعاء من اليعافرة هؤلاء أخضعوا حضرموت لحكمهم، وأنهم قمعوا ثورة قام بها الحضارم للاستقلال بالأمر وأقاموا الهزيلي الحضرمي حاكم شبام نائباً عنهم.

وعلى هذا يكون قدوم المهاجر إلى حضرموت أثناء حكم اليعافرة لصنعاء وما حواليها، والذين أثبت التاريخ أن حكمهم امتد إلى حضرموت، مع العلم بأن الإباضية في حضرموت لم تخضع لحكام صنعاء إلا تحت ضغط القوة، وأنها كانت تتحين كل فرصة لإعلان الثورة والاستقلال بالأمر في حضرموت، فثارت على معن بن زائدة والي المنصور العباسي في صنعاء، وكان معن قد أرسل أخاه عاملاً من قبله على حضرموت فأقام في تريم، وكان فاسقاً ظالماً سفاكاً، فقتله أهل تريم وخلعت حضرموت كلها طاعة معن، فغزاهم وأثخن في القتل حتى بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفاً، وسد العيون بالرصاص وأجبر الناس على لبس السواد، كما ثارت على حاكم صنعاء من آل زياد وآل يعفر وقد سبق الحديث عن ثورتهم في عهد آخر خليفة أموي تحت قيادة عبدالله بن يحيى الكندي.

والمهاجر الذي شهد فتنة القرامطة في البصرة والحجاز شهد هجومهم على حضرموت في بداية القرن الرابع واستيلاءهم عليها، فقد ذكر السيد

علوي بن طاهر الحداد في كتابه «جني الشماريخ» نقلاً عن البشاري في «أحسن التقاسيم» أنه كان على حضرموت والٍ من القرامطة في عهده، والبشاري هذا فرغ من تأليف كتابه المشار إليه سنة **٣٧٥**هـ، وللقرامطة ذكر في التاريخ الحضرمي وفي بداية القرن الخامس الهجري أثناء حكم أبي إسحق الهمداني الذي سيأتي الحديث عنه، فإما هجموا على حضرموت مرة أخرى، وإما أنه قد تقرمط فريق من أهل حضرموت وبقي لهم نفوذ ولو محدوداً إلى عهد أبي إسحق.

❖ وفاة المهاجر:

أقام المهاجر في حضرموت أكثر من ستة وعشرين عاماً قضاها متنقلاً من الجبيل إلى الهجرين فإلى قارة بني جُشَير، ثم ألقى عصا التسيار وحط رحاله في الحسيّسة حيث أقام بها بقية حياته إلى أن وافاه أجله بها سنة ثلاثمائة وخمس وأربعين هجرية، وقبره معروف في رأس هضبة واقعة في نحو ثلث الجبل المطل على الحسيسة الواقعة في سفحه، وعلى ضريحه قبة يصعد إليها الزائرون في درجات معبدة متسعة تبلغ نحو المائة والعشرين، وقد بقيت الحسيّسة قرية عامرة بالسكان إلى أن خربها عقيل بن عيسى الصبرات سنة **٨٣٩**هـ.

بعد وفاة السيد أحمد بن عيسى المهاجر ارتحل ابنه عبيدالله من الحسيّسة إلى «سمل»، ووهب أرض صوح لمولاه جعفر مخدم، واستوطن قرية سمل واشترى بها أموالاً، وتزوج بنت أحد أعيانها واستمر بها إلى أن توفي سنة **٣٨٣**هـ، ثم غادرها ولده وأهله إلى قرية بيت جبير الواقعة بالقرب من تريم حيث نزلوا هناك في حارة خاصة بهم أسموها العلوية، وكانوا يترددون على تريم ويكثرون من زيارتها معجبين برياضها وبساتينها وعذوبة مائها وجودة هوائها، كما استهواهم توفر رجال العلم والأدب بهذه المدينة التاريخية.

وفي سنة **٥٢١**هـ انتقل أحفاد المهاجر إلى تريم واستوطنوها، وكان أول من سكنها منهم علي بن علوي المعروف بخالع قسم بن محمد بن علوي بن عبيدالله بن المهاجر.

ويعرف أحفاد المهاجر في حضرموت بأنهم علويون نسبة إلى جدهم الأعلى علوي بن عبيدالله بن أحمد بن عيسى، تمييزاً لهم عن أبناء عمهم بصري بن عبيدالله بن أحمد بن عيسى، وعن أبناء عمهم أيضاً جديد بن عبيدالله، وكانت هذه الكلمة «علوي» تطلق قبل ذلك على الطائفة التي تتعصب للإمام علي بن أبي طالب، كما يقال للطائفة التي تتعصب لبني أمية وعثمان سفيانية ومروانية وعثمانية.

وقد كانت قصور قرية «بيت جبير» عالية وغرفها سامية، ثم هدّمت ديارها حجراً حجراً وتركت خبراً لا أثراً كما يقول صاحب «المشرع»، ويعقب السيد علوي بن طاهر في كتابه «جني الشماريخ» بقوله: ولم نقف إلى الآن على مخربيها الأشرار ولعلهم من فرقة الإباضية فإنهم كانوا إلى ذلك العهد وما بعده قد يهاجمون تريم وكانت لهم ولاية ونشاط بالشحر ودوعن وربما كان المخربون من خيشمة.

وإذا لم يكن للمهاجر كبير أثر في الحياة الثقافية بحضرموت حال حياته فإنه وضع بذرة مقاومة المذهب الإباضي ومحاربته وساعد على انتشار المذهب الشافعي وعقيدة أهل السنة وبعض تعاليم الشيعة، وطبيعي أن يلتف حوله أنصار وأتباع يتحدث إليهم أحاديث مختلفة ربما كان أكثرها يدور حول العقيدة والنسك والتمسك بآداب الإسلام وأن يتردد اسمه في المحافل والأندية وأن يتساءل الناس عن هذا المهاجر وأسباب هجرته وأهدافها.

وإذا كان السيد المهاجر قد انتشر به مذهب الإمام الشافعي بحضرموت فليس معناه أنه لم يكن بها شافعي قبله فإن الانتشار غير مجرد الوجود[1]،

---

(١) جني الشماريخ للسيد علوي بن طاهر الحداد.

وقد ذكر الحافظ السخاوي في كتابه «التوبيخ بمن ذمّ التاريخ» في سياق حديثه عن اليمن ما نصه:

«ولما ظهر مذهب الشافعي واشتهر به رجعوا إلى تقليده، وكان ذلك في المائة الثالثة كما ذكره الجندي، ثم كثر ذلك لا سيما في الدولة الأيوبية وما بعدها حتى الآن، ويوجد في علمائه الحنفية وكثير من الزيدية وهم بصنعاء، ومن العثمانية وهم بحضرموت، ومن الإسماعيلية وهم بالجبال وغيرهم من الطوائف» ا.هـ. وكلام السخاوي صريح في أنه يقصد باليمن ما يشمل حضرموت.

❖ أحفاد المهاجر:

وإذا كان للمهاجر من أثر بارز في حضرموت فإنه يتجلى بوضوح في أحفاده الذين استطاعوا أن يكوِّنوا لهم كياناً خاصاً أثروا به في مجرى الحياة الثقافية والاجتماعية، فقد تأثرت الثقافة في حضرموت بتعاليمهم وطُبِعت الحياة الاجتماعية بطابع خاص يتناسب مع تلك التعاليم وخصوصاً في بعض المدن، وكان لهم في تاريخ حضرموت السياسي أثر غير مجهول ولا مجحود.

وقد عرف بعض أحفاد المهاجر بالذكاء وقوة الشخصية والتجرد للعلم والانقطاع للعبادة الأمر الذي جعلهم يحتلون الصدارة في كثير من المواقف ويسيطرون أدبياً وروحياً على قسم كبير من الحضارم، وقد انتشر أحفاد المهاجر في حضرموت انتشاراً عظيماً حتى لا تكاد تخلو منهم بلدة أو قرية، والتاريخ الحضرمي يذكر لهم مؤلفات عديدة حفظت الشيء الكثير من تاريخهم وآثارهم العلمية والأدبية، كما حوت تراجم كثيرة لعلمائهم وأدبائهم وصلحائهم.

وإذا استثنينا الإباضية ومواقفهم من العلويين فإن أكثر أهل العلم بحضرموت من سائر القرون لهم اتصال تام بالسادة العلويين فهم ما بين

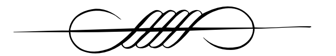
مريد وأستاذ، وقد نقل الطيب بامخرمة في كتابه «قلادة النحر» نقلاً عن الخطيب قال: لما قدم أحمد بن عيسى ومن معه إلى حضرموت وادعوا النسبة الشريفة اعترف لهم أهل حضرموت بالفضل وما أنكروه ثم إنهم رأوا إقامة البيّنة توكيداً لما ادعوه، وكان بتريم إذ ذاك ثلاثمائة مفت، فسار الإمام المحدث علي بن أحمد بن أبي جديد إلى البصرة وأثبت نسبهم عند قاضيها، وأشهد على إثبات القاضي ممن يريد السفر للحج نحو مائة شاهد، ورقب بمكة حجاج حضرموت فلما قدموها وشهدوا بذلك اعترف الناس لهم بالنسبة الشريفة وأقروا لهم بالفضل والحرمة وأجمع على ذلك العلماء والصالحون.

قال: «وممن صحَّح علوِّ شرفهم وصحة نسبهم الإمام محمد بن أحمد بن أبي الحب، والإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم المرواني التريمي، والإمام العلامة المحدث قطب الدين عمر بن علي، والإمام عبدالله بن أسعد اليافعي، والإمام محمد بن أبي بكر عباد، والشيخ فضل بن عبدالله بافضل، والقاضي المحقق عبدالرحمن بن علي بن أبي حسان، والفقيه العلامة مسعود بن سعد باشكيل».

ونقل الشيخ محمد بن عبدالله باسودان أن بعض أئمة ذلك الزمان كلف العلويين إثبات نسبهم بالطريقة القضائية، وكان الحامل له على تكليفهم بعض من عنده نزعة إباضية.

ويرى السيد عبدالرحمن بن عبيدالله في كتابيه «البضائع» و«نسيم حاجر» أن تأخر استيطان العلويين بمدائن حضرموت إنما كان بسبب اختلاف المذاهب، وأنه ما زالت المجاذبة بين العلويين وعلماء المدن الحضرمية الكبرى حتى كانت الغاية الاتفاق على منتصف الطريق، فإن الذين تديّروا تريم من العلويين وافقوا المشايخ في الأخذ بمذهب الشافعي وبعض الآراء الأشعرية، وأكثر المشايخ بتريم وافقوا العلويين على القول

بالقطبانية، وهو المذهب الإمامي بنفسه فإن لم يكنه فإنه أخوه، فكل من الفريقين أخذ وأعطى إما بقصد وإما بطبيعة الاختلاط والاحتكاك فلا غالب ولا مغلوب.



«٥»

أبو إسحق الهمداني

نسبه، نشأته - أعماله الاجتماعية والحربية - حروبه مع الصليحي - تاريخه من شعره - صلته بأئمة عمان - أصحاب النفوذ في عهده - حياته الخاصة - ما قلّ ودلّ

❖ نسبه، نشأته:

«الإمام العلامة الورع الباسل الشاري أبو إسحق إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمداني الحضرمي الإباضي، كان والده ممن عليه المعول في حضرموت ونواحيها، مسموع الكلمة مطاع الأمر والنهي، عالماً ورعاً زاهداً متقشفاً مع الغنى الواسع، لا يستميله زخرف الدنيا وزهرتها، قاهر النفس موطناً لها على العبادة مع القيام بواجب الإصلاح، ذا هيبة في قومه وبسالة في مواطن الدفاع والذود عن الدين»[١].

وقد عني قيس بتربية ولده إبراهيم أحسن تربية، وعلمه كل ما يمكن الحصول عليه من علوم ذلك العصر وآدابه، وأمره بالدرس والتحصيل على كبار علماء عصره، حتى نبغ وتفوق وصار أعلى من أبيه شأناً وأعظم جاهاً، وأوسع اطلاعاً، وأثبت جأشاً، وأشد إقداماً، وشب إبراهيم سالكاً سيرة والده في الورع والزهد وحسن السيرة والاستقامة والرغبة في الإصلاح الديني والاجتماعي، وكان نبوغه المبكر وحسن استعداده ووفرة ذكائه

---

(١) الشيخ سليمان الباروني في تقديمه لديوان صاحب الترجمة.

ورجاحة عقله من بين الأسباب والعوامل التي هيأته للمهام التي اضطلع بها فيما بعد.

ولا يعرف بالضبط السنة التي ولد فيها، غير أنه في حكم المؤكد أنه عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، فقد ذكر الباروني «أن مبدأ ظهور أمره كان في حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة، أي مبدأ استقلاله بالأمر، وإلا فقد كان عاملاً للخليل والإمام راشد قبل ذلك».

❖ أعماله الاجتماعية والحربية:

لما كبر والده وأدركته الشيخوخة تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة المنكرات ومحاربتها حيث لا زاجر ولا رادع، فقام من ذلك بكل ما يملك من وسيلة وبما لديه من جهد، ولم يكد يمضي في غايته غير بعيد حتى عاد القرامطة يخربون ويدمّرون، يقطعون النخيل ويسلبون الأموال ويعيثون في البلاد فساداً فوجه عنايته - كما يقول الباروني - إلى طلب المعونة من أئمة عُمان الموافقين له في المذهب والعقيدة، فوالى لهم الرسائل والرسل، ثم اقتحم المفاوز وسار بنفسه إليهم فلم يجد لديهم عوناً، فعاد إلى حضرموت منكسر الخاطر يقوده زمام الأسف وتدفعه عوامل الحماسة والغضب، ثم لما نصب الخليل بن شاذان إماماً بعُمان وكان شهماً جليلاً ذا صولة متصفاً بالصلاح مشهوراً بالعدل كاتبه بعض إخوانه هناك وطلب حضوره إلى عُمان فأسرع الإجابة وحضر فلقي من الإمام وغيره من الإكرام والاحترام ما دعاه إلى إعادة طلبه القديم، فلم يكن من الإمام إلا أن لبَّى دعوته ومكّنه من المال والرجال، فسار إلى حضرموت واحتلها باسم الإمام في أربعة عشر يوماً، رغماً عما كانت عليه من المنعة في ذلك العهد»[١].

---

(١) مقدمة الشيخ سليمان الباروني.

وكان أبو إسحق قد قدَّم إلى الخليل بن شاذان قصيدة يصف له الحالة في حضرموت، منها:

يا خير خلّ خربت أوطاننا ... واستعبد السفهاء كل نبيل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى ... عن أخذ مكنون وجِذّ نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقُنا ... أسواق سحت واعتداء محول
يا خير خل قد غلبنا فانتَصِرْ ... وانظر لنا بالرأي عزم أصيل

ومن قصيدة أخرى يقول:

فجدت له بالعذر بسطاً وجادَ لي ... بما فيه نصر لا عدته المكارم
فها أنذا بالمال والبيض والقنا ... على حضرموت بالسلامة قادم
سلا تخبرا عني إذا صرت نحوها ... وناديت في الإخوان أين اللهامم

وقد استطاع أبو إسحق بهذه المعونة الحربية أن يفرق أعداءه حتى لم تَبق منهم سوى طوائف التجأت إلى القرى الواقعة بأطراف البلاد، وفي هذا يقول من قصيدة أرسلها إلى الخليل إمام عمان يخبره فيها بما تم له من نصر:

سل الوفد عني يا إمام ألم أكن ... تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همي غير ما كنت ذاكراً ... وهل نمت عن طرف الجواد وصارمي
حرام حرام إن طعمت بمنزل ... إلى اليوم طعم النوم بين الكرائم
ولكنني لما نزلت بعقوتي ... نشرت لوائي في الكرام القماقم
وساروا بحمد الله حولي كأنهم ... بدور ولكن في الوغى كالضراغم
فما كان إلا جمعة بعد جمعة ... وأدّت إليّ العشر أهل الحضارم
سل الخطبا لَمّا دعوا لك جهرة ... على رغم أهل الجور بعد التصادم
وسل عرب البيداء هلا أذقتهم ... عشية خانوا العهد سُمّ الأراقم

وأما نواحي حضرموت فإنها بحول إلهي طوع أمري كخاتمي
سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا من الخوف في روس القرى كالحمائم
ولم يبق لي إلا الصليحي قائماً وها هو أيضاً سعده غير قائم
وقد نزعت عنه القبائل قصدنا لما نظرت من رغمها في الملاحم
ونحن إليه واردون بجيشنا فما هو أدهى من ملوك الديالم

وهو في هذه القصيدة لا يذكر القرامطة بهذا الاسم ولكنه يشير إلى مخالفيه من عرب البيداء والنفر العصاة من نواحي حضرموت، وربما كان هؤلاء قد تسربت إليهم دعوة القرامطة فهو يحاربهم كمناصرين لهذه الفتنة وداعين لها.

❖ حروبه مع الصليحي:

الصليحي هو أبو الحسن علي بن محمد الصليحي الحاشدي الهمداني، كان فقيهاً في مذهب الإمامية متضلعاً في العلوم وله نظر في علم التأويل. أعلن ثورته سنة **٤٢٩**هـ في رأس مشار أعلى ذروة في جبال اليمن، وكان يدعو للمستنصر الخليفة العبيدي في مصر، وفي سنة **٤٥٣**هـ كتب إلى المستنصر يستأذنه في إظهار الدعوة فأذن له، فطاف أرجاء اليمن يفتح الحصون والتهائم ولم تخرج سنة **٤٥٥**هـ حتى كان ملكه قد عم اليمن بأسرها، وفي هذا العام استقر أمره في صنعاء وكان قتله على يد الأحول بن نجاح سنة **٤٧٣**هـ.

وفي شعر أبي إسحق ما يدل على أنه وقف يحول دون تنفيذ مطامع الصليحي في حضرموت، وفي ذلك يقول مشيراً إلى الخليفة المستنصر العبيدي بمصر وهو ما يسميه بالمعز:

يخوفني أن المعِزَّ ملاذه بمصر وما خوفي لأهل المظالم
إذا وفده ولَّى إلى مصر رائداً مضى وفدنا قصداً لخير المعالم

ليعلم أي الحزب أسبق نصرة وأيهما أولى بفعل المكارم

وفي أثناء حروبه مع الصليحي عاد أبو إسحق يستنجد مرة أخرى بإمام عُمان حيث يقول من قصيدة وجهها إلى الخليل بن شاذان:

وانصر أخاك فإن الحرب قائمة والحق يطلب من أهليه أركانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة فارفع لها شرفاً فالأمر قد هانا
إن الذي عمرت صنعاء دولته بالفسق أصبح من مولاي فزعانا
أضحت مخالفة أرض اليمان له لما رأتك لها حصناً ومعوانا
فاحفدهم فهم يدعون ربهم جهراً لتملكهم سراً وإعلانا
لكن لديك ضعيف كاشح وهن أبدى لكم ولنا في الناس أضغانا
والشحر لو نظرت خلقاً تحاربه أضحت عليه رجال الشحر أعوانا
اجعله أول ما يحيا البلاد به إنا نؤمل جيشاً منك يغشانا

وهنا ملاحظة لها أهميتها، فإن المعروف في التاريخ أن الخليل بن شاذان إمام عُمان الذي استنجد به أبو إسحق على الصليحي توفي سنة **٤٢٥**هـ، وأن حركة الصليحي إنما بدأت في اليمن سنة **٤٢٩**هـ يعني أنه يجب أن يكون الخليل على قيد الحياة إلى ما بعد هذا التاريخ ليصح استنجاد الهمداني به على الصليحي.

وقد رجعت إلى كتاب «تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان» لأبي محمد السالمي فوجدت المؤلف لا يقطع بأن وفاة الخليل كانت سنة **٤٢٥**هـ بالضبط، وإنما كان يحكي ذلك على سبيل الترجيح فقط، ولذلك يبقى هناك أمل في حل هذا الإشكال بأن يقال مثلاً بأن ترجيح صاحب تحفة الأعيان يحتاج إلى إعادة نظر وأن من المحتمل أن يكون الخليل قد عاش إلى ما بعد ذلك التاريخ لينتفي التعارض الذي أشرنا إليه.

❖ تاريخه من شعره:

لأبي إسحق ديوان شعر مطبوع مرتبة قصائده على حروف المعجم، وله مقدمة بقلم العلامة الكبير الشيخ سليمان الباروني، وهذا الديوان هو المرجع الصحيح لتاريخ الرجل، ففيه يتحدث عن مبدأ أمره ومنتهاه وعما جرى له بين ذلك من أسفار وحروب وضعف وقوة وما يتصل بذلك كله من وصف للبلاد والناس والحوادث وغير ذلك.

فهو في هذه الأبيات يتحدث عن نسبه ووطنه ومذهبه وبعض صفاته:

فإن تسألا عني وعن أهل مذهبي ... ومن أين داري أنت يا أم حازم

فإني من همدان أصلي وقدوتي ... فمرداس والأوطان أرض الحضارم

أنا الرجل الداعي إلى الحق والذي ... أبت نفسه شتم الطغاة الأشائم

أنا الرجل الشاري الذي باع نفسه ... وأصبح يرجو الموت عند التصادم

وهو هنا يذكر بعض أسماء طائفته من كبار الإباضية الشراة أي الذين شروا أنفسهم لله كما يقولون:

إني من القوم القيام القوَّم ... الباهرين بالمقال المفحم

كابني بديل وابن حصن المعلم ... والراسبيّ الشارئ المعمّم

وابن حويل السيد المقدم ... وطالب الحق ابن يحيى الحضرمي

وابن حميد ذي الأناة الضيغم ... إنا لأهلُ الحق والتقدم

ويقول من قصيدة أخرى:

خُلِقتُ على خلق الرجال فلا أرى ... سوى الجدّ فيما جدّ فيه الأكايس

قريبٌ ورخّاف وسهم بن غالب ... أئمتنا والأربعون الفوارس

ويتحدث الرجل عن آماله وأمانيه في ثقة بنفسه واعتداد بمواهبه يثيران الإعجاب:

فعزائمي صعدت إلى طلب العلى ... ورمت بكل خدلّج ورداحِ

علق الفؤاد بأن أكون أنا الذي   يحيي الهدى بقواضب ورماح
علق الفؤاد بأن أكون أنا الذي   لحق الشرا ورمى غداة طماح
علق الفؤاد بأن أحاسب في غد   ومن الدماء تدفق بجراح
فعلى السيوف يموت كل مكرم   وعلى السيوف قياد كل فلاح
وعلى السيوف ينال من طلب العلا   غرف الجنان وقصدهن كفاحي

ويتحسر على فقد العلماء - من طائفته - ويبكي لانصراف الناس عن التمسك بأهداب الدين، فيتخذ أسلوب الحوار للتعبير عن هذا المعنى في نفسه:

فقلتُ وما يبكيك يا خود لا بكت   لك العين ما هبت رياح زعازع
فقالت بكيت الدين إذ رث حبله   وللعلما لما حوتها البلاقع
فأين الألى إن خوطبوا عن دقائق   من العلم أنبوا سائليهم وسارعوا
فقلت لها هم في شبام ومنهم   بميفعة قوم حوتهم ميافع
وفي هينن منهم أناس ومنهم   بذي أصبح حيث الرضى والصمادع
ومنهم بوادي حضرموت جماعة   وأرض عمان سيلُهم ثَمَّ دافِعُ

ونجد في ديوانه له إشارات مجملة إلى حوادث ذات أهمية في حياته وفي تاريخ البلاد، ولكنا لا نجد مصدراً آخر لتفصيل هذه الحوادث وتوضيحها، فمن ذلك قوله:

إني دعوت إلى الرحمن في زمن   فيه الهدى دارس مستطمس الأثر
فاشتد ساعده إذ قمت وارتفعت   راياته وأضا في البدو والحضر
ثم اتّكت محن الدنيا عليّ ولم   تَقدم لديَّ جنود الصبر والظفر
قام العصاة بثار الجور واحتفلوا   بالله لا نُصِروا حقّاً مدى العُمُر
فاسترهبت لهم الأخيار وارتعدت   بعد استنارتها زند الهوى ووري

لكن أراد تعالى الله يخبرنا كالرسل والخلفا في سائر العصر

ويذكر صنيع بني سهل عنده حين أضافوا جماعته وآووه يوم خرب موطنه، ويستثير عزائمهم لنصرته فيقول:

فيا لبني سهل أضفتم جماعتي وآويتموني يوم خُرّب موطني
وصرت مليكاً فيكمو متمكناً كنيناً حصيناً مكرماً غير هيّن
سوى أنني يا قوم لم أقض حاجة لديكم ولا عاينتُ أمراً يسرّني
فإن تنصروني فالرجية منكم وإن تعجزوا قابلتُ أرضاً تُعِزُّني

ويقول في نفس المعنى من قصيدة أخرى:

فأما بنو سهل الكرام فإنها أجابت ندا الأعدا غداة انحدارها
وفرت عداة الحق سفّاه كندة وحمير لما أيقنت باقتهارها
فنالت به ذلاً فإن هي أنكرت فقد بان إذ عادت بوجه انكسارها
على أنها ترضي الرفيق بمنعها وتلقى المنايا السود من دون جارها
وها نحن في حاليهما إن رأي لنا وللدين حقاً أو لحفظ ذمارها
هي ائتلفتنا والحريم معاً إلى منازلها قصداً ورحب ديارها
وما فعلت هذاك إلا لعزّها ومنعتها أيضاً وحسن اعتبارها
ولست أراها تحرب الدهر جارها وتشمت أعداها بخلع عذارها
فإن خذلتنا وهي في حال عزها وضعف أعاديها وحال انتشارها
فلا ذلّ إلا ذلّ من حلّ نحوها ولا عار إلا مقصر دون عارها

ويذكر صاحب البضائع أن بني سهل من تجيب، وأن مساكنهم بالكسر، وأن من أكبر قراهم هينن، وكان صاحب الترجمة التجأ إليهم بنسائه فأكرموا مثواه.

وهكذا فإن ديوان أبي إسحق سجل حافل بتاريخ حياته، ولا ينقصه

سوى الشرح والإيضاح لبعض الحوادث حيث يضيق الشعر عادة بهذه المهمة ويتكفل بها النثر وحده، ومع ذلك فسنحاول أن نمضي في عرض تاريخ الرجل قدر الإمكان مستندين إلى شعره الذي ليس في أيدينا من تاريخه غيره.

❖ صلته بأئمة عُمان:

شعره في الديوان صريح في تعدد وفادته على عمان مستنصراً بأئمتها على مخالفيه ومنافسيه في حضرموت، كما هو صريح أيضاً في حصوله على معونة مالية حيناً وحربية حيناً آخر، وكان الخليل بن شاذان مصدر أهم هذه المساعدات، وقد أشاد بفضله في كثير من قصائد الديوان، فمن ذلك قوله:

هذا الخليل إمام المسلمين حكت ... أنوار سيرته في العدل نيرانا
يا أيها العلم العدل الذي كملت ... له الخصال مروآتٍ وإيمانا
إني أحبك والرحمن يعلمه ... حب احتساب إلى ذي الطول قربانا
إذ صرت مشتهراً بالفضل أنت ولي ... قلب يحب بدين الله من دانا
متى عبرت إليك البحر منتصراً ... أيام عدت بما أوليت جذلانا

وهو حين يطلب هذه المعونة لا ينسى أن يذكر بأنه إنما يطلبها لنصرة الدين ومحاربة أهل الضلال، وأنه لولا ما يشعر به من وجوب النهوض لحماية الدين لما بذل ماء وجهه في استنجاد أحد.

لقد جاءني من بعد أرضي وأوطاني ... رجاء لنصر الدين من نحو إخواني
وذكر إمام شاع في الناس ذكره ... وطاب الثنا فيه الخليل بن شاذان
فقطعت غيطاناً وجاوزت أبحراً ... إليهم أجرّ المجد من آل قحطان
وكم بلد خلّفت فيها مشايخاً ... غطارفة غراً يرجّون إتياني
وما إن أراني في الذي رمت عائداً ... ولا سامياً إلا إلى مطلب عاني
وكم كانت الأشياخ أشياخنا الألى ... إذا طلبوا نصرا أًمدوا بأعوان

وبالله لولا الدين أصبح مدحراً ... لما كان بذل الوجه في الناس من شاني
ولكن بذلت الوجه في الناس أرتجي ... من الإخوة الغرّ النُّهى بسط سلطاني

ويصرح أبو إسحق بأنه لم يذهب لطلب النصرة من عمان إلا بعد أن فقد كل أمل في مساعدة مواطنيه من الحضارم:

أبا القاسم اسمع لا عدمتك قصتي ... لتعجب من أمري وأنت رشيدُ
طلبت بوادي حضرموت فلم أجد ... بها أحداً ينكي العدا ويكيد
فسرت عُماناً قلت علّي أجد بها ... شراة تسامى والمكان بعيد
فجادوا ببذل المال دون نفوسهم ... وعدت حميداً والإمام حميد
فلما رأى أهل الضلال شرارتي ... تزيد حياة والضلال يبيد
بدا لهمو أن ينكثوا فتسللُوا ... لواذاً وغال المسلمين خمود

وهكذا كانت النجدة العمانية هذه المرة مساعدة مالية فقط، ولكنه في قصائد أخرى يقول إنه عاد بالمال والبيض والقنا كما سبق في أحد الأبيات، وهو هنا يتوعد مخالفيه بجحفل ينزل بساحتهم فلا يستطيعون له مقاومة:

سيعلم دغار بن أحمد والفتى ... سلالة مهديّ وكل مخالف
إذا نزل المستنصرون بجحفل ... يهزّون بيضاً كالبروق الخواطف

وفي شعر أبي إسحق ذكر للإمام راشد بن سعيد الذي تولى إمامة عمان بعد وفاة الخليل بن شاذان:

أيا راشداً إنا لعمرك نزدهي ... بذكراكمو في حضرموت تعاظما
إذا ما عمانيٌّ أَلَمَّ بأرضنا ... أحطنا به نسأله عنكم تزاحما

ويزعم الباروني أن الهمداني كان عاملاً للإمامين الخليل وراشد في حضرموت وأعمالها ثم تقلّد أمر الإمامة بعد لك، وليس في شعره دلالة واضحة على ذلك سوى أنه يدعو الخليل بإمام المسلمين ويقول إن الخطباء

في حضرموت دعوا له جهرةً، وغير أنَّهُ وصف الإمام راشداً بأنه صار لهم قيماً - يعني الإباضية - يعتمد عليه عند الخُطوب وذلك حين يقول:

إبــاضــيــة زهــرٌ كــرام أفــاضــل مناقبهم في كل سامي عُلاً تبْدو
وأنت لنا من بعدهم صرت قيماً حمولا لّثقل الخطب يُورى بك الزندُ

وهذان البيتان من قصيدة أرسلها الهمداني إلى الإمام راشد بن سعيد يعرض له فيها إرسال نجْدة إلى عمان من حضرموت لمساعدته في حروبه مع نهد وعقيل، قال فيها مشيرا إّلى نهد وعقيل:

فإن عَدَلُوا عن بغيهم وتراجعوا إلى عسكر الإسلام والحقّ وارتدوا
فـأهـلاً وسـهـلاً بـالـعـشـيـرة إنـهـم إليكم بإخلاص لرب السما أدّوا
وإن هـم أبـوا فـاستصرخونا فإننا قريبٌ وما للقوم من صحبهم بدُّ
وما بين وادي حضرموت وبينكم إذا سَرَّكـم إتـيـانـنـا نـحـوكـم بـعـد
متى يأتنا منكم صريخ نؤمّكم بـعـسـكـر جرّار يضـيـق بـه الـنـجدُ
كـهـولاً وشـبـانـاً صـبـاحـاً مـسـاعـراً ورادا إّلى الهيجا إذا استصْعب الوِرد

ويخاطب الإمام راشداً من قصيدة أخرى بقوله:

ونحن إذا ما الحرب جدّت إليكم أتـتـكـم كـراديسٌ تَـهُـزُّ الـصـوارمـا
يـذودون عـن أوطـانـهـم كـل مـعـتـد فَويل لمن في الحرب يلقى الحضارما

❖ أصحاب النفوذ في عهده:

يتحدث الهمداني في ديوانه عن جماعة من أصحاب النفوذ في حضرموت بعضهم يناصبه العداء والبعض الآخر صلته به حسنة، بل هو يمتَدح بعض أصحاب النفوذ هؤلاء ويتعاون معهم في أغراض حربية كما فعل مع أبي الفضْل عباس بن معين الكندي:

ففي الشرق قَد أضحى الهدى بعد ذلةٍ عـزيـزاً بـمـلـك راجـح الـحـلـم حـازم

كريم حمي الأنف شهم غشمشم أخي نجدة صعب صليب الشكائم
أبي الفَضْل عباس بن معن بن حوشبٍ ذرى كندة العليا الملوك القماقم
أقمت سنينا قًبل ألقاه لاهياً أقاسي عداة الحق مرّ العلاقم
فلما التوت كفي بيمناه أخْمدتْ عساكره بالرغم نار المخاصم
ومدت بإذعان إليه رقابها جميع البرايا بين راضٍ وراغم

وهو يصف جيش عباس بن معن هذا بالكثرة والقوة فيقول:

قام ابن معن وابنُ مُعْنٍ جيشه ذو كلكل ضخم عظيم المبرك

ونحن لا نعرف عن هذا الملك الكندي أكثر مما ذكره أبو إسحق، فقد ضاع الكثير من أخبار هذا العهد لأسباب لا نعلمها بالضبط حتى الآن، كما لا نعرف شيئاً عن سويد بن يمين الذي أطنب الهمداني في مدحه وألح في طلب نصرته:

سويد الذي في المجد منه عرائس وفيه من المجد النفيس غرائس
سويد الذي لا تائه متغطرس ولا عاجز عما تروم العتارس
سويد الذي لم ينخدع لمنافق ولا ولجت في مسمعيه الوساوس
سويد الذي قد عاهد الله لم يزل عليه من الصدق الصريح قلانس
سويد الذي أيام كنت بدوعنٍ سقى السيف حتى مجدته المجالس
فكيف يغيب اليوم عني انتصاره وها أنذا في داره اليوم جالس
فيا ابن يمين زادك الله رفعة أيغشى الكرى عينيك والحق طامس
ذِمارُك محروس وحرمة ذي العلا مهتكة ترعى حماها الأناحس
أغثنا قبيل الموت إن نفوسنا لها في غدٍ أو بعدها الموت خالس

ويقول في سويد بن يمين أيضاً:

سويد علوت المجد نلت العلا علت أمورك نلت الفخر إذ قمت تكشف

بعزمك كرب المرملين وهكذا   يجلي الهموم الأروع المتهفف

فمن هو سويد بن يمين؟ وعلى من كان يستنصره؟ وما هي حادثة دوعن التي أشار إليها في قصيدته؟ لا ندري.

❖ حياته الخاصة:

يحدثنا الشيخ سليمان الباروني عن حياة أبي إسحق الخاصة فيقول: كان شديد الحزم متجلداً صبوراً على مشاق السفر وزلازل الحروب وأهوال التغرب، وأقام مرة تسع سنين وشهراً لم يأت فيها أهله وهو سائح بجيوشه في بسط العدل وتوطيد الأمن للرعية.

وله مع والده مخاطبات وقصائد، وعُمّر زمناً طويلاً رزق فيه ذرية صالحة، وتوفي في حياته ولداه محمد وأبو الحسن بعد أن تنورا بأنوار العلوم وتهذبا بمحاسن الأخلاق والآداب وبلغا في المعرفة مبلغاً عظيماً، فعظم عليه فقدهما واستسلم للقدر رضاء بالقضاء المبرم، ورثاهما بقصائد بعضها في الديوان.

ولا يتعرض الباروني لتاريخ وفاته، ولكنه يقول: إن ظهور أمره كان في حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة، وهو يقصد بذلك استقلاله بالأمر بعد وفاة الإمامين الخليل وراشد، وقد أشار إلى ذلك أبو إسحق نفسه في قصيدته التي مطلعها:

بحول إلهي لا بحولي وقوتي   وتوفيقه أظهرت بالسيف دعوتي

فقد قال بعد أن ساق عهده ووصيته للناس:

بتاريخ شوال وفي عام أربع   وخمسين تقفو أربعاً من هنيدة

❖ ما قل ودل:

إن هذه المعلومات القليلة المبعثرة التي يطالعنا بها ديوان الهمداني لتدل دلالة مخيفة على مدى الفوضى والاضطراب اللذين حفل بهما في

تاريخ حضرموت في هذه العهود، ففضلاً عن الفتن الداخلية التي تعانيها البلاد كانت في نفس الوقت هدفاً لغزوات حكام اليمن والأقوياء من عمال بني أمية والعباس، ثم لمطامع ملوكها والمتغلبين عليها من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبني زريع والصليحيين.

وربما كان لعقيدة الإباضية التي يعتنقها أغلبية من الحضارم في تلك العهود دخل كبير في هذه الثورات المتتابعة والفتن المتلاحقة، فالإباضية كغيرهم من الخوراج ينظرون إلى خلفاء بني العباس كنظرهم إلى خلفاء بني أمية، كلهم لا يصلح للخلافة إذ لم يختر اختياراً حراً صريحاً، ولم يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام، ولذلك يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم إن أمكن وقتلهم إن أمكن[١].

وقد استعمل حكام اليمن من الشدة في قمع هذه الثورات ما تقشعر من تصوره الأبدان، فقد سبق في ترجمة طالب الحق ذكر للأفعال الشنيعة التي فعلها جيش ابن عطية من النهب والتخريب وقتل الرجال والنساء والأطفال في آخر عهد بني أمية، ثم أتى معن بن زائدة والي المنصور العباسي على اليمن ما هو أشد وأفظع، فقد أثخن في القتل وبلغ عدد ضحاياها خمسة عشر ألفاً، حتى أعظم الناس ذلك وتحدثوا به في جميع الأمصار وقال رجل من قريش للخليفة المنصور: ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما فعل معن بأهل حضرموت؟ لقد كاد أن يأتي عليهم، فرد عليه المنصور رداً يدل على رضائه عما صنع واليه في اليمن.

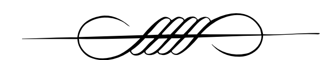
ويقول السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «جني الشماريخ»: إن معن بن زائدة قضى على سطوة الإباضية في حضرموت، وما بقي منها دَمّرها ابن أبي يعفر، ويقصد به محمد بن أبي يعفر الحوال الذي كان متغلباً على اليمن في خلافة المعتمد العباس في النصف الثاني من القرن الثالث

(١) ضحى الإسلام لإحمد أمين.

الهجري، وقد كتب إليه الخليفة العباسي بولاية اليمن فوجه عماله على المخاليف وفتح حضرموت وكانت قد تمنعت على من قبله، وأقام الهزيلي الحضرمي في شبام نائباً عنه.

وأشعار أبي إسحق الهمداني تثبت أنه كان للإباضية سطوة ونفوذ في القرن الخامس الهجري أيضاً، بل سنرى في تراجم الشخصيات الآتية أن نفوذهم استمر إلى القرن السابع حيث أخذ في الضعف والتلاشي.

ومن المؤسف أن المصادر التي عثر عليها حتى الآن لم تتعرض بتفصيل لأخبار استيلاء الحكام اليمنيين على حضرموت من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبني زريع والصليحيين وغيرهم، كما لم تُشِر إلا نادراً إلى زعماء الثوار ورؤسائهم من الإباضية الذين وقفوا في وجه الغزاة وحاربوا من أجل استقلالهم بالنفوذ داخل بلادهم، وحتى يتم العثور على المصادر التي تجلو الحقائق التاريخية وتتحدث بإسهاب عن نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العهد فسيبقى تصورنا لتلك الحقبة التاريخية ناقصاً ومضطرباً لا يمكن الركون إليه.



«٦»

عبدالله بن راشد القحطاني

نسبه، ثقافته - هجوم الزنْجيلي - ولاية عبدالله بن راشد - غزو ابن مهدي - مقتل السلطان ابن راشد - ضياع المصادر التاريخية - أولاد عبدالله بن راشد

❖ نسبه، ثقافته:

هو السلطان عبدالله بن راشد بن شجعنة بن فهد بن أحمد بن قحطان الحميري القحطاني.

ولد بتريم سنة **٥٥٣**هـ، وحبب إليه العلم من صغره فحفظ القرآن الكريم وتفقه على كثير من أئمة تريم كالإمام يحيى بن سالم بافضل، والإمام أبي بكر بن أبي ماجد، والإمام فضْل بن أبي جواس، وفي سنة **٥٨٣**هـ قرأ صحيح البخاري على الإمام محمد بن أبي النعمان الهجراني الفقيه المحدث، وفي سنة **٥٨٨**هـ سمع الحديث من المقدسي وابن عساكر وابن أبي الصيف اليمني.

وآل راشد الذين ينتمي إليهم السلطان عبدالله بن راشد هم من بين الأسر الحضرمية البارزة التي شقت طريقها إلى الحكم في موجة من الفوضى والتناحر على السلطة والنفوذ في البلاد، فقد كانت حضرموت تموج بالفتن والاضطرابات وتعيش في جو من الخوف والرعب وسفك الدماء، إذ لا توجد سلطة محلية حازمة قوية تستطيع أن تفرض سلطانها على كافة أنحاء القطر وتبث فيه الأمن والسكينة، فظلت البلاد قروناً عديدة

تحت رحمة أصحاب المطامع من كل من هبَّ ودبّ من القبائل أصحاب العصبية مهما قل عدد أفرادها، ولم يأت تدخل حكام اليمن في السيطرة على حضرموت بأية فائدة تذكر من ناحية الاستقرار، بل زاد الحالة سوءاً على سوء، كما يعرفه كل من تتبع حوادث التاريخ الحضرمي أثناء حكم الزياديين وآل يعفر والصليحيين ومن بعدهم من بني أيوب والرسوليين وغيرهم.

❖ هجوم الزنجيلي:

في الوقت الذي كان فيه آل راشد يحكمون تريم كان السلطان صلاح الدين الأيوبي يُعِدُّ حملة للاستيلاء على اليمن تحت قيادة أخيه شمس الدولة توران شاه، وقد وصلت هذه الحملة فعلاً إلى اليمن واحتلتها سنة **٥٦٩**هـ، فأقام توران شاه أحد قواد تلك الحملة واسمه عثمان الزنجيلي والياً على عدن من قبله، فلما وجد الزنجيلي من نفسه قوة طمع في الاستيلاء على حضرموت فجهز قوة كبيرة من اليمنيين ومن الأتراك الذين يقال لهم «الغُزّ» وسار على رأسهم إلى حضرموت.

قدم الزنجيلي أولاً إلى الشحر فاحتلها، ثم زحف بجيشه إلى الداخل فاعترضته قوة عسكرية من آل راشد عند الغيل، وعلى أثر معركة دارت هناك اضطرت القوة الحضرمية إلى التقهقر واستمر الزنجيلي في تقدمه إلى تريم ومريمه وشبام فاحتلها، وكان ذلك سنة **٥٧٥**هـ أيام حكم السلطان راشد بن شجعنة والد صاحب الترجمة، وكان ممن لقي الزنجيلي إلى الشحر مع أبي الرشيد أحد أفراد أسرة ملوك شبام آل الدغّار.

وتروي بعض كتب التاريخ أن الزنجيلي عاد إلى عدن بعد أن ترك أخاه الأسود والياً على حضرموت، وجعل آل راشد نواباً عنه يبعثون إليه الخراج، ولكن آل راشد سرعان ما خلعوا طاعته وأعلنوا استقلالهم، فجهز الزنجيلي حملة أخرى لاخضاعهم قدمت إلى حضرموت ودخلت تريم

وقتلت فيها كثيراً من علمائها الذين حرضوا آل راشد على خلع الطاعة، وقد قبض الزنجيلي على عبدالله بن راشد وأخيه أحمد سنة ٥٧٥هـ وحملهما إلى عدن، ثم ألقى القبض على أبيه وأخيه شجعنة في سنة ٥٧٦هـ.

وكان الشيخان يحيى بن سالم بن أبي أكدر وأخوه أحمد من بين ضحايا هذه الحملة، وكانا عالمين فقيهين صالحين، فلما أمر بقتلهما سبق أحدهما إلى السيّاف ليؤثر أخاه بحياة ساعة، فقال له الآخر: أتسبقني إلى الجنة؟ قال: بل أردت إيثارك بالحياة، قال: لا بأس فإلى مثلها يكون السباق، ويرى السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس» أن الخوارج هم الذين جاءوا بالغز، وينقل عن صاحب «الجوهر الشفاف» أن الإمام يحيى بن سالم بن أبي أكدر قتل ظلماً في جمع من صالحي تريم، قتلهم بعض الخوارج خرج على البلاد سنة ٥٧٦هـ ويقول:

ذكر القاضي المؤرخ محمد بن سعود باشكيل بأن جماعة من السادة العلويين قد قتلوا أيضاً ونقله عنه الطيب بامخرمة، وذكر منهم الفقيه المقدم وغيره، وأنكر ذلك القُطب أبو بكر العيدروس العدني، وربما كان بين من قتل من العلويين من اسمه محمد بن علي فتوهم أن المراد به الفقيه المقدم. ا.هـ.

وقد عاد عبدالله بن راشد وأخوه من عدن في سنة ٥٧٦هـ، وفي بداية سنة ٥٧٧هـ اجتمع هو وأخوه شجعنة بكحلان جبل على مقربة من تريم في جنوبها تلتقي عنده مياه عِدِم وسَر[1].

ثم دخلا تريم وتولى الحكم فيها شجعنة في ذلك العام نظراً لأنه أسن من أخيه عبدالله، أما بقية المناطق الأخرى فقد ظلت هدفاً لغزو الأتراك من الغز تارة في حجر وميفع، ومرة في عمد والريدة وشبوة وجردان، وأخرى

(١) عِدِم و سَر: واديان في حضرموت الداخل.

في عندل والهجرين، يقتلون وينهبون ويفتكون بالأهالي، وكلما أخضعوا منطقة انتفضت عليهم أخرى، وظل الحال كذلك إلى القرن السابع الهجري، فتن متلاحقة آخذٌ بعضها بتلابيب بعض.

ولاية عبدالله بن راشد:

قلنا: إن شجعنة بن راشد تولى حكم تريم سنة ٥٧٧هـ، وقد استمر سلطاناً عليها إلى سنة ٥٩٣هـ في ٧ ربيع الثاني حيث قتله أحد عبيد آل راشد فحامت التهم حول أخيه عبدالله وأشيع كذباً بأنه مدبّر هذه الحادثة، ولكنه نفى هذه التهمة بالقبض على المشتركين في قتل أخيه وقتلهم وتولى الحكم عقب ذلك، فتكون بداية سلطنته سنة ٥٩٣هـ.

وقد حاول السلطان عبدالله بن راشدمنذ تولي السلطنة أن يضرب على أيدي العابثين بالأمن، وأن يضع حداً للفتن والفوضى الضاربة أطنابها في البلاد، فقامت في سبيله صعوبات وعراقيل لم تكن لديه وسائل التغلب عليها، ومع ذلك فقد أصاب بعض النجاح، فقد قام إثر توليه السلطنة باحتلال شبام وأخرج منها راشد بن أحمد بن نعمان، وفي «عقود الألماس» للسيد علوي بن طاهر الحداد ما يشير إلى أن آل النعمان هؤلاء من الخوارج، فقد قال عن السلطان عبدالله بن راشد: وهو الذي جاهد آل النعمان ولاة شبام وألفافهم كما جاهدتهم السكون من كندة بعد زيغ كان منهم حتى أذعنوا بالطاعة وتفرق شمل الخوراج.

ومرت سنوات والسلطان عبدالله بن راشديعاني المتاعب ويقاسي المصاعب في إخضاع الثائرين وقمع الحركات العدوانية، فغزا حورة وهدم مصنعتها، وسار على رأس جماعة من أتباعه واستولى على مدينة بور، ثم قصد الساحل سنة ٥٩٩هـ فحاصر الشحر شهراً، ثم انقلب عنها دون أن يظفر بطائل، وكثرت حوادث القتل والتخريب والنهب والسلب، واستولى غير واحد من الرؤساء على شبام وانتفضت نهد وبنو حارثة وحضرموت

وتجيب وغيرهم، وحصلت حوادث قتل وتخريب في سيئون وجفل وشبام وغيرها من مدن الوادي وقراه وحوصرت تريم، وشقّ راشد بن أحمد وفهد بن عبدالله عصا الطاعة وعاثا فساداً في أراضي صوح بالقرب من تريم، وقتل الإمام سالم بن بصري أحد كبار العلويين سنة ٦٠٤هـ بعدما امتحن قبل ذلك، وعقب قتله بنحو عشرة أيام وصل راشد بن أحمد بن نعمان إلى تريم ومعه يحيى بن عبدالله بن جعفر، واجتمع أهل حضرموت وتحالفوا على السمع والطاعة لراشد - المذكور - ضمن دائرة الشريعة، وفي ذي الحجة سنة ٦٠٥هـ وقعت حادثة جفل التي هلك فيها نحو الثلاثين منهم راشد بن أحمد بن النعمان الذي انعقدت له الرئاسة إثر مقتل الإمام سالم بن بصري.

وهكذا ظلت البلاد في فوضى وخراب شامل في الأمن والنظام والعمران إلى سنة ٦٠٦هـ، حيث اجتمع بنو حارثة وبنو حرام على طاعة عبدالله بن راشدوبايعوه على السمع والطاعة علانية في جامع تريم وتخلوا له عن جميع ما في أيديهم من القرى والحصون، وخضعت له القبائل ودانت بالطاعة من العقاد غرباً إلى شعب نبي الله هود شرقاً، حتى سمي هذا الوادي وادي ابن رشد نسبة إلى السلطان عبدالله بن راشد.

عند ذلك بدأت فترة الهدوء والاستقرار في حياة هذا الوادي استتب فيها الأمن واتسق النظام ونفذت أحكام الشريعة المطهرة واطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم وانصرفوا إلى الزراعة واستثمار الأرض والعناية بالنخيل والماشية، وكانت الأرض مستعدة خصبة لبعد عهدها بالحرث من جراء الفتن والاضطرابات فآتت الأرض أكلها وكثرت الخيرات وفاضت الزكوات حتى ذكروا أنه اجتمع لدى السلطان عبدالله من معشرات الأرض من الحبوب والتمر الشيء الكثير وقيل إنه قال ذات يوم مطمئناً إلى نتائج مجهوداته:

لا يوجد في بلدي سارق ولا حرامي ولا محتاج، فقد انصرف الناس إلى استثمار أراضيهم وشغّلت الأيدي العاملة ووصل إلى الفقراء والمحتاجين حقهم من الصدقة والزكاة فلم يبق من تدفعه الحاجة إلى أخذ قوته عن طريق القوة أو الاختلاس.

❖ غزو ابن مهدي:

ولم يكتف الغزّ بالفظائع التي ارتكبوها في عهد أميرهم عثمان الزنجيلي[1] فقد عادوا سنة **٦١٤**هـ بقوة كبرى تحت قيادة عمر بن مهدي اليمني الذي بدأ فاحتل الشحر بعد أن نكّل بولاتها آل فارس، ثم اتجه إلى الداخل ماراً ببلدة عرف فيقاتله أهلها ويقتل منهم جماعة من أشهرهم أحمد بن سالم بن بلعان، ويستمر سائراً إلى الغيل الأسفل فيحاصر أهلها إلى أن يذعنوا، ثم يواصل سيره إلى تريم وفيها السلطان عبدالله بن راشدفيحاصرها، ثم يدخلها في **٢٣** جمادى الأولى سنة **٦١٦**هـ وينفي منها السلطان عبدالله مع جماعة من أنصاره وأتباعه.

واتجه ابن مهدي بعد احتلال تريم إلى شبام فيدخلها بعد أن قاتله حكامها من بني حارثة قتالاً شديداً ثم تذعن له جميع أهالي حضرموت ودوعن سنة **٦١٧**هـ، وقد حصّن مدينة شبام سنة **٦١٨**هـ بأن بنى بها حصناً للدفاع وحفر خندقاً يحيط بها، ثم أعاد بناء قارة العر بالقرب من حوطة سلطانة، وسرعان ما انتقضت البلاد عليه عقب عودته إلى اليمن لمقابلة الملك المسعود[2] بتعز، فعاد مرة أخرى إلى حضرموت ماراً بحجر فقتل

---

(١) في سنة **٥٧٦**هـ نشب خلاف بين الزنجيلي في عدن وزملائه في اليمن من عمال الأيوبيين أدى إلى إثارة فتن وحروب، فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين لقمع دابر الفتنة فهرب الزنجيلي من عدن إلى الشام.

(٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل أبي بكر بن أيوب، أحد ولاة اليمن من الأيوبيين الذين تولوا اليمن وحضرموت من سنة **٥٦٩**هـ إلى **٦٢٢**هـ.

من أهلها الجم الغفير، وكانوا قد أعلنوا العصيان كما انتقضت عليه دوعن وشبام وبنو ظبيان وبنو سعد ونهد كلها فأكثر القتل والفتك، وكان كلما اتجه إلى بقعة انتقضت عليه أخرى وماجت البلاد بالثورة والتمرد وعج الجو بالمطامع والفوضوية والفتنة تقلع الرؤوس وتحصد النفوس وتطوح بالقطر الحضرمي إلى الخراب والدمار.

واستمر الغز وقائدهم عمر بن مهدي يصولون ويجولون ويحكمون البلاد بالقوة والعنف إلى أن هجمت قبائل نهد على عمر بن مهدي في شحوح سنة **٦٢١**هـ فقتلته في عدد كثير من أصحابه واستولت على شبام وتريم وجميع بلدان الوادي، وكان قتله نهاية دولة الأيوبيين ونفوذهم في البلاد الحضرمية، فقد ذكر المؤرخون أن الملك المسعود الأيوبي الذي ذهب عمر بن مهدي لمقابلته في تعز عاد إلى مصر بعد سنة **٦٢٠**هـ وأناب عنه على اليمن عمر بن علي بن رسول الغساني، وكان هذا يقظاً حازما طَموحاً فضبط البلاد كما ينبغي وأعلن استقلاله وتغلب على ملك اليمن، وانتقلت إلى سلطته مخاليف لحج وعدن وحضرموت وغيرها، ثم إلى خلفائه من بني رسول.

❖ مقتل السلطان ابن راشد :

كان آخر عهد السلطان عبدالله بن راشد بتريم عندما غادرها عقب احتلالها من قبل ابن مهدي سنة **٦١٦**هـ حيث أقام بقارة العر معتزلاً شؤون السياسة؛ لما رأى من اضطراب الأحوال وعدم موالاة القبائل له وعجز أنصاره عن نصرته، وتخلّى هناك للعبادة واكتساب الخيرات والإصلاح بين الناس، ولما سئل عن السبب في اعتزاله السياسة قال: ما وجدنا أهل حضرموت يوالوننا على الحق.

ولم تطل مدة إقامته بقارة العر فقد خرج مرة ليصلح بين قبيلتين متخاصمتين فقتل في الطريق - رحمة الله عليه - سنة **٦١٦**هـ أي في نفس

العام الذي أخرج فيه من تريم، وتسمي بعض كتب التواريخ قاتله ومكان قتله فتقول: قتله ابن مداره تحت طاحس ودفن قريباً من مريمه، ويرى السيد علوي بن طاهر الحداد في كتابه «عقود الألماس» أن الخوارج هم السبب في قتله، فقد قال ما نصه بالحرف الواحد: «وتحرك الخوارج في أواخر القرن السادس وأظهروا ما في صدورهم وأغروا بأهل العلم والدين وضايقوا السادة العلويين بالطعن في أنسابهم. . . ثم ضعف أمرهم بعد ذلك بهرب سندهم الزنجيلي الشامي وخمدت فتنتهم بعد تولي السلطان عبدالله بن راشدالشافعي السني، ثم قتل شهيداً مغيظاً بمعاندتهم حتى سلط الله عليهم طوفان القبائل النازعة من سروات جبال قضاعة فاجتاحوا البلاد وتشتت أكثر سكانها الأولون».

وفي موضع آخر من نفس الكتاب ذكر القبائل التي انتقلت إلى حضرموت من السروات[1] بعد القرن السادس قال: «هم بنو حرام وفصائلهم من بني ضنة وبني لبيد وبني مسعود وبني جعفر وبني اليماني وآل كثير وآل شماخ من مذحج والصبرات وآل جميل وآل حسن وهم بنو سعد إن لم يكن هؤلاء هم سعد كندة كما هو الأقرب وبنو خيثمة وفصائلهم مثل آل شماخ ومنهم آل جابر وآل فضالة وآل عساكر وبنو معروف وبنو ظبيان ومنهم بنو سويد بن ظبيان وبنو مرة وآل الحمراء وبنو معقل وغيرهم من القبائل المنقرضة أو الناقلة إلى الإحساء والقطيف، وكان يطلق في القديم على هذه القبائل اسم نهد لتقارب بلادهم في جبال السراة وتجاورهم، ثم امتازت كل قبيلة منهم باسم خاص، وهؤلاء غير قبائل مذحج الناقلة من سرو مذحج كآل عوبث وآل باجنادة وآل مخاشن».

❖ ضياع المصادر التاريخية:

ويعتقد السيد علوي بن طاهر في كتابه «عقود الألماس» أن لهذه الفتن

---

(١) السرو ما ارتفع عن الوادي وانحدر عن غلظ الجبل.

الدموية التي منيت بها حضرموت في ذلك العهد دخلاً كبيراً في ضياع مصادر التاريخ الحضرمي وانطماس المعلومات التاريخية عن هذه العهود فيقول:

«إن كارثة الزنجيلي والغز وما تلا ذلك من هجوم القبائل الناقلة جعل أهل الفضل يشتغلون بأنفسهم، وهم الذين يحفظون التاريخ وهرب أكثرهم إلى ظفار واليمن ومكة ومقدشوه وغيرها، ومن تأمل ذلك علم أن تلك الكوارث بالنسبة لحضرموت كواقعة التتار بأقطار الإسلام وما تلا ذلك من أعمال تيمورلنك، فلا عجب من اندراس الآثار وخفاء الأخبار».

وردد هذا المعنى مرة أخرى في موضع آخر فقال:

«وقد كان لحملات الغز والخوارج والزنجيلي وحملات قبائل جبل السراة والسروين: سرو حمير وسرو مذحج أثر عظيم في انطماس الكتب والمؤلفات، مع ما عرف به أهل حضرموت من الإضاعة والإهمال لآثار ومناقب من سبق.» ا.هـ.

ونحن حين نسجل هنا أسفنا الشديد لفقد المصادر التاريخية لأجزاء مهمة جداً من ماضي حضرموت لا نستطيع حتى الآن أن نبدي رأياً قاطعاً في الموضوع حتى تتجمع لدينا الأدلة الكافية للحكم في هذه الظاهرة الغريبة.

أولاد عبدالله بن راشد:

لا نعرف عن أولاد السلطان عبدالله بن راشد أكثر مما ذكره المؤرخون من أن قبائل نهد حين استولت على تريم بعد قتل ابن مهدي أخرجت أولاد عبدالله بن راشد من سجن ابن مهدي وأنهم انطلقوا إلى الشحر فسكنوها، كما أنهم ذكروا أن له ابناً اسمه محمد كان فقيهاً ووالياً على حضرموت، وتروي عنه بعض كتب التاريخ هذه الحكاية:

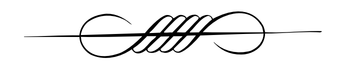
«سأل السلطان الفقيه محمد بن عبدالله بن راشد والي حضرموت

الشيخ القديم عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن باعباد عن بعض شطحات الفقيه المقدم وذكر له أنه قد سأل عنها الشيخ بافضل والشيخ باطحن فأنكراه على الفقيه، فقال له القديم: أممتِحنٌ أنت أم مستفيد؟ فقال له السلطان: بل مستفيد، فقال: اشهدوا عليّ أن الفقيه المقدم محمد بن علي لا تمضي عليه ساعة وهو خال من السكر، وما قال هذا إلا في حال السكر، ولا يصلح من هذين الشيخين الاعتراض عليه مع ظهور وجه العذر».

ويذهب مؤرخ مشهور إلى أن السلطان محمد بن عبدالله بن راشد امتدت به الحياة إلى أواخر القرن السابع الهجري حيث توفى بالريدة سنة ٦٨٧هـ، وسيأتي في موضعه أن مسعود بن يماني احتل تريم وأخرج منها نهد في نفس العام الذي استولوا عليها فيه، وهكذا كانت حضرموت تتلاعب بها أمواج الاضطرابات والفتن والثورات بدون انقطاع.

وإلى دولة آل راشد القحطانيين يشير صاحب المشرع الروي بقوله:

«ثم وَلِيَ حضرموت بنو قحطان، فملكوا برهة من الزمان، ثم ظلموا الناس، وأخذوا أموالهم بالقهر والباس، فنفرت عنهم قلوب الخلق، وآل الأمر إلى آل أحمد والصبرات، وكثر في أيامهم الفرح والمسرات، إلى أن طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وملك كل واحد في بلاد، وجمع له العدد والأعداد، ومن قتل قتيلاً والتجأ إلى أحد منهم لم يكن الوصول إليه، فكثر بسبب ذلك القتل والقتال، والجلاد والجدال، إلى أن تولى بدر بن عبدالله الكثيري فعمل بالحيل والخداع، حتى أخذ ما معهم من الحصون والقلاع، وأخذ ملوكهم واحداً واحداً، وفرقهم في البلاد بدداً، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً.» ا.هـ.



«٧»

سالم بن إدريس الحبوظي

أسرته - استيلاؤه على حضرموت - عماله من آل كثير - قحط ومجاعة - هجومه على الشحر - الحبوظي وبنو رسول - حضرموت بعد الحبوظي - أوقاف الحبوظي - بداية السلطنة الكثيرية

❖ أسرته:

الأمير سالم بن إدريس بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الحبوظي لم يكن حضرمياً بالمولد، فقد ولد ونشأ وعاش في ظفار، ولكنه ينتسب إلى أصل حضرمي، كان جده الثالث محمد بن أحمد الحبوظي عاملاً من عمال السلطان محمد بن أحمد الأكحل أمير مرباط الواقعة على الساحل شرقي مدينة ظفار، وكان يلي بعض شؤون الأكحل التجارية فقط، فلما مات الأكحل هذا ولم يترك عقباً ولم يكن في أقاربه من كان متأهلاً للملك تولى الأمر بعده محمد الحبوظي الذي وجد في نفسه القدرة على تولي السلطنة والقيام بالأمر.

فلما مات محمد هذا تولى السلطنة بعده ابنه أحمد الذي بنى مدينة ظفار الحديثة سنة **٦٢٥هـ**، وأمر أهل مرباط وهي ظفار القديمة أن ينتقلوا إليها، وكان السلطان أحمد جواداً شهماً حسن السيرة، وهو أول من ملك ظفار من الحبوظيين رسمياً بعد ولاية أبيه التي كانت كتمهيد لانتقال الإمارة إلى خلفائه، وقد تولى الأمر بعد وفاته ابنه محمد ثم إدريس بن محمد ثم

سالم بن إدريس الذي عقدنا هذا الفصل للحديث عنه.

❖ استيلاؤه على حضرموت:

كان الأمير سالم بن إدريس جم المطامع طموحاً إلى السيطرة شديد الشغف بتوسيع رقعة مملكته، وقد عظم شأنه في ظفار وقويت شوكته، ولما أنس من نفسه القدرة صَمَّم على غزو حضرموت والاستيلاء عليها، وكانت الفوضى التي شملت البلاد الحضرمية في ذلك العهد تشجع الطامحين على الإدلاء بدلوهم بين الدِّلاء.

والمصادر التي بين أيدينا لا تذكر المعدات التي أعدها لهذا الغزو، ولا تتعرض لتفصيل الحوادث الحربية وما يتصل بها، وكل ما ذكرته بهذا الصدد أنه قدم حضرموت واشترى مدينة شبام سنة **٦٧٣**هـ وجعلها مركزاً لنفوذه وقاعدة لبسط سلطانه، ثم ترك أخاه موسى بن إدريس في شبام، وأخذ يهاجم مدن الوادي وقراه، فاحتل سيئون ودمّون والعجز والغيل، وضرب الحصار على تريم وكان فيها أميرها عمر بن مسعود بن يماني، وأقام محاصراً لها عدة أشهر اشتدت الفتنة أثناءها على تريم، وخلت البلاد من أهلها وعم الخراب حتى أنه لم تقم في تريم جمعة أثناء تلك المدة.

وحاول ابن مسعود أن يستنجد بالغزّ فذهبت محاولته سدى، فقد أرسل ابنه يماني أثناء الحصار؛ ليجند منهم جنداً للدفاع عن تريم فلم يفلح في مهمته، ومع ذلك فقد صمد إلى النهاية حتى يئس الحبوظي وانقلب دون أن يظفر بطائل، حيث عاد إلى شبام فاجتمع بأخيه موسى، ثم كرّ عائداً إلى ظفار.

❖ عماله من آل كثير:

كان آل كثير قد شرعوا منذ أواخر القرن السادس الهجري يتناجون فيما بينهم للقضاء على جميع السلطات الفوضوية في البلاد وتشييد دولة كثيرية على أنقاضها، وطفقوا يجمعون حولهم الأنصار ويستعينون بشتى

الوسائل للوصول إلى هدفهم.

ولما قدم الحبوظي إلى حضرموت انتهزوا هذه الفرصة، فأظهروا له الولاء والطاعة وقاموا بالدعاية له وترويج سياسته وتولّوا إدارة شؤونه العسكرية، فلما عاد إلى ظفار مقر مملكته أناب عنه في قرى حضرموت آل كثير يحكمون باسمه ويصولون بسلطانه، وكان ذلك سنة **٦٧٥**هـ، وقد توفي في هذا العام علي بن عمر بن كثير الأول رئيس العائلة الكثيرية التي كانت تمهِّد للاستيلاء على الحكم.

قحط ومجاعة:

في حدود سنة **٦٧٦**هـ انتشرت في حضرموت مجاعة شديدة بسبب قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها نتيجة للقحط والجدب الذي عم البلاد، فقدمت على الحبوظي وهو في ظفار وفود من حضرموت يشكون إليه ما حل بهم ويطلبون منهم المعونة، وعرضوا عليه مقابل ذلك حصونهم وقلاعهم، فاهتم بالأمر وخرج بنفسه معهم إلى حضرموت وأعطاهم جميع ما يطلبون لتخفيف المجاعة، وسلموا إليه الحصون التي كان يعتبرها من أهم الوسائل لبسط نفوذه وتقوية مركزه في البلاد، وعاد إلى ظفار مطمئناً إلى نجاح هذه الخطة التي هيأتها له الأقدار.

ولكن الرجل لم تكن لديه إدارة منظمة في حضرموت، ولا قوة كافية من الجند للمحافظة على المناطق الخاضعة له، فكان يكتفي بشيء من الرسوم، ثم يترك البلاد وشأنها جاعلاً عليها عاملاً من قبله لا يلبث أن يستقل بالحكم فيها أو يأتي من يطرده عنها، وكان بُعْدُ المسافة وصعوبة المواصلات في ذلك العهد من بين الأسباب التي جعلت الحبوظي لا يستطيع المحافظة على أملاكه في حضرموت، ولذلك فقد رأى أصحاب الحصون التي سلموها له أثناء المجاعة أنهم في حاجة إلى حصونهم وأنهم لن يجدوا كثيراً من الصعوبات في استرجاعها بالقوة، فمالوا عليها ميلة

واحدة واستردوها، ولم يستطع الحبوظي أن يصنع شيئاً فاكتفى بالندم والأسف على ما فرط فيه من جهد ومال، وما خسره من نفوذ وسلطان.

❖ هجومه على الشحر:

كان الحبوظي - كما قلنا سابقاً - واسع المطامع بعيد الهمة، فكان ينتهز كل فرصة لبلوغ آماله وتنفيذ أحلامه، وقد أسرع عندما بلغه استيلاء الغز على الشحر سنة ٦٧٧هـ إلى إعداد العدة لغزوها وتخليصها من «الغُزّ» والاستيلاء عليها وضمها إلى أملاكه، وكان راشد بن شجعنة أمير الشحر قد فرَّ هرباً إلى الجبال عقب الهجوم الذي قام به الغز على مقر إمارته.

وجهز الحبوظي من ظفار حملة بحرية وبرية حسب أنها كافية لتنفيذ خطته التي رسمها لاحتلال الشحر، ولما وصلت قواته إلى ضواحي المدينة خرج الغز للقائه فدارت المعركة بينه وبينهم في البر وانتهت بفشله وانهزامه حيث عاد بعد ذلك إلى ظفار.

❖ الحبوظي وبنو رسول:

حدث أن أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن سفيراً له إلى ملك فارس بهدية ثمينة بطريق البحر وصحبه جماعة من التجار، فصرفهم الريح عن طريقهم ورمى بسفينتهم إلى ساحل ظفار فألقى القبض عليهم سالم بن إدريس واستولى على ما معهم من الهدايا والأموال، ونحن لا نعلم أي سبب مشروع يبرر هذا التصرف من قبل الحبوظي، وإن كان التنافس على الحكم في حضرموت هو مصدر الجفاء والاحتكاك بين الرجلين على ما يظهر.

وانتهى خبر الحادث إلى الملك المظفر فكتب إلى الحبوظي يقول له: إنه لم تجر عادة بهذا ونحن نجلك عن قطع الطريق، وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والجميل ولا نعجز عن مكافأتك على ما فعلت ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ولكننا نتأدب بأدب القرآن،

فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .

فغضب الأمير سالم بن إدريس ورد على ملك بني رسول رداً عنيفاً افتتحه بقول الله عز شأنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾، وكان في جملة ما قاله: هذا الرسول فأين العذاب؟ وبذلك توترت العلاقات بينهما واتجه الفريقان إلى تحكيم السيف.

وعلم الملك المظفر بأن الحبوظي هو الذي شجع راشد بن شجعنة حاكم الشحر على خلع طاعة بني رسول، وكان يخضع لسلطانهم ويدفع إليهم خراجاً سنوياً، كما بلغه أن الحبوظي يفكر في الهجوم على عدن، ولذلك أعد الملك الرسولي حملة عظيمة من البحر والبر تكفي لمحو سلطان الحبوظيين والقضاء عليه، فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذي غزا ظفار كان مؤلفاً من سبعة آلاف من المشاة وخمسمائة فارس، وكانت السفن في البحر تسير محاذية لسير الجيش في البر تحمل العتاد الحربي وما يحتاج إليه الجنود من أطعمة ومتاع ونقود.

وخرجت فرقة من جيش الرسولي قوامها ثلاثمائة فارس من صنعاء متجهة صوب حضرموت الداخل في طريقها إلى ظفار، وقد اصطدمت في حضرموت بقلاع الحبوظي وحلفائه، ولم يكن بحضرموت من يوالي الملك المظفر سوى ابن شماخ النهدي وعمر بن علي بن مسعود، ويقال بأنه لم يصل من هذه الكتيبة إلى ظفار سوى مائة وثلاثة عشر فارساً.

وتكامل الجيش الرسولي والتقى بعضه ببعض عند «ريسوت» بالقرب من ظفار، وخرج الأمير سالم بن إدريس في جيشه متأهباً للقائهم وصَفَّ لهم على بُعْد من المدينة، وانتشرت إشاعة بأن نجدة للحبوظي قد وصلت من حضرموت والهجرين، فلم يهتم بها قائد الجيش الرسولي شمس الدين ازدمر اتكالاً على وفرة عدد جيشه وكثرة أسلحته، ونشبت المعركة واحتدم

القتال وصمد كل فريق للآخر، ثم كرت فرسان الجيش الرسولي وجالت جولة فرقت جنود الحبوظي وحلت بهم الهزيمة وانكشفت المعركة عن قتل سالم بن إدريس في ثلاثمائة من أصحابه وأسر ثمانمائة منهم، وطلب سالم بن إدريس بين القتلى فوجدوه قد قطع رأسه فقبر جسده بدون رأس.

ودخل شمس الدين ازدمر بجيشه إلى ظفار في يوم الأحد **٢٨** رجب سنة **٦٧٨هـ**، وقبض على كافة بني الحبوظي وحملهم إلى زبيد، حيث ظلوا هناك يعيشون على الصدقات السلطانية، حتى انقرضوا أو اندمجوا في أهل اليمن.

حضرموت بعد الحبوظي:

عقب الاستيلاء على ظفار أناب الملك المظفر عنه بحضرموت الأمير محمد بن محمد بن ناجي فأقام فيها برهة، ثم عاد إلى اليمن وقد تسلمت جنود المظفر مدينة شبام في رمضان سنة **٦٧٨هـ** بعد مقتل الحبوظي، وظلت حضرموت خاضعة لبني رسول الذين امتد ملكهم في اليمن إلى القرن التاسع الهجري، إلا أن هذا الخضوع ربما كان اسمياً في أكثر الأحيان وفي أغلب المناطق، فالمتتبع للتاريخ الحضرمي في هذا العهد يجد أن سلطات محلية متعددة كانت تحكم فيه بأمرها دون اللجوء إلى سلطة عليا.

وذكروا أن محمد بن محمد بن ناجي - الآنف الذكر - قيل له عندما عاد إلى اليمن: كيف عاملت أهل حضرموت؟ قال: لما دخلت شبام راغمني منهم رجل هو أعظمهم حالاً وجمع لحربي عسكراً فطاولته حتى أنفق جميع ما عنده ونفد كل ما بيده من ناطق وصامت، ولما لم يجد ما يدفعه لعسكره وصلني بنفسه حتى أناخ بعيره على باب داري ودخل الحاجب يستأذن له فأذنت، فلما دخل قال: اعلم أني لما أردت الخروج إليك أشهدت كافة أهل بيتي على أني في ذمة ابن رسول ثم في ذمتك، فقلت له: هما لك واكرمته وأحسنت إليه، وجرى على ذلك النمط أربعة

نفر يؤدون أنفسهم إليّ، ثم لم يرفع أحد رأسه من أهل حضرموت بعد ذلك.

وكانت مدينة الهجرين قد خضعت لبني رسول قبل فتح ظفار، فقد هاجمتها الكتيبة التي قدمت من صنعاء مارة بداخل حضرموت، ثم سلمتها بعد الاستيلاء عليها لابن شماخ النهدي الذي سبقت الإشارة إلى أنه من الموالين لبني رسول.

❖ أوقاف الحبوظي:

تحكى عن الأمير سالم بن إدريس الحبوظي أحاديث غريبة جداً عن ولعه بالصدقات ورغبته الشديدة في أن لا ينافسه في كثرة ما ينفق أحد، وبصرف النظر عما يمكن أن تحمل هذه الأخبار من مبالغات فإنها تدل على أن الرجل كان يحمل نفساً كبيرة وقلباً عطوفاً على الفقراء والمحتاجين وذوي الحاجة، والدليل الخالد الباقي إلى الآن على هذه الخلال الحميدة هو هذه الأوقاف الكثيرة التي تصدق بها السلطان الحبوظي من أراضٍ زراعية واسعة ونخيل في مقاطعات وادي عمد وحريضة وهينن وحورة والهجرين ودوعن ورخية وغيرها، وتقدر قيمة هذه الأوقاف بعشرات الآلاف تصرف غلتها على المحتاجين من الغرباء والمنقطعين وأبناء السبيل، ولا تزال هذه المكرمة الخالدة إلى الآن معروفة بين الحضارم بصدقة الحبوظي.

ومن المؤسف أن هذه الأوقاف الواسعة ليس لها إدارة موحدة للإشراف عليها وتنظيم استغلالاها والانتفاع بها في وجوه البر، وحبذا لو فكرت الحكومة في حماية هذه الأوقاف وحفظها.

❖ بداية السلطنة الكثيرية:

بعد قتل الحبوظي في ظفار تشبث آل كثير بما في أيديهم من البلدان التي كانوا يحكمونها باسم الحبوظي، وضاعفوا من جهودهم في التقرب

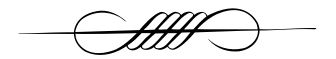
إلى رجال الدين وكسب مودتهم، وكان الشيخ محمد بن عمر باعباد الذي أسس الغرفة سنة ٧٠١هـ وابنه عبدالله القديم في مقدمة الذين لا يقصرون في نصرة آل كثير وتنشيطهم وترويج مشروعهم بين الدهماء، علاوة على ما يقوم به العلويون من الجهة الأخرى من حسن الدعاية وتمهيد السبيل.

وأصبحت أغلبية قرى السليل خاضعة للنفوذ الكثيري في بداية القرن الثامن، ما عدا قرية بور فقد رفضت قبيلة آل بانجار تسليمها ولم تفلح الوساطات الكثيرة للوصول إلى حل سلمي، فهجم آل كثير عليها واحتلوها بعد أن قتلوا جماعة من آل بانجار سنة ٧٢٣هـ، وما انصرم القرن الثامن حتى كانت الدعاية لآل كثير قد خطت خطوات واسعة وأصوات المعارضين من طلاب السلطة خافتة، وأخذ رؤساء آل كثير يتقربون إلى العلماء وأهل الفضل ويقبلون شفاعاتهم حتى تمنى كثير من الناس أن تشملهم رعاية السلطة الكثيرية.

وفي سنة ٨١٤هـ غادر علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن علي بن عمر بن كثير بلدة بور مسقط رأسه، واتصل بالشيخ علي بن عمر باعباد وغيره من رجال الصلاح، وكانوا يعدونه بالاستيلاء على ظفار وجميع بلدان حضرموت فتشجع علي بن عمر بذلك، وشرع يذلل العقبات ويزحزح الحواجز ويحارب ويغزو حتى استتب له الأمر واستحق لقب سلطان، وهو لذلك أول من نصب سلطاناً على حضرموت من آل كثير التي كانت إلى عهده متفرقة بين ولاة كثيرين، وهو أول من حول القبيلة الكثيرية إلى دولة منظمة.

وتوفي السلطان علي بن عمر سنة ٨٢٥هـ بعد أن دانت له ظفار وشبام وكثير من مدن الوادي وقراه، وبعد أن أمضى أكثر حياته في قمع الحركات المعادية وإخضاع الثوار، وقد بقيت ظفار في يد الدولة الكثيرية الأولى إلى أن أفل نجمها منها سنة ١١٣٠هـ.

وهكذا برزت السلطنة الكثيرية إلى الوجود بعد محاولات وتمهيدات وتضحيات، وسنرى في تراجم الشخصيات الكثيرية الآتية ما مر بهذه الدولة من تطورات وتقلبات وما صاحبها من حوادث وتغيرات.



«٨»

عبدالله بن عبدالرحمن باوزير

في عاصمة الرشيد - الرحيل عن العراق - هجرة آل الوزير - الشيرازي الحضرمي - أبو بكر بن محمد - صاحب الترجمة - ابنه عمر - مؤسس غيل باوزير - عبدالرحيم صاحب الطرائق

❖ في عاصمة الرشيد:

العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن باوزير أحد الرجال البارزين من أسرة حضرمية كبيرة لها تاريخها المجيد وآثارها الواضحة في مجريات الأحوال في البلاد الحضرمية في مختلف العهود، ولهذه الأسرة الكبيرة قصة تبتدئ في بغداد عاصمة الخلفاء من بني العباس، وتتوالى وقائعها وحوادثها مسرعة في البصرة والكوفة وبلاد فارس وخراسان وتركستان، ثم في مكة والمدينة المنورة وجُدَّة من أرض الحجاز، حتى إذا كان الجزء الأخير والخاص منها بحضرموت أخذت وقائع القصة وحوادثها تسير في بطء وفي شيء من الإسهاب والتفصيل يصرفنا عنه ضيق المقام.

في نهاية القرن الخامس الهجري أو بداية السادس ولد في بغداد يعقوب بن يوسف بن علي بن طراد، ومات أبوه يوسف وهو طفل لم يبلغ الحلم، فكفله جده علي بن طراد نقيب العباسيين ووزير الخليفتين المسترشد والمقتفي، وأشرف على تربيته وتعليمه حتى نال حظاً كبيراً من العلم والمعرفة، وكان من بين أساتذته أبو الفتوح الغزالي أخو حجة

الإسلام صاحب الإحياء والإمام السهروردي وأحمد الرفاعي وغيرهم من كبار رجال العلم والتصوف.

ثم أذن له جده في السفر إلى البصرة والكوفة والحجاز فأخذ عن علمائها وعاد إلى العراق مقيماً في بغداد الجديدة للتدريس ونشر العلم مبتعداً عن قصور الخلفاء والوزراء، ناقماً على ما آلت إليه الخلافة من ضعف وفساد وتزعزع واضطراب، واشتدت نقمته وتضاعف قلقه وتبرمه بالحالة عندما قبض الخليفة المسترشد على جَدِّهِ وأودعه السجن، فرحل إلى بغداد القديمة واختفى هناك، ولما عاد جدّه وقبل وزارة الخليفة المقتفي سنة **٥٣١**هـ أتى إليه ووعظه وحذّره عاقبة الاتصال بالخلفاء المسلوبي الإرادة المشتغلين بملذاتهم عن مهام الخلافة وواجباتها، فلم يلتفت إليه فتركه وشأنه، وقد صح ما توقعه حفيد الوزير الكبير فتغير المقتفي على جدّه وهمّ بالقبض عليه فاحتمى منه في دار السلطان مسعود ثم لزم داره إلى أن مات سنة **٥٣٨**هـ.

❖ الرحيل عن العراق:

وضاق يعقوب ذرعاً ببغداد بعد وفاة جده ولم يستطع صبراً على الإقامة بها، واتفق مع أبنائه الثلاثة على الرحيل عنها فسار ابنه عمر إلى بخارى من أرض تركستان، وتوجه عبدالله إلى شيراز قصبة فارس حيث تزوج بكريمة أحد العباسيين هناك فأنجبت له ابنه سالماً، أما هو فقد سافر إلى خراسان ومعه ابنه الثالث يوسف، ولكنهم عاودهم الحنين إلى العراق بعد سنوات قضوها في بلاد الأعاجم فعادوا إلى وطنهم سنة **٥٤٩**هـ.

ولم تكد تستقر أقدامهم في بغداد حتى أدركوا أنه لن يطيب لهم المقام في بلد اضطرب فيه الأمن واختلت فيه شؤون الحكم وتكاثرت فيه الفتن فصمموا على الهجرة، ويقال بأن بعض أصدقائهم أشار عليهم بالهجرة إلى أطراف اليمن ومن بينهم العلامة الكبير الشيخ عبدالقادر الجيلاني أحد كبار

رجال التصوف في ذلك العهد، فقد قال لهم: إن أطراف اليمن أسلم للدين وأبعد عن الفتنة وأخفّ للمعيشة.

❖ هجرة آل وزير:

كذلك كان يعرف أهل هذا البيت بآل الوزير، فقد كان رئيس هذه الأسرة علي بن طراد وزير الخليفتين المسترشد والمقتفي، قال الهمداني: لم يل الوزارة عباسي سواه، وقال ابن كثير: لا يعرف أحد من العباسيين باشر الوزارة غيره، قال الذهبي: كان صدراً مهيباً نبيلاً كامل السؤدد، دقيق الفهم، بعيد النظر، ذا رأي وإقدام، فمن أجل ذلك دعيت هذه الأسرة بآل الوزير كما هو ظاهر.

هاجر آل الوزير من بغداد خفية متسترين قاصدين الحجاز لأداء فريضة الحج، فلما قضوا مناسكهم وزاروا المدينة المنورة اتجهوا إلى جُدَّة حيث ركبوا سفينة شراعية كانت مسافرة إلى بلدان المحيط الهندي وبحر العرب، وشعر شيخ الأسرة يعقوب بن يوسف وهو في البحر بانحراف في صحته لازمه واشتدَّ به حتى حاذت السفينة ساحل حضرموت فاختار أن ينزل في المكلا بجانب الكثيب الأبيض، وكانت قرية صغيرة لا توجد بها سوى أكواخ الصيادين المقيمين بها.

وأحس الشيخ بدنو أجله فجمع أبناءه الثلاثة وحفيده سالماً وتحدث إليهم طويلاً، وأوصاهم بالتمسك بالتقوى والزهد والاجتهاد في طلب العلم ونشره والصبر على المشقات في الحياة ولزوم الاستقامة، وحذرهم من الكسل والكبر والعجب وطلب الشهرة، ثم أدركته الوفاة فقضى نحبه سنة **٥٥٣**هـ، ودفن في الكثيب المعروف الآن في العاصمة بتربة يعقوب، وضريحه مشهور يقصد بالزيارة حتى الآن، وعليه قبة مرتفعة.

ولم تكن المكلا في ذلك العهد بدار إقامة لمثل آل الوزير فارتحلوا عنها إلى الشحر، وكانت إذ ذاك أكبر وأصلح مدينة على الساحل، فأقاموا

بها واستوطنوها وتصدوا فيها للتدريس ونشر العلم ونفع الناس، فالتفَّ حولهم الأهالي وأكرموا نزلهم لما عرفوا به من كرم الأخلاق وحسن السيرة.

وبينما كان يوسف بن يعقوب في أرض حجر يعلِّم الناس ويدعوهم إلى الله أدركته المنية فمات وقبر هناك، ومات أخوه عمر بعد برهة وجيزة فدفن بالخور غربي مدينة الشحر، واعتصم أخوهما عبدالله بالصبر لفقدهما، ووجد في الانصراف إلى تربية ابنه سالم والاشتغال بتعليمه بعض السلوى عن فراق أخويه وعما كان يشعر به من آلام الغربة.

❖ الشيرازي الحضرمي:

قلنا: إن عبدالله بن يعقوب عندما كان بشيراز من أرض فارس تزوج كريمة أحد أبناء عمومته من العباسيين ورزق منها بولد هو سالم بن عبدالله الذي قضت الأقدار بأن يولد في شيراز من عائلة بغدادية ثم يقضي شبابه وبقية حياته لا في العراق ولا في بلاد فارس ولكن في حضرموت موطن عاد وبلاد حمير وكندة.

أتم سالم بن عبدالله تعليمه في الشحر تحت إشراف والده، ثم أخذ يتنقل بإشارة منه بين البادية يعلمهم ويصلح ذات بينهم، وقد دفعه اختلاطه بالبدو إلى أن يتزوج بنت أحد رؤسائهم في قرية «عرف» وهي جميلة بنت أحمد بن علي رئيس قبيلة المسيليين التي لم تلبث أن أنجبت له محمد بن سالم الجد الأعلى لآل باوزير المعروف الآن بمولى عرف؛ لأنه عاش ودفن هناك.

ومحمد - مولى عرف - هذا هو الوارث الوحيد في حضرموت لأسرة آل الوزير المهاجرة من العراق، والعباسي الأول الذي ولد بحضرموت من هذه العائلة، فقد توفي أخوا جده يوسف وعمر دون عقب وتوفي جده عبدالله بالشحر عن والده سالم فقط الذي مات بالجويب الواقعة بالقرب من

حورة، ولذلك اعتبر محمد بن سالم الجد الأول لآل باوزير، وكان أحد كبار رجال التصوف في القرن السابع الهجري ومن أقران الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وله بهما صلة وثيقة، وقد توفي عن ثلاثة من الولد هم: أبو بكر وسعيد وعمر، وهذا الأخير هو والد الشيخ عبدالرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير.

وقد رأيت في رسالة خطية قديمة لدى أحد المشايخ في حورة أن من بين أساتذة الشيخ محمد بن سالم - مولى عرف - العلامة الإمام محمد بن علي صاحب مرباط، والشيخ أحمد الهدهدي، والشيخ أحمد البطين، والعلامة الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي بزبيد في جملة من علماء اليمن، كما أخذ عن والده سالم وجده عبدالله بن يعقوب.

أما من أخذ عن الشيخ محمد بن سالم فقد ذكرت منهم هذه الرسالة: الشيخ علي بن سلم الحضرمي، والإمام الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي الحب التريمي، والشيخ سعد بن علي الظفاري، والفقيه المقدم محمد بن علوي باعلوي، والشيخ سفيان اليمني، والشيخ أحمد بن الجعد، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ سعيد بن عمر بلحاف، والشيخ عبدالله بن محمد باعباد وغيرهم.

وتقول هذه الرسالة: إن الشيخ محمد بن سالم تزوج في حورة بنت أستاذه العلامة الشيخ أحمد البطين بامزاحم باجابر، فولدت له ابنه أبا بكر، أما ولداه الآخران فهما من زوجة أخرى.

❖ أبو بكر بن محمد:

ولد ونشأ في حورة بين أخواله آل باجابر ودرس على أبيه محمد بن سالم - مولى عرف - علوم الشريعة والطريقة، ثم سار إلى اليمن واجتمع بمشايخ كثيرين منهم: الشيخ محمد بن حسين البجلي، والشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، وله معهما الصحبة الأكيدة والأخوة الرشيدة، وذهب

إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج والزيارة، ثم لطلب العلم والاجتماع بالعلماء، وقيل إنه بقي يتردد بين الحرمين الشريفين للدراسة ما يقرب من أربع وثلاثين سنة حتى أخذ من جميع العلوم بالحظ الأوفى.

ولما عاد إلى وطنه مسقط رأسه حوْرَة وعكف على العبادة ونشر العلم والتدريس والتذكير بالله والدعوة إلى الله، وأقبل الناس على الاستفادة منه حتى تخرج على يديه وانتفع به خلق كثير، وكان إلى جانب نشاطه الديني والثقافي ذا بسطة في الجاه والمال استغلهما في الإحسان إلى الفقراء ومساعدة المحتاجين وإكرام الضعيف وصلة الأرحام، وقد اشترى الأطيان الواسعة والنخيل والبيوت، وحفر الآبار لينتفع بمائها الناس، وبنى مسجده المعروف الذي هو الآن جامع حورة، ثم تصدق بجميع ما يملكه من عقار وقفاً مؤبداً بعضه على مصالح المسجد والبعض الآخر للضيافة وإصلاح الآبار، فكان كل غريب ينزل بحورة يجد من وقف الشيخ أبي بكر نُزُلاً يؤويه وطعاماً يقدم إليه في وجبات محدودة، ولا تزال هذه الأوقاف موجودة حتى الآن، وإن كانت في حاجة إلى مزيد من الحفظ والعناية.

ولما كلمه أخواله آل باجابر في ذلك قائلين له: كيف تصدقت بجميع مالك؟ أتريد أن تترك ورثتك عالة على الناس، هلا تركت لهم ما يكفيهم، قال: تركت لهم نِشْر المال وفُخْذ النخل وقسمهم من العطب يكفيهم ستر العورة، وقال: هذا يكفيهم إذا اتقوا الله وصدقوا في معاملته.

وكان الشيخ أبو بكر يحتفظ بمكتبة كبيرة عامرة بالكتب في مختلف العلوم والفنون، وقد احتفظ بها وزاد عليها ابنه عبدالرحمن وأحفاده من بعده، وكان عبدالرحمن بن أبي بكر هذا قوي الذاكرة سريع الحفظ، فكان يحفظ المحرر للرافعي وكثيراً من كتب الحديث، وله مشاركة في علوم الأدب والتفسير والمنطق حتى قيل إن والده قال عنه: لو عاش عبدالرحمن طويلاً لكان مجدّداً للمذهب، فمات - رحمه الله - في حياة والده، وكانت

زوجته حاملاً فوضعت بعد وفاته ولداً ذكراً سماه والده عبدالرحمن بن عبدالرحمن، وهو والد صاحب الترجمة الذي عقدنا هذا الفصل لذكر جانب من سيرته وتاريخه.

❖ صاحب الترجمة:

هو عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سالم، ولد بحورة ولم أقف على تاريخ ولادته، ولكن من المؤكد أنه عاش في أول القرن التاسع الهجري وآخر القرن الثامن، فقد ثبت أنه لزم وصحب كثيراً من العلماء كلهم عاشوا في هذين القرنين.

بدأ دراسته الدينية واللغوية في حورة على والده وأعمامه، ثم رحل للاستزادة من العلم إلى اليمن والحرمين الشريفين، حيث لقي وأخذ عن جماعة كبيرة من مشاهير علماء اليمن والحجاز، كما أخذ عن عدد من أقطاب الثقافة الإسلامية في العالم العربي ممن يردون إلى الحجاز أثناء موسم الحج.

وتذكر الرسالة التي اعتمدت عليها في بعض معلومات هذه الترجمة من أساتذة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن في الحجاز الإمام عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني ثم المكي، والإمام المربي جمال الدين محمد بن سعيد كبن الطبري القرشي، والشيخ محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبدالوهاب، وأخاه عبدالواحد، وفقيه المدينة ومحدثها أبا بكر المراغي، وحافظ مكة الإمام محمد بن ظهيرة، كما تذكر منهم الشهاب ابن العربي، وتاج الدين السبكي، والجلال البلقيني، والجلال الإسنوي، وذلك في زمن الحج، وكذلك العلامة تقي الدين الحصني، شارح أبي شجاع، والشمس البرماوي، والإمام أحمد بن العماد، والشيخ الكازروني عالم المدينة وغير هؤلاء من العلماء الأعلام.

أما من أخذ عنهم من علماء اليمن فمنهم: شرف الدين بن الصيف

اليمني، وشرف الدين المقري صاحب عنوان الشرف، وجمال الدين الناشري، والعلامة مسعود بن سعد باشكيل وغيرهم.

وللشيخ عبدالله بن عبدالرحمن - صاحب الترجمة - رسالة جمع فيها مشايخه الذين أخذ عنهم وأسانيد إجازاتهم له المتصلة بالإمام الشافعي وتلميذيه المزني والربيع، كما جمع فيها أسانيد مشايخه في علم الحديث المتصلة برسول الله ﷺ.

وقد كانت رحلاته الكثيرة إلى الخارج لطلب العلم ولقاء العلماء وقراءاته العديدة في مختلف العلوم والفنون، وتوفر الكتب لديه في مكتبة أجداده بحورة كل ذلك كان من بين الأسباب لغزارة علمه وتوسيع أفقه الثقافي ومشاركته في علوم الشريعة والأدب والتاريخ واللغة والمنطق وغيرها، وقد ذكرت الرسالة التي أشرت إليها سابقاً مجموعة كبيرة من الكتب التي قرأها صاحب الترجمة في مقدمتها كتب الأئمة أبي إسحق والرافعي والنووي والغزالي والسهروردي في الفقه والتصوف، كما ذكرت طائفة أخرى من كتب التفسير والحديث لا حاجة لذكرها هنا.

ولما عاد إلى حورة من رحلاته العلمية تفرغ لنشر العلم والتذكير بالله والاتصال بعلماء القطر الحضرمي وصالحيه، وكانت له زيارات متعددة إلى تريم والشحر وغيل باوزير وغيرها من مدن البلاد الحضرمية وقراها، وكانت له صلة صهارة بالعلامة الكبير السيد عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف، فقد تزوج المحضار أخت صاحب الترجمة فاطمة بنت عبدالرحمن وعاش معها في تريم، كما كان صاحب الترجمة على صلة وثيقة بالعلامة الإمام عبدالله بن أبي بكر العيدروس، وكان كثير الإعجاب به والتقدير له، وله في مناقبه كتاب سماه «تحفة النفوس في مناقب العيدروس»، وقد أشار صاحب «المشرع الروي في مناقب السادة آل باعلوي» إلى هذه الصلة بين العيدروس والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن فقال ما نصه بالحرف

الواحد: وكان الإمام العارف بالله محمد بن علي صاحب عيديد وتاج العابدين سعد بن علي والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن باوزير مع الاتفاق على جلالة قدرهم وعلو منصبهم ممن لازم صحبته وأخذ عنه طريقته. انتهى.

أما السيد علي بن أبي بكر السكران فقد عدّه من بين مشايخه وذكر إجازته له سنة **٨٤٣**هـ.

وقد ذكر الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن في كتابه «تحفة النفوس» أن الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس قدم إلى حورة وهو أي العيدروس إذ ذاك صغير السن - لأن العيدروس ولد سنة **٨١١**هـ - فنزل ضيفاً عليه، وقال: إن السيد العيدروس قرأ عليه عدة كتب، وطلب منه عقد الصحبة والمواخاة على طريقة أهل التصوف من السلف فأجابه إلى ذلك.

ابنه عمر:

وقد توفي الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بعد حياة كريمة مليئة بالشرف والفضل وكرم الأخلاق ونشر العلم والإحسان إلى الناس والدعوة إلى الله، وترك عدة أولاد أشهرهم وأجلهم ابنه عمر بن عبدالله الذي سماه والده بهذا الاسم بإشارة من السيد عمر المحضار، ونحن ننقل هنا بتصرف من الترجمة التي أوردتها له الرسالة المشار إليها آنفاً ما يكفي في التعريف به، قالت:

ولد بحورة ونشأ بها وتعلم القرآن مع المعلم محمد باصادق، ثم حفظه وأتقنه على القراءات السبع تحت إرشاد والده وجماعة من الصلحاء والحفاظ، حتى كان يقال له المقرئ، ودرس علوم الشريعة على والده وأعمامه وغيرهم من كبار العلماء العارفين.

فقرأ على والده «المنهاج» للنَّووي، و«التنبيه» لأبي إسحق، و«العمدة» لابن النقيب، و«المحرر» للرافعي، وجملة رسائل في علم التصوف، كما

قرأ على والده أيضاً كتاب «الإحياء» للإمام حجة الإسلام الغزالي، و«عوارف المعارف» للسهروردي، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وقرأ «الإحياء» أيضاً على السيد عبدالرحمن بن أبي بكر العيدروس، وعلى السيد عمر المحضار «منهاج العابدين» للغزالي، و«المقصد الأسنى» في شرح أسماء الله الحسنى، و«كيمياء السعادة» للغزالي أيضاً، وعلى السيد أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف «بداية الهداية»، وقرأ «رسالة القشيري» على الشيخ فارس باقيس، وعلى السيد عبدالله بن أبي بكر العيدروس جملة رسائل في علوم الطريقة والحقيقة، وقد أجازه الجميع في العلوم والأذكار وأذنوا له بالتدريس والإفتاء، وكان كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث، وإن كان جل مطالعته في كتب التصوف والرقائق.

وكان الشيخ عمر من أكثر الناس احتمالاً وأشدهم صبراً وأحسنهم صفحاً وأوسعهم صدراً، إن قطع وصل، وإن ظلم عدل، وإن نصح فبالتي هي أحسن، وإن وعظ أبكى وأحزن، وقد ابتلي بكثير من الحساد فصبر على أذاهم، وفي ذلك يقول تلميذه العلامة الشاعر الصوفي الكبير الشيخ عمر بامخرمة في مطلع قصيدة مثبتة في ديوانه المخطوط:

باوزير إن جفى جافى ... وجا منه أجناف

إلى آخرها

وفي مطلع قصيدة أخرى:

باوزير إن رماك العوف ... بالجور واحنف

وفي هاتين القصيدتين يشير الشيخ عمر بامخرمة إلى ما لقي الشيخ عمر باوزير من عداوة الحساد وصبره عليهم، وقد عده الشيخ عمر بامخرمة من كبار مشايخه الذين اعتمد عليهم في الطريق إلى الله، وكانوا أربعة من المشهورين بالتقوى والولاية ذكر ثلاثة منهم في إحدى قصائده، وقال عن الرابع:

والـــــرابـــــع هـــــو قـــــال لـــــي لا تـــظـــهـــر اســـمـــي

يعني بذلك الشيخ عمر بن عبدالله باوزير.

وكان من أبرز أخلاقه الحميدة الكرم والسخاء، فكان يعطي الجزل ويداوم على البذل، وينفق في جميع أوجه البر وخصوصاً في الأوقات الفاضلة كرمضان والأعياد الدينية وأوقات المجاعة والإسنات، ويخص الفقراء والأيتام والأرامل والأرحام بمزيد من العناية، وربما وردت إليه أموال كثيرة فيأتي المساء وليس له منها العشاء.

روى خادمه أحمد بن صالح بازياد قال: جئت أنا ووالدي ذات يوم قاصدين الشيخ عمر في وقت مجاعة، والحبوب غير موجودة، فوجدنا بيته غاصاً بالضيوف والزوار وقلت لوالدي: الأولى أن نعود؛ فإن بيت الشيخ مزدحم - والوقت حان والطعام غير موجود - وبقيت أحسّن لوالدي الرجوع ونحن في أشد الفاقة، فإذا بسيدي عمر يدعونا للدخول ويقول: تعالوا احضروا مجلس المحبين، وماعليكم من باقي الأمور فهي صالحة، فدخلنا عليه وهو يتحدث مع أضيافه فرحاً مستبشراً، فقلت في نفسي: سبحان الله، الشيخ في مثل هذه الأوقات الحرجة يضحك وأنا عالم بحاله، فأنشدنا:

لا يرفع الضيف رأساً في منازلنا إلا إلى ضاحك منا ومبتسم

فقلت: زدني يا سيدي، فقال: أما سمعت قول الشاعر؟ قلت: وماذا قال؟ قال: سأكتب لك في قرطاس حتى لا يسمع أحد، فكتب:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ولم نلبث كثيراً حتى قدم الأكل وهو من البر والذرة والرز واللحم فأكلنا مع الأضياف حتى شبعوا وشبعنا، ثم قلت للشيخ: ليس المحل جديباً، ولكنه خصيب ووجهك أخصب منه، فقال: الحمد الله الذي تفضل

على عباده بالنعم وأراد منهم الشكر، ثم تكلم حتى بكى وأبكى. انتهى.

وكان الشيخ عمر ذا جاه واسع لدى كثير من قبائل الجهة الحضرمية، وكلمة نافذة عند عاهل حضرموت الكبير في القرن العاشر الهجري السلطان بدر أبي طويرق الكثيري، وقد حدث سنة **٩٣٧**هـ أن جملة فخائذ من بني هلال في مدينة هينن ومصنعتها المسماة «فرحة» يقال لهم آل النمر وآل فشر وآل باقار وآل العمري وغيرهم، ومن مذحج ونهد، كانوا ينهبون رعايا السلطان أبي طويرق ويتحرشون به فغزاهم أبو طويرق بجيش كبير قوامه ألف جندي من الخيالة والهجانة والرجالة، ودامت الحرب مدة انتهت بهزيمة أعداء السلطان وانكسارهم، فالتجأوا إلى الشيخ عمر بن عبدالله وطلبوا منه أن يتوسط لدى أبي طويرق في عقد معاهدة بينه وبينهم يعلنون فيها طاعتهم له على أن يبقيهم في محلاتهم ومنطقتهم.

واتصل الشيخ عمر بالسلطان فوافق على إعطائهم الأمان، ولكنه رأى أن بقاءهم مجتمعين في محل واحد خطر يهدد كيان السلطنة الكثيرية، وعرض على الشيخ عمر أن يقنعهم بوجوب التفرق من هينن إلى محلات أخرى فقبلوا، وتم الصلح على ذلك.

وأراد السلطان أبو طويرق أن يكافئ الشيخ عمر على صنيعه هذا ومجهوداته في هذا السبيل مكافأة مادية، فرفض وطلب من السلطان أن يأمر برفع جميع المعشرات الحكومية عنه وأن لا تؤخذ منه زكاة، بل يتولى توزيعها هو بنفسه، وأن تقبل شفاعته هو وأولاده في كل من يحبس في مصنعة هينن فأجابه السلطان إلى ذلك، وكتب له وثيقة بما طلب هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ أما بعد:

فليعلم الواقف على هذه الرقعة المحررة بأن سيدي ومولاي وملاذي وملجأي وعمادي الشيخ الأجل الفاضل الولي الكامل العالم العامل الشيخ عمر بن الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن الشيخ الكبير أبي بكر بن محمد بن سالم باوزير مجللاً ومكرماً ومحشماً ومعظماً ومجبراً في جميع أملاكنا بحراً وبراً هو وأولاده وذريته من يومنا هذا إلى يوم الدين، ليس عليهم عشر ولا زكاة ولا شيء من القوانين التي للديوان في طالع ونازل من البحر والبر، ولا يفرق عليهم الفارق ولا يحرسهم الحارس ولا يطوف عليهم الطائف، بل مجبّرين في جميع أملاكنا بحراً وبراً من كل ما هو للديوان من القوانين والقواعد المعتادة، وكذلك لهم الشفع في كل من حبس في مصنعة هينن شفاعتهم غير مردودة، ومن تعدى أو خالف جميع ما ذكر فلا يلوم إلا نفسه، ولا ينال إلا خسره وبخسه، قال ذلك وأملاه وأقر به الفقير إلى الله.».

بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري

والله الشاهد على ما أقول والحسيب. وكتبه بيده.

وفي هذه الوثيقة توقيعات سبعة من الشهود هم: عمر بن عبدالله بامخرمة، وعبدالصمد باكثير، وأحمد بن عبدالله باكثير، وأحمد بن سهل بن إسحق، ومحسون بن عامر بن إسحق، وعبدالله بن أحمد باجسي، وأحمد بن ليث باجابر.

وللشيخ عمر شعر شيق يكتبه باللغة الدارجة القريبة من الفصحى، منه هذه الأبيات من قصيدة طويلة قالها بمناسبة تجمّع والي المخينيق علي بن ظفر وأهل السور والمقاريم والظلفان لمعارضته في عمارة ضمير[١] حورة، وقد انتصر للشيخ عمر أتباعه من نهد، ونشبت معركة حربية بين الفريقين

---

(١) الضمير في عرف أهل حضرموت السد، يقام في مجرى السيل للتحكم فيه وتحويل الماء إلى الأرض التي يراد سقيها.

انتصر فيها أتباع الشيخ عمر وفي ذلك يقول:

ويوم قمنا في الوادي جاروا علينا في الطغيان
أهل المخينيق وأهل السور بالنهب والسلب باللصان
وخوفوا من سكن حوره جميعهم وأرضوا الشيطان
العدن من بطلهم شارب ونخل حوره بقى عطشان
علي بن ظفر قام وأصحابه رماهم الله بالخذلان

إلى أن قال:

وأولاد عامر معي قاموا بصدق نيه بنو قحطان
ثابت ومسعر وبن مسعر وبن مزعزع أبو الحكمان
وآل الطويل الذي طالوا هم وآل عبدالله الغلمان
وأصحابهم آل بن مدرك والرأس ثابت أبو روضان
وآل عجاج قد سعدوا صبيانهم هم ويا الشبان
قاموا معي صدق بالنيه جميعهم بالهنا فرحان

❖ مؤسس غيل باوزير:

عرضنا فيما سبق لجانب من تاريخ بعض أحفاد الشيخ أبي بكر بن محمد سكان حورة، ونريد أن نذكر في ختام هذا الفصل التاريخي عن آل باوزير موجزاً عن تاريخ أخويه سعيد بن محمد وعمر بن محمد وأبنائهما.

توفي الشيخ سعيد بن محمد بحورة عن سبعة أبناء أشهرهم: محمد بن سعيد جد أهل النقعة الساحلية وقبره في غيل باوزير، وله ولد يدعى أحمد بن محمد وهو أول من قبر بالنقعة، وانتشرت ذريته بها، ولهم فيها صدقات وأوقاف للضيافة ومصالح المسجد الجامع الذي بني على طريقة غريبة لم يحتج معها إلى الاستعانة بالأخشاب في سقفه، وتوجد لديهم مخطوطات قديمة بعضها لا يزال موجوداً حتى الآن.

ومن أشهر أحفاد الشيخ سعيد بن محمد - مولى عرف - العلامة المحسن الكبير الشيخ عبدالرحيم بن عبدالله بن سعيد صاحب ساه، ومؤسس المسجد الجامع بها، وصاحب الصدقات وأوقاف الضيافة العامة في هذه المنطقة، وله ذرية بساه يقال لهم آل الشيخ.

أما عمر بن محمد فهو الذي بنى الغيل الأسفل سنة **٦٥٦هـ**، والتي تعرف الآن بغيل عمر ومؤسس المسجد فيها، وقد لزم وصحب الأستاذ الكبير عبدالله باعلوي ابن الفقيه المقدم، ويعتبر من أخص مشايخه، وكانت وفاته بالغيل الأسفل سنة **٧١٣هـ**، وهو والد العلامة الإمام الفقيه الشيخ عبدالرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير المشهورة، والذي كان من أبنائه وأحفاده جماعة كبيرة عرفت بالعلم والفضل والصلاح.

وتقول المصادر التي بين أيدينا: إن الشيخ عبدالرحيم بن عمر قدم إلى الساحل سنة **٧٠٦هـ** باحثاً عن المنطقة الصالحة للإقامة له ولعقبه من بعده، فوقع اختياره على البقعة التي تدعى الآن بغيل باوزير، وقد بنى بها أول منزل لسكناه غربي مسجده الجامع المشهور، ثم حفر في الناحية الشمالية للمسجد غير بعيد منه أشهر العيون بها، والتي كانت ولا تزال تروي مساحات واسعة من النخيل والأراضي المزروعة جنوب مدينة الغيل، وتجمعت لديه ثروة مكنته من أن يشتري عقارات وأطياناً واسعة في الخربة والبقرين وغيرها من ضواحي المكلا تصدق بها جميعاً مع أكثر ما يملك في الغيل كوقف دائم تصرف غلته في مصالح المسجد والضيافة وتوزع منه في مناسبات دينية وأعياد خاصة صدقات على الطريقة التي اشترطها هو، وقد أضاف أبناؤه من بعده أوقافاً إلى هذا الوقف حتى أصبح الآن يقدر محصوله بما لا يقل عن خمسة عشر ألف شلن سنوياً.

ولم يكن نشاطه في الناحية الثقافية بأقل من نشاطه في جانب الاقتصاد، فقد بنى مدرسة لأبنائه وأحفاده وغيرهم من طلاب العلم،

واستقدم لها المدرسين الأكفاء، وأرسل أبناءه للاستزادة من العلم، فرحلوا إلى اليمن والحجاز للقاء العلماء والأخذ عنهم حتى عرف كثير من أبنائه وأحفاده بسعة العلم وكثرة الاطلاع وحب الخير والتفاني في منفعة الناس، كما كانوا ألسِنَةَ الدعوة والإرشاد في مناطق الساحل، ورسل السلام والإصلاح بين القبائل، ومثال الكرم وسماحة النفس إذا نزل بهم طارق أو زائر.

والواقع أن كرم الضيافة وحسن استقبال الغرباء من أشهر الصفات الخلقية الفاضلة التي امتاز بها أفراد هذه الأسرة في ساحل حضرموت وداخلها، فقد أَعدُّوا في أكثر المدن والقرى التي يقيمون بها بيوتاً للضيافة يطعم فيها المسافر أياماً معلومة وضمنوا استمرارها بأوقاف تصدقوا بها لهذا الغرض، نذكر منها على سبيل المثال بيوت الضيافة في غيل باوزير والنقعة وريدة الجوهيين ورحبة ابن جنيد وفي وادي عِدِم وساه وحورة ووادي العين وجعيمة وعرف وغيرها.

وانقضت أربعون عاماً منذ وضع الشيخ عبدالرحيم بن عمر حجر الأساس لهذه المدينة، كان فيها القانت العابد إذا جنّ الظلام، والعالم العامل إذا ارتفع النهار، لا يطغى فيها المسجد على المزرعة فيخل بشؤون دنياه، ولا تشغله المزرعة عن المسجد فتفسد عليه أمور دينه، وكان له فيما بين المزرعة والمسجد متسع من الوقت للإشراف على المدرسة ونشر العلم والتدريس بين العامة واستقبال ضيوفه الذين لا ينقطعون، والإصلاح بين القبائل، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الاجتماعي التي كان من بينها الدعاية لاستيطان هذه المنطقة والإفراج عن المياه المخزونة في أرضها بحفر العيون والقنوات لاستخدامها في زراعة تربتها الخصبة، وقد دفع لهذا الغرض ابن عمه محمد بن سعيد فحفر هو وأبناؤه عيون النقعة ووديكة وغيرها حتى صارت هذه المنطقة مروجاً خضراء وجناناً عامرة بالنخيل والمزارع.

وهكذا كان للشيخ عبدالرحيم بن عمر في الإرشاد لسان، وفي العلم باع، وفي الاقتصاد يدٌ، وفي العبادة قدم حتى وافاه أجله في منتصف شعبان سنة ٧٤٧هـ، ودفن خارج مسجده بجانب الجدار الشرقي - داخل المسجد الآن - وترك من الأولاد ثلاثة هم: سعيد وعثمان وأحمد ينتمي إليهم كل أفراد آل باوزير السكان في الغيل.

❖ عبدالرحيم صاحب الطرائق:

للشيخ سعيد بن عبدالرحيم ولدان هما: عمر بن سعيد، وهو جد آل بن طاهر الموجودين الآن في الغيل، وعبدالرحيم بن سعيد، ولم يترك عقباً ذكراً، وهو أحد مشاهير رجال التصوّف في القرن الثامن، وله صلة وثيقة بالعلامة السيد عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف ترجمه الشرجي في «طبقاته» فقال:

«الشيخ الكبير عبدالرحيم بن سعيد بن عبدالرحيم بن عمر بن محمد بن سالم باوزير، كان أفضل المشايخ المتأخرين وأكملهم تربية للمريدين، وله في طريق القوم معرفة تامة وكلام مشهور منه قوله: القدرة حاملة للكون والكون بما فيه مسخّر للقدرة والأمر بينهما منتظم، وقال في وصف القوم: إن رأيتَ مكنون سعدهم فيحبهم ويحبونه، وإن رأيت منشور مجدهم فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وإن سألت عن مقامهم فعند مليك مقتدر، وإن أردت وصفهم فأولئك أعظم درجة عند الله، وإن أكبرت ما ظهر منهم فما تخفى صدورهم أكبر.

وتوفي ليلة الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٨٢٧هـ، ودفن شرقي قبر جدّه، وله من التصانيف والطرائق يمليها على سبيل الوارد».

وكتاب الطرائق هذا أثر تاريخي يعطينا صورة صحيحة عن مدى ثقافة مؤلفه ومناحي تفكيره ومبلغ تمكنه من اللغة واقتداره على الكتابة، وهي رسالة صغيرة تتألف من سبعة وعشرين فصلاً، يسمى كل فصل منها طريقة

تتحدث في أسلوب صوفي ومصطلحات صوفية عن طريق القوم في الاتصال بالله عز شأنه وإخلاص العبودية له والفناء عن كل ما سواه.

خذ مثلاً افتتاحية الطريقة السابعة عشرة التي يقول فيها:

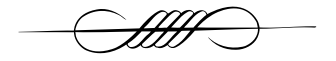
«الحمدلله الذي ألبس قلوب أوليائه لباس التقوى فتشوقت واستبشرت، وجلا قلوبهم من صدى الغفلة بذكره فانصقلت وتنوّرت، وحجب أسرارهم عن مشاهدة غيره فما حادت ولا تغيّرت، وكشف لبصائرهم عن نور توحيده فطاشت وذهلت واستغرقت وتحيّرت، فأرسل لها في طيّ نسيم القرب أسراراً فاستنشقتها بأنف ذوقها فحنّت للقائه ولعهده القديم تذكرت».

وهذا مثال آخر من الطريقة الثانية:

«يا أرباب الوله في حب معشوق الأرواح، ويا أصحاب الخوف في غاية أمان العارفين، ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع الصور، وما يحجبكم عنه إلا حجاب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوه عند الحياة الأبدية، وموتوا عن شهوات إرادتكم ليحييكم به عنده في مقعد صدق».

ومنها:

«البراءة من الحول والقُوَّة إلا به حقيقة التوحيد ومَحْوُ كُلٍّ ما يلوح لعين العقل محض التفريد، وإلقاء ما في الوجود من يد الطمع عين التجريد، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».



«٩»

محمد بن سعيد بادجانة

إمارة الشحر - الأمير سعيد بادجانة - محمد بن سعيد - محاولة احتلال عدن - استيلاء آل طاهر على الشحر - بادجانة يعود إلى الشحر - وفاة الأمير محمد

❖ إمارة الشحر:

تعاقبت على الشحر في تاريخها الإسلامي حكومات متعددة تستقل بالأمر فيها تارة وتخضع لملوك اليمن فيها تارة أخرى، وقد تكون الشحر أحياناً هي عاصمة الإمارة، بينما تكون أحياناً أخرى تابعة لإمارة تتخذ من مدن حضرموت الأخرى عاصمة لها، وقد عرفنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن سالم بن إدريس الحبوظي كيف كانت هذه المدينة التاريخية والمنفذ البحري المهم ميداناً لصراع الطامحين من ملوك اليمن وظفار وحضرموت.

وقد كانت الشحر تطلق في القديم على المنطقة الساحلية الواقعة ما بين عُمان وساحل حضرموت جميعها، ويطلق على ساحل حضرموت خاصة «الأسعاء».

أما الشحر بمعنى المدينة المعروفة اليوم فلا يعرف بالضبط تاريخ تأسيسها، ولكن المنقول أن ملك اليمن من بني رسول في القرن السابع الهجري وهو الملك المظفر، جدد بناءها سنة ٦٧٠هـ، وكانت قبل ذلك «أخصاصاً» أي أكواخاً وبيوتاً حقيرة.

وقد كان يحكم الشحر في عهد الملك المظفر الأمير أبو محمد عبدالرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس بن محفوظ بن محرم بن فارس، قال عنه الجندي: كان أحد ملوك العرب دهاء وكرماً وشجاعة، يحب الفضلاء ويخالط العلماء، ما قصده شاعر أو غيره إلا أكرمه، وشاعره المنقطع لمدحه أبو حنيف العدني.

تولى إمارة الشحر سنة **٦٢١**هـ، وكان يؤدي الخراج لملك اليمن، ولما استولى نور الدين الرسولي على الشحر وحضرموت أناب على الشحر رجلاً من الغز، وأضاف إليه نقيباً يُدعى الأصبحي، واستدعى إليه الأمير عبدالرحمن بن راشد، فقدم عليه بهدايا قدمها إليه.

ثم إن النقيب الأصبحي قتل الوالي الغزي واستقل بحكم الشحر بعد سنتين من وصولهما، فندم الرسولي على عزله عبدالرحمن بن راشد واستدعاه وخلع عليه وأمره أن يسير إلى الشحر، فلما علم الأصبحي بوصوله هرب إلى مقدشوه، ودخلها الأمير عبدالرحمن سنة **٦٣٨**هـ فأحسن إدارتها.

ولما تولى المنصور نور الدين الرسولي قدم إلى خلفه المظفر بهدايا جليلة، من بينها قطعة كبيرة من العنبر، فكافأه الملك المظفر مكافأة حسنة وأمّره على عمله ورده إلى الشحر، وقد بقي حاكماً عليها مرضياً عنه إلى أن أدركته الوفاة سنة **٦٦٤**هـ ودفن بالشحر، وقد خلفه في الإمارة ابن أخ له يُدعى راشداً، فلبث حاكماً بها حتى نقم عليه المظفر أشياء، فاعتقله سنة **٦٧٠**هـ، وأودعه سجن زبيد حتى مات، وقرر له رزقاً معلوماً يقوم به وبأهله مدة حياته.

وهكذا كانت الشحر تخضع لحكام اليمن بواسطة أمرائها من الحضارم أو بغيرهم من النواب يعينون من قبل الحاكم في اليمن، وكان حكام اليمن في هذا العهد هم بنو رسول الذين امتد حكمهم فيها من سنة **٦٢٠**هـ إلى

سنة ٨٥٨هـ حيث تلاشى أمرهم وقام بالأمر بعدهم المشايخ آل طاهر بن معوضة بن تاج الدين من بلاد رداع، واستولوا على عدن وتهامة وبلاد تعز في سنة ٨٥٨هـ، وكان أول حاكم منهم هو الملك الظافر عامر بن طاهر، أما آخر ملوكهم فهو عامر بن داود الذي حكم إلى سنة ٩٤٥هـ.

❖ الأمير سعيد بادجانة:

الأمير سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي، كان يحكم الشحر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وكان حازماً يقظاً حليماً مهاباً من جميع الناس، وقد اهتم عقب توليه الشحر بتحسين حالتها الاقتصادية، فبعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها إلى القدوم بقوافلها إلى الشحر لينافس بذلك الأسواق الحضرمية الأخرى.

واستطاع الأمير سعيد أن يوطد لحكمه في الشحر بما كان يقوم به من أعمال مجيدة أطلقت الألسنة بالثناء عليه، فقد سار في الناس بالعدل وساسهم بالحكمة والحزم حتى أدركته المنية، فخلفه في الحكم ابنه محمد بن سعيد.

❖ محمد بن سعيد:

نشأ الأمير محمد بن سعيد كما ينشأ أبناء الأمراء شاعراً بشرف أصله وطيب أرومته، وارثاً من أبيه صفات الكرم والشجاعة والتيقظ وبُعْد النظر والعدل وحب الخير، وكانت أمه إحدى سيدات آل معاشر، معروفة بالذكاء ورجاحة العقل وحسن السياسة.

وبذل الأمير محمد كل مجهود لتحصين البلاد ضد الطوارئ المحتملة وتحسين حالتها التجارية وتوطيد علاقاته بالقبائل المجاورة، آخذاً حذره من تسرب الدعاية المعادية إليهم، فنجح في ذلك إلى حد بعيد، واشترى كثيراً من المراكب الشراعية لتنشيط الحركة التجارية بين الشحر وغيرها من البلدان التي لها سوابق صلات تجارية بالشحر، وقد ساعدته الثروة التي

تركها له والده على القيام بكثير من الإصلاحات، وشجعته على التفكير في توسيع مملكته الصغيرة الضيقة الحدود، وكانت دولة آل رسول القوية العظيمة الشأن في اليمن وحضرموت قد اختفت من الميدان وحلت محلها دولة آل طاهر التي لا تزال في بداية عهدها لم يستفحل أمرها بعد.

❖ محاولة احتلال عدن:

كان آل طاهر قد احتلوا عدن - كما سبق - في بداية النصف الثاني من القرن التاسع الهجري كما احتلوا تهامة اليمن وبلاد تعز، وكانت أحوال عدن خاصة في بداية حكمهم من الاضطراب والاختلال بحيث تشجع أولي المطامح في الاستيلاء عليها، أضف إلى ذلك أن جماعة من آل كلد اليافعيين قدموا إلى الشحر إثر الخصومة والحرب التي حدثت بينهم وبين إخوانهم من آل أحمد في عدن بسبب التنافس بينهم على النفوذ فيها، وشجعوا الأمير بادجانة على احتلالها وتعهدوا له بالمساعدة بكل ما في استطاعتهم.

ورأى الأمير بادجانة أن الفرصة قد سنحت لتحقيق أحلامه، فجمع قوما خَليطا مِّن قومه ومن يافع والحموم والمهرة وسافر بهم في تسعة مراكب شراعية متجها إِلى عدن، وكانت أمه قد عارضته في هذه الفكرة ونصحته بأن يعدل عن إعداد هذه الحملة لأنها كانت مرتابة في نجاح الخطة التي اعتبرتها مغامرة، فلم يلتفت لكلامها ولم يأبه لنصيحتها.

وعلم أمير عدن من قبل آل طاهر بنبأ هذه الحملة، فكتب إلى السلطان عامر بن طاهر - وكان باليمن - يطلب منه المدد، فقَدِم السلطان عامر بنفسه على رأس جيشه متأهباً للقاء الأمير بادجانة الذي منته نفسه بالهجوم على عدن، وكان هذا لا يزال في سفنه البحرية لم يبدأ هجومه بعد.

وحدث خلاف بين الأمير بادجانة وبين رؤساء جيشه، فقد كان رأي هؤلاء التراجع بمراكبهم والتظاهر بالتقهقر والعودة، حتى إذا اطمأنت حامية عدن وأمنت الهجوم عادوا فأنزلوا جنودهم إلى البر على حين غرة وتقدموا

لتنفيذ خطتهم فيكون ذلك أضمن لنجاح الحملة، ولكن الأمير أبى إلا الإسراع بالهجوم.

وبينما هم في أخذ ورد هبت عاصفة شديدة لم يتمكن الجيش المهاجم معها من التحكم في سفنه، فغرقت بعض السفن ومن بينها السفينة التي تحمل الأمير فنجا بنفسه إلى الساحل حيث ألقى القبض عليه جنود السلطان عامر بن طاهر وأخذوه أسيراً هو ومن معه سنة **٨٦٢**هـ.

وسرعان ما بلغ نبأ هذا الحادث إلى الشحر، فجمعت أمه أعيان الشحر واستشارتهم في أمر ابنها، فترددوا وخافوا من سطوة آل طاهر، فحزمت أمتعتها وسافرت إلى عدن حيث اجتمعت بالسلطان عامر وكلمته بشأن ابنها ليطلق سراحه، فتردد في أول الأمر ثم خضع لتأثير المرأة فأجاب طلبها وأطلق سراحه، فتجهز الأمير بادجانة عائداً مع أمه إلى الشحر.

استيلاء آل طاهر على الشحر:

تركت محاولة الأمير بادجانة الاستيلاء على عدن أثراً سيئاً في نفس السلطان عامر بن طاهر، وكان رد الفعل لتلك المغامرة الفاشلة أن أخذ السلطان عامر يعد العدة لاحتلال الشحر وطرد الأمير بادجانة منها، فجمع عسكراً كثيراً جهزهم من عدن بواسطة البحر سنة **٨٦٥**هـ، فهاجموا الشحر واستولوا عليها بعدما فر منها الأمير إلى حيريج من بلاد المهرة.

وتقول رواية أخرى: إن الأمير بادجانة ظل أسيراً لدى السلطان عامر بن طاهر عامين كاملين في عدن حتى سلمت أمه الشحر فأطلقوه لها ولم تطل مدته بعد إطلاقه، ومهما اختلفت الروايتان فإنه ليس هناك خلاف في أن السلطان بدر بن محمد بن عبدالله الكثيري لما علم باستيلاء آل طاهر على الشحر طفق يتصل بالسلطان عامر كتابياً ويظهر له التودد حتى وثق منه، وكتب له عهدا عَلى الشحر سنة **٨٦٧**هـ، فقدم السلطان بدر بن محمد

إلى الشحر ودخلها مستخلفاً عليها من قبل دولة آل طاهر، وكان ذلك أول حكم آل كثير للشحر.

❖ بادجانة يعود إلى الشحر:

وتقول بعض الروايات: إن الأمير بادجانة ظل قابعاً في قريته الصغيرة «حيريج» بساحل المهرة يتحين الفرص لاسترداد الشحر من آل كثير حتى تجمعت لديه قوة كافية فهجم بها على الشحر براً وبحراً سنة **٨٨٣**هـ واحتلها بعد أن انسل منها السلطان بدر الكثيري إلى حضرموت حيث عاد إلى شبام مركز السلطنة الكثيرية في ذلك العهد.

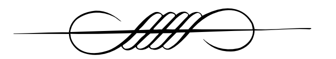
وإذا صح ما تقوله الرواية السابقة من أن الأمير محمد بن سعيد لم تطل به حياة بعد إطلاق سراحه فإن الذي استرد الشحر من آل كثير قد يكون أحد أفراد العائلة من أمراء آل بادجانة.

وقد استمر حكم الشحر في أيدي الأمراء من آل بادجانة إلى مستهل القرن العاشر الهجري، وقد كانت المدينة أثناء هذه المدة عرضة للغزو الكثيري، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولم تكن مؤهلات القائمين بالأمر بعد وفاة الأمير محمد بن سعيد كما ينبغي، فلم يستطيعوا القيام بأعباء السلطنة، فثارت القبائل وقطعت الطرق وفقد الأمن وساءت حالة البلاد واشتد استياء الأهالي، وكانت النهاية استيلاء السلطان جعفر بن عبدالله بن علي الكثيري عليها سنة ٩٠١هـ، وضمها إلى السلطنة الكثيرية نهائياً.

❖ وفاة الأمير محمد:

لا نعرف بالضبط تاريخ وفاة الأمير محمد بن سعيد بادجانة، فقد رأينا كيف اختلفت الروايات في أمر عودته من عدن، في حين قالت رواية: إنه لم تطل مدته بعد إطلاق سراحه، وقد زعمت إحدى الروايات أنه مات متأثراً بالسم الذي دسه له أحد أعوان آل طاهر ملوك عدن، وقد أبدت أمه

من الثبات ورباطة الجأش ما أدهش الناس، فقد برزت للناس تخبرهم بوفاة ابنها والدموع تتحدر من عينيها، وهي محتفظة بهدوئها متجلدة للمصيبة، مظهرة الرضا بقضاء الله.



«١٠»

أبو طويرق
بدر بن عبدالله الكثيري

رجل الوحدة الحضرمية - أعماله الإدارية والحربية - عهده - بدر والبرتغال - بدر وعاهل الترك - سلسلة اضطرابات قبائل الحموم - نهد - عمد دوعن وسيبان ثورة المهرة - عبيد يماني - أمراء من آل كثير - أبو طويرق في المعتقل

❖ رجل الوحدة الحضرمية:

أبرز شخصيات آل كثير أبو طويرق بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري، وهو ينحدر من سلالة السلطان الكثيري الأول علي بن عمر بن جعفر مؤسس السلطنة الكثيرية في أوائل القرن التاسع الهجري وجَدّ سلاطينها أجمعين.

ولد سنة **٩٠٢هـ** وظهرت عليه بوادر الذكاء والفطنة منذ صباه، ولم يبلغ سن الرشد حتى نضجت مواهبه وظهر نبوغه، فتولى السلطنة وتصدى للحكم قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وعرف منذ صغره بالإقدام والشجاعة والاعتماد على النفس والتطلع إلى المجد.

وقد كان جده الأمير جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر معروفاً بالرأي الثاقب والاستقامة، وقد ضمه يوماً في حوطة سلطانة مجلس مع الشيخ عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف، فاقترح هذا عليه أن يكون سلطاناً في

بلدة بور المستعصية، وأكد له أن واليها قد تعب من ولايتها وأنه يستطيع أن يقنع واليها بالتنازل عن الولاية لجعفر، وكان الأمر كذلك، فقد ذهب الأمير جعفر إلى بور وتولاها صفواً عفواً، ولم يزل بها سلطاناً حتى تآمر عليه الظلفان فقتلوه سنة ٩٠٥هـ.

وتوفي والده عبدالله بن جعفر سنة ٩١٠هـ وأبو طويرق في سن السابعة، فتولى السلطنة أخوه الأكبر محمد بن عبدالله الذي حدثت بينه وبين أخيه أبي طويرق فتن ومشاغبات فيما بعد نتيجة التنافس على الحكم، وقد قيل في سبب تسميته بأبي طويرق إنه دُعي بهذه الكنية؛ لأنه طرق أراضي حضرموت من ذمار إلى ظفار.

ويعتبر أبو طويرق بحق السلطان الأول الذي عمل لتوحيد مناطق حضرموت إلى أقصى حدودها تحت سلطته ونجح في ذلك إلى حد بعيد، فقد كان يرى ضرورة القضاء على السلطات المتفرقة التي سببت من الفوضى ما كان أقل نتائجها فَقْد الأمن وخراب العمران وسوء الحالة العامة، ولذلك فهو يعتقد أن لا سلامة للبلاد إلا في أن تنضوي تحت لواء واحد وسلطة واحدة، وكان يحلم بأن يكون هو صاحبها والساهر على حمايتها.

ولم تلبث هذه الأفكار أن تحولت إلى عقيدة راسخة في دماغه، فهب بكل ما أوتي من قوة في عزيمة الجبابرة وإقدام الطامحين ينفذ برنامجه الضخم بكل وسيلة ويعمل لتحقيق أهدافه في غير كلل ولا ملل.

كان يعلم أن التفكير في وحدة سياسية كبرى تخضع لها جميع البلاد الحضرمية أمر من الصعوبة بمكان، فالأمراء من آل كثير لهم طموحهم إلى السيطرة وتطلعهم إلى النفوذ والاستغلال، وهم في سبيل ذلك مستعدون للثورة وإراقة الدماء والتضحية بأمن البلاد ووحدتها الكبرى، وكل قبيلة مسلحة تتحين كل فرصة لإعلان عصيانها وفصم كل عروة تربطها بأية سلطة

عليا في البلاد، وليست هناك وسيلة لإخضاع تلك الرؤوس المتطلعة إلى الفتنة الساعية في تجزئة البلاد غير الالتجاء إلى القوة التي تعتمد على عناصر من الخارج.

لذلك عمل أبو طويرق على أن يكون أكثر جيشه مؤلفاً من عناصر غير حضرمية، فكوّنه من الأتراك ومن يافع والموالي الإفريقيين وقبائل اليمن من الزيود وغيرهم لكي يطمئن إلى ولائهم ويضمن عدم ثورتهم وانتقاضهم، وقد وصلت إليه أول قوة تركية وهو بالشحر تحت قيادة تركي كبير يُدعى رجب في شهر جمادى الآخرة سنة **٩٢٦**هـ.

وقد كان لهذا التدبير من أبي طويرق الداهية أثره الفعال في استتباب الأمن والقضاء على دابر المشاغبين، فقد عمّ الرعب الأهالي ولم يكن لهم حديث إلا رجب التركي صاحب الشوارب الطويلة ورجاله - شاربين المسكرة - وزاد في رعب الأهالي ما يحمله جيش الأتراك من الاختراع الغريب في تلك الأيام وهو البندق أبو فتيلة الذي كان لظهوره رجة كبرى كالتي أحدثها ظهور القنابل الذرية في هذه الأيام، وكان الحضارم يسمون الأتراك الروم، ومن أجل ذلك سموا هذه البنادق «بنادق الروم».

وقد امتد سلطان أبي طويرق من العوالق غرباً إلى سيحوت شرقاً، ومن السواحل الجنوبية جنوباً إلى رمال الأحقاف شمالاً، وقد أذعن له بنو عبدالواحد والعوالق وأقروا له بالطاعة، أما بلاد المهرة فقد استولى منها على قشن وبنى بها حصناً وجعل عليها نائباً من قبله، وكان المهرة يظهرون له الطاعة ويرسلون إليه الهدايا.

وقد وصفه بعض المؤرخين فقال: إنه كان شجاعاً مقداماً، حسن الأخلاق، جواداً كثير الإنفاق، وكان محظوظاً جداً لا يقصد باباً مغلقاً إلا انفتح، ولا يقدم على أمر إلا اتضح، وقال عنه بعض الفضلاء: كان بدراً منيراً أينما طلع سطع، وغيثاً غزيراً كيفما وقع نفع.

❖ أعماله الإدارية والحربية:

بدأ عقب توليه السلطنة بعزل الوزير مطران بن منصور سنة **٩٢٢**هـ لشيء كان ينقمه عليه، ثم قبض عليه وزجه في السجن وصادر أمواله ثم أطلقه سراً، وولى الوزارة بعده عطيف بن علي بن دحدح، وفي رجب سنة **٩٢٨**هـ أعيد مطران وعزل عطيف.

ثم اتصل بضباط من الأتراك واتفق معهم على تجنيد جيش من الترك يخضع به حضرموت عندما رأى الروح العسكرية بين جنده خامدة، وأدرك أن الثقة بينه وبين غيره من أولي الشأن في حضرموت غير متوفرة، وأن القوة التي لديه غير كافية لحل المشاكل المحيطة به، وقد وصلت إليه أول قوة تركية سنة **٩٢٦**هـ كما سبق.

وفي سنة **٩٣٧**هـ أمر أن تضرب باسمه نقود فضية من فئة الريال وفئة النصف والربع، ونقود نحاسية صغيرة وكبيرة، وفي سنة **٩٤٢**هـ ضرب أيضاً عملة تسمى «بُقشة».

وقد كان للناحية العلمية نصيب كبير من اهتمامه، فقد بث الدعاة والمعلمين في البلاد وأجرى رواتب لرجال العلم وأرباب التعليم، وأسس بالشحر مدرسة جليلة سارت بفضلها الركبان، قصدها طلاب المعرفة من كل صوب، واختار لها من الأساتذة والنظار من يشار إليهم بالبنان علماً وفضلاً، وبذل مجهوداً كبيراً لإقناع العلامة نور الدين علي بايزيد بتولي إدارة هذه المدرسة والتدريس والإفتاء بها، وجعل عليها وقفاً يقوم بما تتطلبه المدرسة من نفقات.

وقد كان السلطان بدر حريصاً على تأمين حدود بلاده من الشرق والغرب حريصا عَلى فرض سلطته عليها وإخضاع القبائل المحيطة بها. ففي سنة **٩٤٨**هـ عمل التدابير لتحصين رخية وشبوة على الحدود الغربية وتأمين ما بينهما من مياه وسبل، وله في الاحتفاظ بشبوة حوادث ذات شأن،

وكانت صلاته بقبائل الجوف حسنة، وربما استخدمهم في بعض أغراضه وسلطهم لمشاغبة بعض القبائل الحضرمية المناوئة له، وقد استعان به ابن عبدالواحد أمير حبان، فجاءه وأبو طويرق في شبوة يستنجد به على ابن ثاقب صاحب يشبم، فتوجه معه ونهبها وأحرق فيها ثم عاد إلى شبوة. أما على الحدود الشرقية فقد قام بعدة حملات لإخضاع المهرة في الشرق والاستيلاء على بلادهم.

أما أولى أعماله الحربية فقد كانت الاستيلاء على شبام، فقد قصدها لانتزاعها من آل محمد الذين استقلوا بالسلطة فيها، فكتب إليهم ينذرهم وينصحهم بالتسليم فرفضوا ولم تستمر مقاومتهم أكثر من ليلة واحدة دخل أبو طويرق على أثرها إلى شبام منتصراً.

وفي ذي الحجة من سنة **٩٢٧**هـ اتجه إلى تريم فحصرها نحو عشرين يوماً، وكان بها محمد بن أحمد بن جردان وآل يماني وآل عمر، ثم رماها بعلوق الروم فاستسلموا وسلموا البلاد، وأجلى آل يماني وأبقى عبيدهم المعروفين الآن بعبيد يماني، وذلك أول دولة آل جعفر الكثيريين بتريم.

وأذعنت هينن لأبي طويرق في ذي الحجة من سنة **٩٢٧**هـ بعد حصار دام أشهراً، ثم طفق يزحف بجيوشه على جميع حضرموت حتى خضعت له خضوعاً تاماً وتنازل له أخوه الأكبر محمد عن الولاية، وكتب بخط يده إلى خطيب الشحر الشيخ أحمد بن محمد السبتي أن يسقط اسمه من خطبة الجمعة ويخطب لأخيه بدر، وكان ذلك في سنة **٩٢٧**هـ.

ثم أخذ السلطان بدر ينشئ المحاكم القضائية وينظم شؤون الإدارة ويدير ملكه بحزم وعزم رغم ما كان يقاسيه من الأتعاب في مداراة عشيرته وبني عمه الذين دفعهم الحسد له إلى أن يقعوا فيه بما لا يرضي من القول، ويكيدون له من المكايد ما لا يستطيع أخذهم بها ومحاكمتهم عليها.

❖ **عهده:**

كان القرن العاشر الذي عاش فيه أبو طويرق من أحفل العصور التاريخية في حضرموت بالعلماء والأدباء، فقد ضمت هذه المائة العاشرة جمهرة من رجال الدين والتصوف وكبار العلماء بالشريعة واللغة والشعر، أمثال الفقيه اللغوي العلامة محمد بن عمر بحرق، والشيخ الفقيه الكبير والشاعر الأديب عبدالله بن عمر بامخرمة، ووالده الصوفي الشاعر والشيخ أبي بكر العيدروس الصوفي المشهور، والعلامة الشيخ أبي بكر بن سالم صاحب عينات، والشيخ عبدالرحيم بن عمر باوزير مولى الجيش، والشيخ معروف باجمال، والشاعر الفحل عبدالصمد باكثير، وغيرهم كثير وكثير من أجلة الفقهاء كالشيخ محمد بن أحمد بافضل، وابن عبسين، وبامزروع، وبايزيد، وباجمال، وباقشير.

وقد كان السلطان بدر موفقاً في اختيار خواصه ورجال دولته من بين أمثال هؤلاء العلماء، فقد وكل كثيراً من شؤون دولته الإدارية والحربية إلى العلامة محمد بن عمر بحرق، كما ولى الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة قضاء الشحر، ثم كان له بمثابة كاتم السر «سكرتير» يستشيره في شؤونه ويفوض إليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها.

وبالرغم من حظوة الفقيه عبدالله بن عمر بامخرمة لدى السلطان بدر وقربه منه فإن علاقة السلطان بدر بوالده الشيخ عمر غير حسنة؛ لخلاف كان بينهما بسبب تدخل أبي طويرق في شؤون الهجرين بلدة الشيخ عمر التي كان يحرص على بقائها بعيدة عن تدخل آل كثير، وقد نفاه أبو طويرق إلى الساحل غير مرة، ثم رأى أن يضعه تحت مراقبته فاستقدمه إلى سيئون[1] حيث أقام بها إلى أن مات.

---

(١) المشهور أن مدينة سيئون بنيت حوالي القرن السادس الهجري، وقد نقل بعض المؤرخين أن «ذي أصبح» وسيئون مدينتان بالسرير لبني معاوية الأكرمين، مما يفيد أنها أقدم من ذلك بكثير.

وهكذا نرى أن الظروف السياسية تضطر أبا طويرق أحياناً إلى الخروج عما عرف عنه من تقدير العلماء وإجلالهم، وقد اتهم مرة الشيخ معروف باجمال بموالاة أحد الثائرين عليه من بني عمه، فقبض عليه وأمر بأن يعلق في عنقه حبل وأن يطاف به في شوارع شبام وينادى: هذا معبودكم يا أهل شبام، ثم نفاه من شبام إلى دوعن، وكان الشيخ معروف من أئمة العلم والصلاح والمعروفين بالولاية.

❖ بدر والبرتغال:

كان للبرتغال الأمة الإفرنجية الواقعة في أقصى الغرب من أوربا مكانة في الشرق لا تضاهى تجارة واكتشافاً واستعماراً، وكانت سفنها تمخر المحيط الهندي إلى الجزائر الأوقيانوسية الشرقية وبعض بقاع الهند التي وطدت أقدامها فيها، وكانت تفكر في احتلال سواحل جزيرة العرب لتأمين مواصلاتها إلى الشرق، لذلك هاجمت موانئ عدن وقشن وسيحوت وغيرها. وفي ربيع الآخر من سنة **٩٢٩**هـ هاجموا مدينة الشحر بأربع عشرة سفينة، وأخذوا يتسورون البيوت وينهبون ويحرقون ويخربون.

وقد تصدى الناس في الشحر لقتالهم، فدارت معارك حامية في شوارع المدينة وكثر القتل في الفريقين، وقتل من أعيان الشحر جماعة منهم: الأمير مطران بن منصور، والإمام العلامة أحمد بن عبدالرحمن بلحاج بافضل، وكان هذا الإمام قد قاتل قتال الأبطال وأرسل رسلاً مستعجلين إلى داخل حضرموت برسائل مؤثرة يستنفرهم للجهاد، وقتل أيضاً أحمد وفضل ابنا رضوان بافضل، والفقيه يعقوب بن صالح الحريضي وخلق كثير، ودفن سبعة من الشهداء في موضع واحد لا تزال قبورهم معروفة إلى اليوم في حارة «عقل باغريب».

واستمر القتال في المدينة من يوم الجمعة إلى يوم الأحد حيث اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب إلى سفنهم ليلة الإثنين، فضربوا عرض البحر

متجهين نحو الهند، وتكررت محاولاتهم بعد ذلك لمهاجمة الشحر ولكنهم لم يظفروا بطائل.

وفي سنة **٩٤٢**هـ قرر البرتغاليون القيام بحملة كبرى لتنفيذ خطتهم، فأقبلوا بعدد كبير من السفن، وكان أبو طويرق موجوداً بالشحر هذه المرة، فأعد العدة لقتالهم، ولم يكد جنود الإفرنج ينزلون إلى البر حتى أرسل أبو طويرق إلى سفنهم من يأسرها ويلقي القبض على من فيها، واشتد القتال في البحر والبر، وصمد جنود أبي طويرق وقاتلوا قتالاً شديداً، وطلعت شمس يوم الأحد لخمس من رمضان وقتلى الإفرنج في كل شارع.

وعلم الذين في البر من جنود البرتغال بأن سفنهم قد وقعت في يد بدر وأن جنوده يسحبونها إلى الساحل سحباً وبحارتها يقادون بالأكبال فاضطروا إلى طلب الأمان وتسليم أنفسهم، فأمّنهم أبو طويرق ومن بينهم القبطان الأكبر، وكان عدد الأسرى في هذه الحادثة سبعين، فرقهم بدر على فرق عساكره، فجعل لأشراف الجوف الذين حضروا المعركة عشرة أسارى، وللعساكر الزيود عشرة، وللجنود من يافع عشرة، وللعبيد النوبيين عشرة، واستولى على سفنهم ونقودهم وعبيدهم وجميع ما معهم من أموال، وعثر على جماعة منهم مستخفين في بعض البيوت فألقى القبض عليهم.

وقد استطاعت إحدى السفن البرتغالية الهرب من الميناء فنجا فيها مائة شخص منهم، ثم قدم جماعة آخرون من البرتغاليين عقب انتهاء المعركة من سواحل إفريقيا الشرقية ومعهم مال فأخذهم السلطان بدر وجميع ما معهم وألحقهم بإخوانهم الأسرى المكبلين.

وأهدى السلطان بدر خمسة وثلاثين من هؤلاء الأسرى إلى السلطان العثماني في إسطنبول - القسطنطينية - تودداً إليه وطمعاً في تحسين صلته بالأتراك لتنفيذ مطامحه السياسية، كما أرسل أحد عشر أسيراً إلى أخيه محمد وهو يومئذ والي ظفار، واستصحب معه ثلاثين منهم عندما عاد إلى

داخل حضرموت في صيف سنة **٩٤٢**هـ.

وتكررت حوادث البرتغاليين بعد ذلك، صلح يعقبه حرب، وحرب تنتهي بصلح، وكثر أسرى الإفرنج عند بدر واختلط الأهالي بهم، وأنس السلطان ببعضهم فجعلهم من ندمائه، حتى إنه كان ذات ليلة ساهراً معهم في أحد بيوت الشحر فحدث أن أغلقوا عليه الأبواب ليشرعوا في تنفيذ مؤامرتهم لاغتياله، فأسرعت إليه بعض الجواري تُسِرُّ إليه الخبر فاستطاع أن يحبط مؤامرتهم بالتسلل خفية من مؤخرة البيت، فلما أصبح أمر بهم فقتلوا عن آخرهم وبعث برؤوسهم إلى السلطان سليمان القانوني عاهل الترك.

وكان آخر صلح عقده السلطان بدر مع البرتغاليين في شوال سنة **٩٤٤**هـ، عندما وصل عبدالله بن أرقل من الهند في سفينة إفرنجية، وتوسط في الصلح، فأجابه السلطان وفك أسراهم.

❖ بدر وعاهل الترك:

من بين التدابير التي اتخذها أبو طويرق لحماية بلاده في الداخل ومن الخارج أن أخذ يكاتب السلطان سليمان القانوني عاهل الدولة العثمانية التي كانت لذلك العهد الدولة الوحيدة المسْلِمة التي ينظر إليها العالم بعين الإكبار والرهبة، وكان في رسائله يبذل الطاعة للدولة ويستنجدها على البرتغال الذين يهددون سلامة بلاده.

وكان الأتراك بدورهم يتطلعون إلى التوسع في الشرق ويغيظهم ما يسمعون من بطولة البرتغال وسعيهم لبسط نفوذهم في البلدان الإسلامية الشرقية، فجهزوا في سنة **٩٤٤**هـ جيشاً عظيماً مكوناً من نحو أربعين ألف مقاتل بقيادة وزير الدولة بمصر سليمان باشا الألباني، وزودته بأسطول بحري مؤلف من مائة سفينة صغيرة وما يزيد عن ثمانين سفينة كبيرة، وتوجه قاصداً نحو الهند.

وفي جمادى الأولى من تلك السنة وصلت إلى ميناء الشحر سفينة

تركية تحمل مؤناً للجيش التركي لتودع هناك تحت تصرف الجيش، فيها مقادير كبيرة من البر والشعير والفول والبصل والزيت وعدد من المدافع والأسلحة.

وفي ربيع الأول من هذا العام كتب الباشا سليمان إلى السلطان بدر يخبره بوصوله إلى عدن، وأنه استولى عليها بدون قتال، وقبض على الشيخ عامر بن داود آخر ملوك بني طاهر في عدن واليمن وأميرها عبدالصمد والأمير الخلي وحكم عليهم بالشنق، وتركوا مشنوقين بالجسارة قرب باب الساحل يومين كاملين، ثم دفنوا في اليوم الثالث، وغادر الباشا سليمان عدن بعد أن ترك بهرام عاملاً عليها من قبله ومعه خمسمائة تركي.

وكان قد وصل إلى الشحر ثلاثون تركياً في ربيع الأول سنة **٩٤٤هـ** ليخبروا السلطان بدر بالحملة التي أعدها السلطان سليمان ضد البرتغاليين وقدّموا لأبي طويرق مرسومين وخلعتين من السلطان سليمان القانوني العاهل العثماني قدمها إليه الأمير فرحات شوماي مملوك سليمان باشا.

وبهذه المناسبة عقد السلطان بدر اجتماعا كًبيراً بمسجد الجامع في الشحر قام فيه الأمير فرحات خطيباً، فقدم إلى السلطان بدر المرسومين ونوه بالحملة التي جردت لحرب الإفرنج، ثم وقف العلامة الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة وقرأ المرسوم السلطاني، وبعد ذلك تكلم السلطان بدر فرحب بالمرسوم وبأول رسول تركي يصل إلى الشحر، وأشار إلى أنه سيأمر بأن يخطب الخطباء في مملكته للسلطان سليمان، وجاء يوم **٢٤** من هذا الشهر ربيع الأول سنة **٩٤٤هـ** فصادف أول جمعة بعد الاجتماع السابق فكانت أول جمعة خُطب فيها لسلطان آل عثمان بحضرموت.

وغادر الأمير فرحات مدينة الشحر مزوداً بهدية ثمينة من أبي طويرق للسلطان سليمان هي قطعة من الألماس النادر الوجود وخمسمائة مثقال من العنبر الأصيل، أما فرحات نفسه فقد أهداه السلطان بدر ثلاثين بهاراً من الفلفل.

وفي رجب سنة ٩٤٤هـ وصل الأسطول العثماني إلى الشحر بعد عودته من الهند ونزلت الجنود إلى المدينة يبيعون ويشترون، وطلب الباشا بقية الأسراء، كما طلب إحضار «الفيتور» البرتغالي الأسير بحصن عرف، فأحضروا وسلموا إلى الباشا ولم يكن أبو طويرق موجوداً بالشحر هذه المرة، فناب عنه الأمير أحمد مطران في مقابلة الباشا والترحيب به، فقد قصد السفينة الكبيرة التي تحمل الباشا والمزينة بالعلم التركي، فقابله الباشا أحسن مقابلة وخلع عليه وقال له: إن الدولة العلية سترسل للسلطان بدر - فرماناً - بعقد الولاية له من باب عدن إلى مدينة ظفار وقدم له الأمير أحمد هدايا فاخرة وما يحتاجون إليه من البر، ثم غادر الباشا الشحر في طريقه إلى عدن بعدما وضع على الشحر رسوماً سنوية عشرة آلاف أشرفي تسلم كل سنة إلى مندوب الدولة الذي يصل سنوياً لتناول هذه الرسوم.

وهكذا استطاع السلطان بدر أن يحسن علاقاته مع أقوى دولة إسلامية في ذلك العهد، ويضمن ولاءها ومساعدتها له.

❖ سلسلة اضطرابات:

لم تكن البلاد الحضرمية التي حاول أبو طويرق جمع شتاتها تحت لواء واحد وسلطة واحدة مستعدة لقبول هذه الوحدة، فهناك من العوامل المتعددة ما يجعل ضمان هذه الوحدة التي سعى لها أبو طويرق أمراً بعيد المنال صعب التحقيق، فقد كان الأمراء من آل كثير ورؤساء القبائل وغيرهم من كل طامح وطامع سبباً في تعكير الجو السياسي وإحداث القلاقل والمشاغبات وإثارة الفتن والثورات، حتى لقد كان الجانب الأكبر من عهد أبي طويرق عبارة عن سلسلة من الاضطرابات والثورات لا تنطفئ ثورة حتى تندلع نيران أخرى، ولا تهدأ فتنة حتى تشب فتنة أخرى، ويظهر أن صعوبة المواصلات وعدم توفر المال الكافي لأرزاق الجنود من بين الأسباب التي حالت دون القضاء على هذه الاضطرابات.

❖ قبائل الحموم:

بدأت قبائل الحموم في الساحل بالتحرش برعايا السلطان، فألقى أبو طويرق القبض على جماعة منهم، فأعلنوا العصيان وأكثروا من النهب والسلب وقطعوا السبل وروعوا المارة حتى هرب الناس من ضواحي الشحر إليها، فجهز أبو طويرق عدداً من جنوده لقمع ثورتهم، فتوجه الجنود يلقون القبض على كل من يلقونه منهم حتى انتهوا إلى غيل بن يُمَيْن فاستولوا عليها سنة **٩٣٦هـ**، وهاج الحموم وفكروا في القيام برد فعل، فأغاروا على تبالة ونهبوا منها أموالاً كثيرة، كان الناس قد نقلوها إليها خوفاً من البرتغاليين وقتلوا أشخاصاً.

❖ نهد:

وفي غرب حضرموت ثارت نهد تحت رئاسة محمد بن علي بن فارس النهدي، فوجه إليهم أبو طويرق حملة شتت شملهم وأسرت ابن فارس فعظم أسره على نهد وطفقت تعمل كل ما في استطاعتها لمناوأة بدر والكيد له، وبينما كان السلطان ماراً ببلاد نهد في طريقه إلى دوعن اعترضه من السور - موضع لنهد - مائة وستون فارساً غضباً لصاحبهم، وبعد توسط المصلحين وافق أبو طويرق على إطلاقه.

واستمرت المناوشات بين نهد والسلطان حتى زحف ثابت بن علي بن فارس النهدي على دوعن فاستولى على القرين سنة **٩٤٠هـ** بعد حصار طويل وبعد إطلاق حجر العرادة على البلاد - آلة حربية أشبه بالمنجنيق وأصغر منه - وزاد ذلك في نقمة أبي طويرق على نهد، فحمل عليهم حملة كبرى زحزحهم بها عما استولوا عليه، ثم أزالهم من منطقتهم الكسر حتى أخذوا يستنجدون ببعض ولاة اليمن، فتوسط هذا في صلح يقضي بعودة نهد إلى منطقتهم.

❖ عمد ودوعن وسيبان:

وامتد لهيب الثورة إلى وادي عمد حيث ثار هناك واليها فارس بن عبدالله العامري، فسار إليه السلطان بدر بنفسه واستولى على الوادي بعد قتال شديد وألقى القبض على فارس العامري، وعند عودته من عمد عرَّج بالهجرين، وكانت قد ثارت هي الأخرى فدخلها بدون قتال، وأخرج منها ولاتها من آل عامر.

وعلم أبو طويرق بأن الشيخ عثمان العمودي في دوعن قد عقد معاهدة مع نهد ضده، فهاجمه في ٩ رمضان سنة **٩٤٨**هـ واحتل قيدون واستولى على الحصن بعد أن اضطرت حاميته إلى التسليم، وكانت هذه الحامية تحت قيادة الشيخ أحمد العمودي شقيق الشيخ عثمان حاكم دوعن، وتوالت الحملات على دوعن، والعمودي مُصِرّ على المقاومة حتى سنة **٩٥١**هـ حيث عقد السلطان بدر صلحاً مع العمودي نقضه الأخير سنة **٩٥٥**هـ، فقد اتحد مع آل عامر وآل عبدالعزيز والشنافر والعوامر ضد بدر، وعاثوا في البلاد وروعوا السلطان واستولوا على بور وأغاروا على تريم وهينن، وحاصر آل عامر شبوة وانهزمت عساكر بدر ولم تستطع الثبات والوقوف أمام القبائل المتحدة على الثورة.

وانتهزت قبائل سيبان فرصة هذه المشاغبات فأدلوا بدلوهم بين الدلاء، وأقلقوا سكان روكب وغيل باوزير، فابتنى السلطان بدر حصناً في روكب وحصنه بالجنود خوفاً من صيال سيبان.

❖ عبيد يماني:

وتجمع عبيد يماني - الذين سبق لهم ذكر - في أسفل وادي حضرموت ومعهم أخلاط من بعض القبائل الناقمين على أبي طويرق أو الطامعين في السلب والنهب، فعاثوا في الأرض وأكثروا الفساد، فجهز السلطان بدر عدداً كبيراً من جنوده لقتالهم في سنة **٩٥٨**هـ فحاصرهم الجنود

في قرية تُدعى «الجرب» بأسفل الوادي، واشتد عليهم الحصار حتى أكلوا الجلود والميتة، ثم هجم عليهم الجنود وقتلوهم عن آخرهم وكانوا خمسمائة.

❖ ثورة المهرة:

وعلم السلطان بدر بأن المهرة تتجمع في المشقاص لمهاجمة الشحر فجهز حملة كبرى من رجال نهد والشحابلة والزيود ويافع وبني حسن تحت قيادة الأمير أحمد مطران والأمير علي بن عمر الكثيري والفقيه محمد بن عمر بحرق، وتوجه معهم هو وأخوه محمد وقد استولت الحملة على قشن، ثم عاد بالجيش بعدما بنى حصناً هناك جعل فيه حامية من جنوده وترك الأمير أحمد مطران والفقيه بحرق نائبين عنه في قشن.

ولم يلبث المهرة أن ثاروا مرة أخرى فقتلوا الأمير أحمد واستردوا بلادهم فاتَّهم أبو طويرق أخاه محمداً بإغراء المهرة وتحريضهم على العصيان فاعتقله وقيده بالشحر، وعاد مرة أخرى إلى المشقاص فأخضعهم وقتل من مقاتليهم عددا كًبيراً.

وضاقت المهرة بما تلقى من سيطرة جنود بدر، فذهب رئيسهم سعيد بن عفرار إلى الهند مستصرخاً بالبرتغاليين، وأقبل بجماعة منهم في شهر صفر سنة ٩٥٥هـ، واستولى بهم على حصن قشن وقتل جميع عساكر بدر، وبلغت أنباء هذا الحادث إلى أبي طويرق وهو بحضرموت، فقدم إلى الشحر وأنفذ جيشاً بواسطة البحر، وخاف سعيد بن عفرار فجاء إلى أبي طويرق نادماً معترفاً إلى مكان يُدعى «حيريج» أثناء الطريق، فقبله السلطان بدر وعُقِد صلح بينهما تعهد المهرة فيه بأن لا يتحرشوا بموانئ بدر ولا بأي جزء من بلاده، على أن يترك لهم السلطان حكم بلادهم بأنفسهم، وعاد أبو طويرق بعسكره من «حيريج».

أمراء من آل كثير:

كان بعض الأمراء من آل كثير ينقمون على السلطان بدر أشياء منها: استبداده بالأمر دونهم، وإسناده شؤون الدولة الكبرى إلى شخصيات غير كثيرية، أضف إلى ذلك ما تجيش به نفوس الأقران من التنافس والتكالب على الجاه والمجد والمطامع المادية، فكان ذلك سبباً في تعكير الجو بينهم وبين أبي طويرق.

فقد ثار في شبام علي بن عمر الكثيري وخلع طاعة أبي طويرق وأعلن تمرده، وناصره جماعة من وجهاء حضرموت، وفي مقدمتهم الشيخ معروف باجمال، فاهتم أبو طويرق بأمره وتابع عليه الهجمات ووالى نحوه الكتائب حتى ظفر به واستولى على شبام سنة **٩٥٨هـ** وقبض عليه وسجنه بحصن مريمة الذي أصبح فيما بعد سجناً للمغضوب عليهم من أمراء آل كثير، وثار الأمير محمد بن بدر بن محمد في هينن وطفق هو والأمير محمد بن عبدالله يناوئان السلطان بدراً ويهاجمان شبام فألقى أبو طويرق القبض عليهما واعتقلهما في حصن مريمة، ولم تكن العلاقات بين السلطان بدر وبين أخيه محمد دائماً على ما يرام فقد عملت الوشايات على خلق جو من المنافسة والمعاكسة بينهما أدت إلى الفتنة والحرب، فقد جند الأمير محمد قوماً من المهرة سنة **٩٤٠هـ** وغزا بهم الشحر ثم انصرف إلى المشقاص خائباً.

وساد الصفاء والوئام بعد ذلك مدة بين الأخوين ثم ساءت العلاقات بينهما مرة أخرى، فحشد محمد جمعاً كثيفاً من أهالي ظفار وآل كثير المقيمين هناك واستولى بهم على قشن، ثم عادت الأمور إلى مجاريها وتم الاتفاق بين الأخوين، واكتفى الأمير محمد بن عبدالله بولاية الشحر نائباً عن أخيه بدر، وبقي كذلك حتى وافته المنية.

❖ أبو طويرق في المعتقل:

وهكذا أخذت الحالة تسير من سيئ إلى أسوأ وتعددت الثورات والفتن

واستفحل الخلاف بينه وبين الناقمين عليه من أعيان آل كثير وعلى رأسهم ابنه الأمير عبدالله الذي كان يعارض سياسة أبيه ولا يوافق على كثير من تصرفاته، فقرروا القبض عليه وإبعاده عن ميدان السياسة، فدخل عليه ابنه عبدالله في بضعة نفر وهو بحصن سيئون فألقى القبض عليه وحبسه في بعض حجرات القصر أياماً، ثم نقل إلى حصن مريمة حيث تقرر اعتقاله هناك، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٩٧٦هـ.

وأدركت أبا طويرق - وهو في معتقله - علة لزم بسببها الفراش، ولما ثقل عليه المرض أعيد إلى سيئون بعد حوالي سنة ونصف من اعتقاله حيث أدركته الوفاة في العشر الأواخر من شعبان سنة ٩٧٧هـ عن خمسة وسبعين عاماً قضاها في نضال وكفاح من أجل تحقيق مطامحه الكبيرة.

ومهما قيل في أسباب فشل أبي طويرق في إخماد الثورات التي عمت أجزاء البلاد في النهاية ومهما قيل في تعليل نقمة ابنه عبدالله وبعض الأمراء من آل كثير عليه فإن الرجل كان ناجحا إلى حد بعيد في كثير من أعماله العسكرية والإدارية التي قام بها، حتى صح أن يقال: إنه الحاكم الوحيد الذي استطاع أن يوحد حضرموت جميعها تحت حكمه من بين حكام حضرموت في تاريخها الإسلامي.

فقد استطاع أن يؤمن بلاده ضد الغزو الخارجي وأن يقضي على كثير من أسباب الفوضى ودعاتها في الداخل مستعيناً في ذلك بالأسلحة النارية التي قدمتها له الدولة العثمانية والتي مكنته من التفوق على جميع خصومه، وكان استعمال هذه الأسلحة لأول مرة في تاريخ حضرموت، وكانت طريقته في حماية الأمن في الداخل تعتمد على إنشاء سلسلة من مراكز الحدود مجهزة بالجنود يعمل كل منها تحت إمرة قائد حربي ووضع حاميات في نقط استراتيجية مهمة في طول البلاد وعرضها لتأمين المواصلات وإرهاب

كل من تحدثه نفسه بتعكير الأمن.

وإذا كانت حكومة السلطان بدر حكومة عسكرية في جوهرها فإنه لم ينس النواحي المدنية في الإدارة، فقد عين فيما سبق قضاة في أهم مدن البلاد للفصل بين الناس بموجب أحكام الشريعة الإسلامية، ويقال بأن قاضيه في الشحر العلامة الفقيه الكبير عبدالله بن عمر بامخرمة كان يعتبر بمثابة رئيس القضاة، فتقدم إليه جميع طلبات الاستئناف من محاكم القضاة الآخرين، كما كان مسئولاً عن نواحٍ أخرى في الإدارة، فهو لذلك أول سكرتير للدولة في حضرموت.

وقد اختار أبو طويرق عاصمته مدينة سيئون ثم بقيت المركز التقليدي للسلطنة الكثيرية منذ ذلك الحين إلى الآن، وإن كان المركز الإداري قد تحول - كما يبدو في أواخر حكم أبي طويرق - إلى الشحر لأهميتها كميناء على الساحل ذات أهمية عظيمة في السيطرة على الداخل.

ولا يُعرف النظام المالي الذي اعتمد عليه أبو طويرق، وإن كان من المحتمل أنه كان يعتمد غالباً على الضرائب الجمركية، وربما يضاف إلى ذلك الضرائب التي يفرضها قواد الحاميات على مناطقهم، وبالجملة فقد حكم أبو طويرق حضرموت حوالي ستين عاماً كانت من أخصب العهود الحضرمية بالحوادث الجديرة بعناية المؤرخين والوقوف عندها طويلاً.

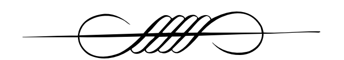
وقد حكم البلاد بعد وفاته ابنه عبدالله بن بدر المتوفى سنة **٩٨٥**هـ، بعد أن حارب أخاه جعفراً الذي أعلن العصيان في الشحر واستقل بحكمها فنهض إليه وأخرجه منها ونفاه إلى قشن.

ومن أشهر أبناء أبي طويرق السلطان عمر بن بدر، ممدوح الأديب الشاعر الكبير عبدالصمد باكثير والمتوفى بالشحر سنة **١٠٢١**هـ، ومن أشهر مراثي عبدالصمد له قصيدته التي يقول في مطلعها:

هوى من سماء المجد كوكبها القطب　　　فأظلم في أقطارنا الشرق والغرب

تضعضع طود المجد وانهدَّ ركنه فيالك ركناً قد تضمنه الترب
ثوى عمر الخيرات أكرم من سعت إلى سوحه تطوى سباسبها النجب

ولعمر بن بدر ولدان هما: عبدالله بن عمر، جد سلاطين آل عبدالله الحاليين الذي اعتزل السلطنة بعد ثلاث سنوات من توليه، والآخر بدر بن عمر، الذي يقال: إنه اعتنق مذهب الزيدية، وسنتحدث عنه في ترجمة خاصة به.



«١١»

عبدالله بن عمر بامخرمة

الشافعي الصغير - مولده - نشأته - رحلاته - أول سكرتير للدولة - مؤلفاته - مقدرته الأدبية - أسرته - وفاته

❖ الشافعي الصغير:

عبدالله بن عمر بن عبدالله بن أحمد بامخرمة السيباني الحميري، أحد أصحاب الكفاءات النادرة والمواهب الخارقة والقوى العقلية الممتازة في التاريخ الحضرمي، ولقد أدهش كثيراً من معاصريه بسعة اطلاعه وكثرة معلوماته ووفرة ذكائه، حتى قالوا عنه ما نحسبه نحن اليوم من قبيل المبالغات.

فقد ذكروا أن العلامة الشيخ أحمد بن عمر الحكيم مفتي عدن ومحدثها أفتى بأن من حلف بأنه ليس في زمان الفقيه عبدالله بن عمر بامخرمة على وجه الأرض من هو أعلم منه لم يحنث، وظاهر أن الحكيم يقصد بذلك الإشادة بغزارة مادة العلامة بامخرمة في فقه الإمام الشافعي، فقد كان بحق فقيهاً لا يجارى، حتى إنه كان يعتبر من أقران ابن حجر الهيتمي صاحب التحفة وأحد عباقرة الشافعية.

كما ذكروا أن العلامة عبدالله بن عمر كان إذا دخل بلداً امتنع مفتيها عن الإفتاء ما دام موجوداً بها، وكان علامة اليمن الشيخ عبدالرحمن بن زياد الزبيدي إذا استفتاه أحد من أهالي عدن بعد إقامة الفقيه بامخرمة بها

أحاله عليه، وهكذا كان صاحب الترجمة معروفاً بين أهل عصره بأنه حجة يعتمد عليه في مذهب الشافعية، حتى لقبه الناس في ذلك العصر بـ«الشافعي الصغير».

❖ مولده، نشأته:

ولد بمدينة الشحر في جمادى الآخرة سنة **٩٠٧**هـ وبها نشأ وبدأ دراسته، فحفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة، ودرس مبادئ العلوم الدينية واللغوية على علماء الشحر وعلى أبيه الصوفي الشاعر الكبير عمر بن عبدالله وعلى عمه العلامة المؤرخ الطيب بامخرمة وعلى القاضي العلامة عبدالله بن أحمد باسرومي أحد علماء الشحر، وكان الأستاذ باسرومي يقول: استفدت من الفقيه عبدالله بامخرمة أكثر مما استفاد مني، وكان معظم تحصيله وجل انتفاعه بالإمام عبدالقادر الحباني، وكان هذا الإمام يجل الفقيه عبدالله ويفضله على والده الشيخ عمر الصوفي الكبير.

❖ رحلاته:

وكانت اليمن والحجاز في ذلك العهد مورداً للعلم يفد إليها الناس من الأقطار العربية لينهلوا من معارفها وعلومها، وقد رحل صاحب الترجمة إلى زبيد والحجاز لإتمام دراسته والاتصال بكبار العلماء حتى قيل: إنه نبغ وتفوق في أكثر من عشرين فرعاً من فروع العلم من بينها - عدا علوم الدين واللغة - علوم الحساب والجبر والمقابلة والفلك، وشارك في علم الطب، وكان الفقه هو العلم الذي تخصص فيه وعرف به بين الناس حتى كان الناس يرجعون إليه لحل المشاكل ويأتون إليه من كل مكان فيجدون عنده ما يطلبون من فتاوى تسكن إليها نفوسهم وتطمئن لها قلوبهم، وقد كان عمه الطيب بامخرمة يعجب بقدرته على حل غوامض المسائل والبت في كبريات المشاكل.

وكان صاحب الترجمة من الفقهاء المعتدّين بأنفسهم الواثقين من

ثقافتهم، وقد منحه الله طلاقة في اللسان وقدرة على التأثير، وقد تقدم لمناظرات علمية مع كبار العلماء ومن بينهم العلامة الشيخ عبدالقادر بن أحمد الإسرائيلي الحباني، ولما حج سنة ٩٤٩هـ طلب مناظرة علامة الحجاز وأكبر فقهاء الشافعية الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي، وقيل: إن ابن حجر أحجم عن مناظرة الفقيه الحضرمي معتذراً بما يقال عن الفقيه الحضرمي من حدة الطبع وسرعة الغضب وأنه قد تؤثر غلبة أحدهما على الآخر في الجماهير المتعلقة بهما فيرتاب الناس في مقدرة المغلوب العلمية ويتشككون في فتاويه.

وروي أنه لما دخل الفقيه بامخرمة إلى الحرم المكي استقبل البيت الحرام وأحرم بركعتين ولم يطف ولم يتنبه من أثر الدهشة للسنة المتبعة في تحية البيت، وكان العلامة ابن حجر معتكفاً في الحرم مع بعض طلبته، فأرسل إليه ابن حجر أحد تلاميذه لينبهه، فوقف التلميذ في كثير من الأدب إلى جانب الشيخ وهو يصلي وأسرّ في أذنه قائلاً: يا شيخ ما تحية البيت؟ فقطع الفقيه بامخرمة صلاته وشرع في الطواف.

❖ أول سكرتير للدولة:

ولم تخفَ مواهب الفقيه بامخرمة ومقدرته العلمية على السلطان بدر أبي طويرق فصمم على الانتفاع به والاستفادة منه وولاه قضاء الشحر ومنصب الإفتاء فكان بمثابة رئيس القضاة، كما كان كاتم سر السلطان «سكرتيره» يستشيره في شؤونه الخارجية، ويفوض إليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها، فكان يجيب على الرسائل التي ترد إلى السلطان بدر من ملوك القسطنطينية ومصر والهند وأمراء الحجاز، وهو الذي قرأ فرمان السلطان سليمان القانوني العثماني للجمهور ببندر الشحر، وكان مسؤولاً عن نواحٍ أخرى في الإدارة كما سبق، فهو لذلك أول سكرتير للدولة في حضرموت.

وبالرغم من حظوة الفقيه بامخرمة لدى السلطان بدر وقربه منه، فقد كان والده الشيخ عمر ناقماً على أبي طويرق حانقاً عليه، وربما تكلم في بعض المجالس عن السلطان بدر بما لا يرضيه، وقيل في سبب ذلك أن الشيخ عمر كان حريصاً على بقاء بلدته الهجرين بعيدة عن السلطنة الكثيرية، فنفاه أبو طويرق إلى الساحل غير مرة، ثم رأى أن يضعه تحت مراقبته فاستقدمه إلى سيئون حيث أقام بها إلى أن مات رحمه الله.

❖ مؤلفاته:

ترك الفقيه بامخرمة آثاراً علمية قيمة تُعطي القارئ صورة عن النشاط العلمي الذي كان يقوم به صاحب الترجمة علاوة على أعماله الرسمية في الدولة، ونحن ننقل عن المؤرخ الطيب بافقيه جانباً من مؤلفات الفقيه بامخرمة كدليل على ما أشرنا إليه من مشاركة الرجل في كثير من العلوم والفنون:

١- حاشية على أسنى المطالب شرح الروض.

٢- الفتاوى الكبرى.

٣- الفتاوى الصغرى الهجرينية.

٤- المصباح: شرح العدة والسلاح.

٥- النكت على تحفة المحتاج لابن حجر.

٦- شرح الرحبية في الفرائض.

٧- شرح منظومة له في ذوي الفروض والرد عليهم.

٨- شرح منظومة له في قسمة التركات.

٩- تراجم تاريخية كتكميل لطبقات الإسنوي.

١٠- شرح منظومة له في ظل الاستواء.

١١- رسالة في علم الجبر والمقابلة تتعلق بالبيوع والضمان والإقرار

والوصايا والصداق والعتق.

١٢- رسالة في المناسك.

١٣- رسالة في علم المساحة.

١٤- رسالة في الربع المجيب.

١٥- رسالة في سمت القبلة.

١٦- رسالة في معرفة الأوقات والساعات.

١٧- رسالة في اختلاف المطالع واتفاقها.

١٨- رسالة في القهوة.

مقدرته الأدبية:

للفقيه بامخرمة شعر جيد يضعه في مصاف الشعراء الموهوبين، وكان إلى جانب مقدرته الشعرية حسن الإنشاء جيد الأسلوب موهوباً في الناحية الخطابية، وشعره مزيج من ألون مختلفة فيها الغزل والمديح والرثاء والمواعظ والحكم وشكوى الزمان، وله شعر علمي يرد فيه على مخالفيه في العقيدة، ومن أشهر مدائحه قصائده في السلطان بدر والسلطان سند بن محمد الوداد صاحب ميفع، وكانت بينه وبين الأديب الشاعر محمد بن أحمد باوزير البيتي مساجلات شعرية ومكاتبات نثرية كما أشار إلى ذلك المؤرخ الطيب بافقيه.

ومن جيد شعره قصيدته التي يقول في مطلعها:

مثلي يصان مدى الأزمان جانبه ... ولا يروّعه دهر يحاربه

والتي يقول فيها:

أنا الذي السعد والعلياء تخدمني ... وطالع المجد في بيتي وغاربه

من معشر زان في الآفاق نعتهم ... كالدر ينظمه في السمط ثاقبه

من كل مضطلع بالعلم متصف ... بالجود تهمي على الدنيا سحائبه

وكل طود من الأمجاد تحسبه إذا تكلم بحراً هاج صاخبه
لا يخضعون لجبار أخافهم قد رجَّت الأرض من شرٍ كتائبه
ولا يدينون في سر ولا علن إلا بحق بدت صحواً مذاهبه
أُبدي التغابيَ عن أشياء أعلمها كالسيف لان وقد حزت مضاربه

وله من مطولة في الدفاع عن الأشاعرة:

أخطأت في ذم الإمام وحزبه فهم دعاة الحق للرحمن
لولا الإمام الأشعري ونصره للسنة البيضاء كل أوان
لعلا الفلاسفة الطغاة ظهورنا وتلاعبوا بالدين والإيمان
لكنَّ أَلْسُنَهم وأقلاماً لهم أزرت بكل مهند وسنان

ويقول مضمناً الشطر الأخير:

قالت أراك من الذكا في غاية جلَّت عن الإسهاب والإطناب
فعلام تبدي في الأمور تغابياً فأجبت سيد قومه المتغابي

وقال معرضاً بفقره:

وعاذلة أبدت لفقري توجعاً وقالت أتاك الفقر من جانب الندا
فقلت لها لا تطمعي في تغيري لكل امرئ من دهره ما تعوّدا

ويشير إلى الظروف التي اضطرته مرغماً للرحيل عن حضرموت والإقامة بعدن في آخر حياته:

فوالله ما جانبت أرضيَ عن قِليً ولكن لعجزي عن حقوق لوازم
وما العذر لي إن كنت عند قرابة يرجّون نفعي من فقير وغارم
وما أشتهي طول الحياة للذة يعيش ذوو اللذات عيش البهائم
ولكن لكسب المجد ما عشت والثنا ونفع الورى طراً وبذل المراحم

❖ **أسرته:**

قَلَّ أن يجتمع في أسرة من الأسر عدد من الشخصيات العلمية البارزة يعيشون في عصر واحد تقريباً، وإذا تم ذلك فلن يكون بمحض الصدفة، وإنما نتيجة للتربية الحكيمة والمؤثرات الخاصة التي تحيط بالأسرة، وأسرة صاحب الترجمة غنية بالفضل والأدب والعلم إلى درجة تلفت الأنظار وتبعث على الإعجاب، وإنها لجديرة بالدراسة العميقة من علماء الاجتماع للوقوف على جذور هذه الظاهرة الاجتماعية وآثارها في المجتمع، وتاريخ حضرموت حافل بالأمثلة في كثير من أسر السادة العلويين والمشايخ وغيرهم.

ولنأخذ أسرة صاحب الترجمة على سبيل المثال:

«١» والده العلامة الصوفي الشاعر الكبير عمر بن عبدالله المتوفى سنة **٩٥٢**هـ، وهو شاعر مكثر، وله ديوان ضخم ومنثور جيد على أسلوب الصوفية.

«٢» جده العلامة الفقيه مفتي عدن ومدرسها عبدالله بن أحمد المتوفى سنة **٩٠٣**هـ، تولى قضاء عدن، وله مؤلفات قيمة.

«٣» عمه الفقيه المؤرخ الطيب بن عبدالله المتوفى سنة **٩٤٧**هـ في عدن، وله مؤلفات تاريخية منها:

النسبة إلى المواضع والبلدان، وكتاب ثغر عدن. وقد تولى قضاء عدن سنة **٩٣٤**هـ.

«٤» عمه الفقيه أحمد بن عبدالله بن أحمد المتوفى سنة **٩١٠**هـ، كان فقيهاً بارعاً في علوم كثيرة وخصوصاً في علم الفرائض والحساب.

«٥» ابن عمه الفقيه القاضي محمد بن الطيب توفي سنة **٩٣٣**هـ.

«٦» ابن عمه الخطيب المحدث الفقيه عبدالله بن الطيب توفي سنة **٩٧٥**هـ.

«٧» عمه عبدالله بن عبدالله المتوفى بـ «حرض» من أرض اليمن، كان ذا

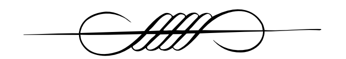
ذكاء مفرط، وله معرفة باللغة والنحو، وله ديوان شعر جيد.

«٨» محمد بن عمر قضام بامخرمة، يجتمع في الأب السادس مع الفقيه عبدالله بن أحمد، كان فقيهاً بارعاً، توفي سنة **٩٥١**هـ.

وفاته:

قضى صاحب الترجمة الجانب الأكبر من حياته في حضرموت متخذاً من مدينة الشحر مقراً لإقامته وسكناه، ثم انتقل إلى عدن في آخر سني حياته حيث تولى هناك منصب الإفتاء ونظارة الأوقاف ووظائف التدريس في المدرسة الظاهرية والمدرسة المنصورية والمدرسة الفرحاتية، وكان يعقد دروساً عامة للجماهير في الجامع.

وكذلك استمر مباشراً وظائفه العلمية مقبلاً على التأليف والإنتاج الفكري والدعوة إلى الله وبث تعاليم الدين الإسلامي، إلى أن وافاه أجله في العاشر من شهر رجب سنة **٩٧٢**هـ، ودفن عند مشهد الشيخ جوهر المعروف بعدن.



«١٢»

محمد بن عمر بحرق

مولده - دراسته - آثاره العلمية والأدبية - نشاطه في المجتمع - رحلته إلى عدن والهند - وفاته

❖ مولده، دراسته:

محمد بن عمر بحرق أحد العصاميين النوابغ الذين يصلون إلى المجد والشهرة لا عن طريق النسب والوراثة بل عن جدارة واستحقاق، وبواسطة الكفاءة وحسن الاستعداد ومواصلة الكفاح، وهو حميري النسب.

ولد بمدينة سيئون في ١٥ شعبان سنة ٨٦٩هـ، وبها نشأ وفيها وفي غيرها من مدن حضرموت درس وتعلم.

بدأ دراسته بحفظ القرآن الكريم، ثم بدراسة علم الفقه والأصول وقواعد اللغة على جماعة من كبار علماء عصره، من أشهرهم العلامة الفقيه محمد بن أحمد باجرفيل أحد البارزين من علماء غيل باوزير والمقبور بجوار ضريح الشيخ عبدالرحيم بن عمر باوزير في الغيل، ثم ارتحل صاحب الترجمة إلى عدن ولزم العلامة عبدالله بن أحمد بامخرمة، وأخذ عنه الفقه والأصول وعلوم العربية والتاريخ وسمع عليه عدة علوم أخرى، كما أخذ أيضاً عن العلامة الفقيه محمد بن أحمد بافضل، ثم ارتحل إلى زبيد كعبة العلم اليمنية في ذلك العهد، فأخذ الحديث والتفسير والنحو عن العلامة الصائغ، والتصوف عن السيد حسين الأهدل، كما درس التصوف

أيضاً على أستاذه الكبير الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس، وغادر البلاد اليمنية إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وسمع من كبار علمائها منهم الحافظ السخاوي، وقد ترجم له هذا في كتابه «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» وذكر أن الأستاذ بحرق تزوج في زبيد ابنة حمزة الناشري وأنجبت له.

❖ آثاره العلمية الأدبية:

أنفق الأستاذ بحرق زهرة شبابه في الجد والتحصل والإكباب على الدرس والمطالعة والتنقل في البلدان لطلب العلم والاتصال بالعلماء، حتى ظهرت مواهبه ونضج تفكيره واتسعت معلوماته، فأصبح أحد العلماء النوابغ الذين يشار إليهم بالبنان، وقد كان بجانب معرفته الواسعة بالفقه وعلوم الدين أديباً شاعراً كاتباً خصب القريحة كثير الإنتاج، وقد ذكر المؤرخون من مؤلفاته أكثر من ثلاثين كتاباً في علوم التوحيد والفقه والتصوف وعلم القراءات والنحو والصرف والطب والحساب والميقات والعروض وغيرها، وبعض هذه الكتب مطبوع يتداوله الطلبة في المعاهد الدينية لسلاسة تعبيرها وحسن ترتيبها، وهي تعطينا صورة عن أسلوب صاحبنا العلمي في الكتابة.

ونحن نورد هنا جانباً من أسماء هذه المؤلفات نقلاً عن المؤرخ الطيب بافقيه:

١- عقد الدرر في الإيمان بالقضاء والقدر.

٢- ذخيرة الإخوان من كتاب الاستغناء بالقرآن.

٣- العقد الثمين في إبطال القول بالتقبيح والتحسين.

٤- الحسام المسلول على منتقصي أصحاب الرسول.

٥- التبصرة الأحمدية في السيرة النبوية.

٦- تجريد المقاصد عن الأسانيد والشواهد.

٧- حلية البنات والبنين فيما يحتاج إليه من أمر الدين.

٨- العروة الوثيقة في الشريعة والطريقة والحقيقة «نظم».

٩- الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة.

١٠- العقيدة الشافعية في شرح القصيدة اليافعية.

١١- الحواشي المفيدة على أبيات اليافعي في العقيدة.

١٢- النبذة المختصرة في معرفة الخصال المكفرة للذنوب.

١٣- متعة الأسماع بحكم السماع.

١٤- ترتيب السلوك إلى ملك الملوك.

١٥- مختصر نهاية الناشري في علم القراءات.

١٦- شرح الجزريَّة في علم التجويد.

١٧- رسالة في إثبات رسالة هارون وكفر فرعون.

١٨- شرح ملحة الإعراب في النحو للحريري.

١٩- فتح الرؤوف في شرح منظومته في معاني الحروف.

٢٠- فتح الأقفال في شرح أبنية الأفعال.

٢١- أرجوزة في الطب وشرحها.

٢٢- أرجوزة في علم الحساب وشرحها.

٢٣- مختصر الخلاصة لابن مالك.

٢٤- رسالة في علم الميقات.

٢٥- مختصر شرح الصفَدي على لامية العجم.

٢٦- البهجة في تقويم اللهجة.

٢٧- شرح على منظومة في العروض.

٢٨- مختصر الأذكار.

٢٩- مختصر الترغيب.

٣٠- مواهب القدوس في مناقب أبي بكر العيدروس.

وللفقيه بحرق آثار أدبية جيدة بجانب آثاره العلمية، فقد حفظ لنا التاريخ نماذج حسنة من شعره في المدح والفخر والوصف والرد على مخالفيه في العقيدة وغير ذلك من أغراض الشعر، وهو في هذه الأبيات يتحدث - واثقاً مما يقول - عن مقدرته الشعرية وقد ردَّ بها على بعض الأدباء الممتحنين له:

قسماً بآيات البديع وما حوى ... من صنعتيه موشحاً ومسلسلا

لو كنت مفتخراً بنظم قصيدة ... لبنيت في هام المجرة منزلا

من كل قافية يروق سماعها ... وتعيد سحبان الفصاحة باقلا

ويُرى لَبيدُ بها بليداً قلبُه ... حَصرا وًينقلب الفرزدق أخطلا

ومنها:

أظننتَ أن الشعر يصعب صوغه ... عندي وقد أضحى لدي مذللا

أبدي العجاب إذا برزت مفاخراً ... أو مادحاً للقوم أو متغزلا

لكنني رجل أصون بضاعتي ... عمن يساوم بخسها متبذلا

وأرى من الجرم العظيم خريدة ... حسنا تزف إلى اللئيم وتجتلى

ما كنت أحسب عقرباً تحتك بالـ ... أفعى ولا هيفا تزاحم بُزَّلا

وأنا الغريب وأنت ذاك وبيننا ... رحم يحق لمثلها أن توصلا

وقال في قصيدة يمدح بها السلطان عمر بن عبدالوهاب الطاهري حين شروعه في بناء مدرسة زبيد:

أبى الله إلا أن تحوز المفاخرا ... فسمّاك من بين البرية عامرا

عمرت رسوم الدين بعد دروسها ... فأحييت آثار الإله الدَّواثرا

فأنت صلاح الدين لا شك هذه ... شواهده تبدو عليك ظواهرا

وروي أنه لما اطلع على هذين البيتين لأحد المعتزلة يعرض فيهما بمذهب أهل السنة في خلق أفعال العباد وهما:

زعم الجهول ومن يقول بقوله ... أن المعاصي من فعال الخالق

إن كان حقاً ما يقول فلم قضى ... حدّ الزناء وقطع كف السارق

ردَّ عليه الفقيه بحرق بقوله:

يا تائهاً جعل القضاء مطابقاً ... للأمر جهلاً وهو غير مطابق

إن القضاء أعم إذ ما كل ما ... يقضي الإله لأمره بموافق

فالحد مشروع لعاصي أمره ... وقضاؤه لا عذر فيه لفاسق

❖ نشاطه في المجتمع:

بعد أن أدرك الأستاذ بحرق حظاً كبيراً من العلم تفرغ في وطنه لخدمة بلاده ونشر الثقافة بين أبنائها، فتصدى للتدريس والإفتاء، ثم تولى قضاء الشحر فصدع بالحق، وطبق أحكام الشريعة، وانطلقت الألسنة بالثناء عليه لما عرف به من العدل والإنصاف وكرم الأخلاق، ثم حدث خلاف بينه وبين الأمير مطران بن منصور حاكم الشحر من قبل سلطان آل كثير فاستقال متذمّراً من تدخل الأمير مطران في شؤون القضاء.

ومن الأمثلة على صراحته في الجهر بالحق - ولو على نفسه - ما حدث من اختلاف في مسألة فقهية بينه وبين العلامة الفقيه عبدالله بن محمد بن عبسين أحد كبار علماء الشحر حتى طال الجدل بينهما وتحدث الناس بذلك، فجاء ابن عبسين ذات يوم يحمل إلى الفقيه بحرق كتاب الروضة للإمام النووي - وهذا الكتاب أحد المراجع الفقهية المعتمدة عند الشافعية، وفيه نص صريح يؤيد الرأي الذي ذهب إليه ابن عبسين - فاعترف الفقيه بحرق ورجع عن رأيه الذي كان يناضل دونه، وشكر لابن عبسين حرصه على تحري الحقائق والبحث عن الصواب.

ثم قصد الجامع وصعد المنبر وخطب في الناس شارحاً لهم مسألة الخلاف بينه وبين العلامة ابن عبسين، ثم قال: لقد وجدت الحق معه وأشهدكم أني رجعت عن قولي.

وفي هذا دليل على قوة الشخصية ومتانة الخلق والشجاعة الأدبية واحترام النصوص العلمية وعدم المكابرة في الحق، وقد تحدث الناس بهذه الحادثة مكبرين في العلامة بحرق سمو أخلاقه وجهره بالحق على نفسه.

وقد اكتشف السلطان بدر أبو طويرق هذه المزايا الخلقية في شخص العلامة بحرق ورأى فيه من الكفاءة لتولي الأعمال الحكومية ما جعله يدنيه إليه ويصطفيه ليستغل مواهبه في تصريف أعمال حكومته، وقد برهن الأستاذ بحرق في هذه الأعمال التي وكلت إليه عن حسن تصرف ورجاحة عقل ونفاذ بصيرة، ودل بذلك على كفاءة رجل الدين الحضرمي وصلاحيته للاشتراك والمساهمة في الأعمال الإدارية والسياسية.

فقد تحدث التاريخ أن العلامة بحرق كان أحد قواد الحملة التي جهزها أبو طويرق على المهرة في رمضان سنة ٩٥١هـ، وكان جنود هذه الحملة من أبطال نهد والشحابلة ويافع وبني حسن، وقد استولت على قشن حيث بقي الفقيه بحرق عاملاً عليها من قبل السلطان بدر بالاشتراك مع الأمير أحمد مطران.

وقد كان الأستاذ بحرق عاملاً على حضرموت الغربية وهو الذي قمع ثورة آل عامر في الهجرين وآل مخاشن في هينن، كما كان عاملاً على منطقة الكسر يساعده الأمير عنبر التركي، وكان ذلك بعد عودة أبي طويرق من شبوة وبشبم التي ذهب إليها لتأديب بعض الخارجين على ابن عبدالواحد أمير حبان.

❖ رحلته إلى عدن والهند:

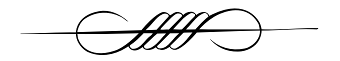
وتقلبت الأيام بصاحبنا الفقيه وحدثت أمور وجدَّت أحوال فساءت

حالته المالية، واضطر إلى مغادرة الشحر إلى عدن، حيث أقام بها مدة من الزمان في رعاية أميرها مقبلاً على نفع الناس بالتدريس والإفتاء والتأليف، ثم سافر إلى الهند بعد وفاة صديقه أمير عدن، وهناك اتصل برجال دولة الدكّن وأعيانها، وكان السلطان المظفر من أشد المعجبين به، وقد قربه وبالغ في إكرامه واحترامه.

وقد نقل صاحب «السناء الباهر» عنه هذه الحادثة الغريبة فقال: إنه كان ذات يوم في مجلس أحد وزراء الهند - وكان فيه أحد السحرة المشهورين - فحدث أن تحرك ذلك الساحر من مكانه ثم ارتفع في الجو وقعد في الهواء فرمى إليه الفقيه بحرق بإحدى نعليه فما زالت تضربه على رأسه إلى أن عاد إلى مكانه في الأرض، وإذا كنا لا نستطيع أن نتأكد من صحة هذه الحادثة فإنه من المعلوم أن أعمال السحر والشعوذة وظواهرها الغريبة منتشرة في الهند بكثرة ولا يزال السحرة والمشعوذون في الهند يأتون من الأعمال ما هو أشد دهشة وأكثر غرابة من حادثة الفقيه بحرق.

❖ وفاته:

وظل صاحبنا مقيماً في الدكّن موضع احترام السلطان والأهالي، حتى وقف له بالمرصاد حاسد هندي اسمه «خداوند» يذيع عنه المفتريات، فاضطر للرحيل عنها إلى كمباية من أرض الهند أيضاً، حيث مات هناك مسموماً من قبل بعض حساده - كما تقول بعض الروايات - بسبب حظوته عند أولي الشأن هناك، وهكذا قضى العلامة بحرق نحبه غريباً بعيداً عن أهله ووطنه، عليه رحمة الله ورضوانه.



«١٣»

عثمان بن أحمد العمودي

نسبه - العمودي الأول - بطل الوادي - حروبه مع أبي طويرق - أبوطويرق يهاجم قيدون - حصار مدينة بضة - العمودي يحاصر شبوة - وفاة صاحب الترجمة - آل العمودي وأئمة اليمن - ابن مطهّر وعيسى بن بدر - الخلاف بين آل العمودي

❖ نسبه:

عثمان بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عمر بن محمد ابن الشيخ سعيد بن عيسى العمودي الذي يرفع الأكثرون نسبه إلى الخليفة الأول أبي بكر الصديق التيمي القرشي، بينما يقول البعض: إن نسب آل العمودي يتصل بحمير لا بقريش.

❖ العمودي الأول:

والشيخ سعيد بن عيسى الذي ينتسب إليه آل العمودي قاطبة ولد سنة ستمائة هجرية في مدينة قيدون بدوعن، وتلقى علومه بواسطة الأخذ الشفهي والسماع، فقد كان أميّاً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان من ذوي العزائم والجلد على الرياضات الروحية وسلوك طريق الصوفية، وقد استطاع هذا الأمّي بفضل شخصيته الموهوبة ومجاهداته أن يخلق له مكانة مرموقة بين العلماء ورجال الدين والصوفية في عصره، وأن يحشد حوله الأنصار والمريدين، وأن يكون أحد أعلام الدعاة إلى الله بين البادية

وغيرهم، وأن يؤسس له في دوعن نفوذاً روحياً تطور على مدى الزمن حتى أصبح نفوذاً سياسياً لعب دوراً مهماً في تاريخ البلاد.

وينقل السيد عبدالرحمن بن عبيدالله في تاريخه «البضائع» أن الشيخ سعيد بن عيسى والفقيه المقدم كانا أول من تصوف بحضرموت، بمعنى أنهما أول من سلك طريق الصوفية بالفعل ومشى عليها بالحال، وإلا فقد كان التصوف - هكذا أضاف ابن عبيدالله - مشهوراً بينهم مقروءة كتبه في مدارسهم، وإن منهم لمن قرأ «قوت القلوب» عن مؤلفه بمكة.

أخذ التصوف عن الشيخ عبدالله المغربي المتوفى ببلدة «كَنيْنَة»، ثم أخذ عن الفقيه المقدم محمد بن علي، وعن الشيخ عبدالله بن محمد باعباد صاحب شبام.

ومن تلاميذه الشيخ عمر بن محمد بن أبي النشوات الكندي جد آل باسودان بدوعن، والشيخ محمد بن سلمة بن عيسى بن سلمة باكثير، وكثيرون تركوا البادية بسبب دعوته وصاروا مشايخ علم وفضل بعد البداوة والجهالة، وكانت له صلة بالشيخ محمد بن سالم باوزير مولى عرف.

وكان الشيخ سعيد بن عيسى مكثراً من الطاعة والصلوات حتى قيل: إنه سمي لذلك «عمود الدين»؛ لأن الصلاة هي عماد الدين، وكان كثير التهجد بالليل مجبولاً على التواضع وكرم النفس ودماثة الخلق والحلم والرحمة بالضعفاء، كما كان كثير التنقل في المدن والقرى وأودية البادية من وادي عمد غرباً إلى وادي هود شرقاً للدعوة إلى الله وتعليم البادية، وعرف عنه تمسكه بآداب الصوفية وتخلقه بأخلاقهم، وقد سأله ذات يوم العلامة الشيخ أحمد بن أبي الجعد عن حال الشيخ من الصوفية فقال:

«حرام على الشيخ النجاح إذا رضي أن يقال له: يا شيخ، بل لا بد للشيخ أن يكون جوَّال الفكرة جوهري التفكير جميل المنازعة كريم المراجعة عظيم الحلم كثير العلم واسع الصدر، يذكر الغافل ويعلم

الجاهل، لا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة، مأموناً على الأمانات بعيداً عن الخيانات، لا يجهل على من جهل عليه، مسروراً بمن أتى إليه، أنساً للغريب، عوناً للمسلمين في كل أمر تعيب، أباً لليتيم معيناً للضعفاء محزوناً قلبه مسروراً بربه مستوحشاً من أهل الدنيا، لا يبخل ولا يعجل ولا ينتصر ولا يغتاظ، بل يحلم ويصفح، ولا يخوض فيما لا يعنيه، إن شُتم لا يشتم، وإن سئل لم يمنع، وإن منع لم يغضب، ألين من الزبد وأحلى من الشهد، قريباً من الخير وأهله، بعيداً عن الشر وأهله، عالماً بأصول الدين وفروعه».

وقد توفي الشيخ سعيد بن عيسى بقيدون سنة **٦٧١**هـ ودفن بجانب مسجده بعد أن وضع حجر الأساس لتاريخ آل العمودي الحافل بالشخصيات والتضحيات والمطامع والحروب والسيطرة والنفوذ، وقد خلّف الشيخ سعيد في مركزه بقيدون ابنه محمداً يستقبل الضيوف والزوار ويعمل لتثبيت هذا المركز وتلك الوجاهة في نفوس الناس، وتوارث هذا المنصب أولاده وأحفاده ولم يألوا جهداً في التحلي بالعلم وكرم الأخلاق، فازداد إقبال الناس عليهم والتف حولهم رؤساء القبائل وكثير من حملة السلاح.

وربما بلغت قوة النفوذ الروحي عند آل العمودي في يوم ما حدّاً جعلهم لا يشعرون بأية سلطة سياسية يدينون لها بالولاء والطاعة، ولهذا فكروا في الاستقلال السياسي وبسط نفوذهم المادي إلى جانب النفوذ الروحي، وكانت الفوضى التي تعيش فيها البلاد تشجع الطامحين الطامعين كما أشرت إلى ذلك غير مرة في فصول سابقة.

ونحن لا نعرف اسم العمودي الأول الذي حدث نفسه باستعمال القوة لإعلان نفوذه السياسي، غير أننا نجد في التاريخ أن عبدالله بن عثمان بن سعيد العمودي استولى على الخريبة في دوعن ووادي ليمن جميعه سنة

٨٣٧هـ، أي بعد حوالي مائة وسبعة وستين عاماً من وفاة الجد الأول لآل العمودي، ومن المحتمل جداً أن يكون قبله من أسلافه من حاول محاولات أقل خطراً من احتلال وادٍ بأكمله ومهد لمن جاء بعده التوسع في الاستيلاء.

وآل العمودي من أصحاب النفوذ الروحي الذين حملوا السلاح وظلوا متشبثين به كوسيلة لحفظ مركزهم والدفاع عن مصالحهم، وربما كانت مطامحهم السياسية أو الظروف التي زجت بهم في ميدان السياسة من أهم العوامل التي دفعت بهم إلى التشبث بحمل السلاح إلى هذا العهد حيث كانت العصبية القبلية وحدها هي التي تقوم في الغالب مقام التجنيد لحفظ ما تحت سيطرتهم من مناطق، وحيث لا يمكن الاطمئنان إلى ولاء القبائل الأخرى التي كثيراً ما تنقض ولاءها لأتفه الأسباب.

❖ بطل الوادي:

والعمودي الذي يتولى مشيخة قيدون وتزعم الحركات بها يكون - عادة - من الفقهاء ورجال الدين، فقد كان متوليها الشيخ عمر بن أحمد - شقيق صاحب الترجمة - من كبار أهل العلم المشهود لهم بسعة الاطلاع، وقد تولى المشيخة بعد أبيه على طريقة سلفه، فلما رأى اضطراب الأمور وتحول ذلك النفوذ الروحي إلى سلطة سياسية فضل الخروج من الميدان وترك الأمر لأخيه عثمان، ويقال بأن العامة في دوعن كرهته وعزمت على قتله؛ لأنه كان لا يحابي أحداً ولا يحسن المداراة، وحمل الناس على تنفيذ القانون الشرعي بكل شدة وصرامة، فاعتزل السياسة وذهب إلى الحجاز حيث توفي بالقنفذة مرجعه من الحج سنة **٩٤٧هـ**.

وعلى هذا يكون الشيخ عثمان بن أحمد قد آلت إليه مشيخة قيدون وتزعم الشؤون السياسية والحركات الحربية لآل العمودي في دوعن في

النصف الأول من القرن العاشر عقب اعتزال أخيه عمر حكم الوادي وسياسته، وإذا قلت: إن هذا الرجل هو بطل وادي دوعن الأول من آل العمودي فليس في ذلك شيء من المبالغة، لقد قضى الجانب الأكبر من حياته يبذل الجهود المضنية ويقوم بالمغامرات الخطيرة ويحشد الجموع ويؤلب القبائل حتى كان أبرز رجال السلطة في ذلك العهد بعد أبي طويرق وأشدهم بأساً وأكثرهم قوة، ولقد لقي السلطان بدر أبو طويرق منه أشد العناء وقاسى بسببه كثيراً من المتابع دون أن يستطيع التغلب عليها.

❖ حروبه مع أبي طويرق:

قلنا: إن الشيخ عثمان العمودي كان خصم أبي طويرق العنيد الذي عارضه في سياسته وألَّب عليه القبائل وأثارها عليه حرباً شعواء لا تهدأ إلا لتستعيد نشاطها من جديد، وكان أبو طويرق يعلم حق العلم خطر العمودي على سياسته، فأعد كل ما في استطاعته من قوة مصمماً على سحق منافسه الخطير والقضاء عليه، ولكن سياسته في هذه الناحية منيت بالفشل وتحطمت قواته أمام معنوية العمودي التي لم تؤثر عليها تلك البنادق الجهنمية التي كان يتسلح بها جنود بدر والتي أمدهم بها مصطفى أغا قومندان الأسطول التركي.

وعندما رضخ أبو طويرق لسلطان الأتراك وأعلن تبعية بلاده لسليمان القانوني عاهل الترك، أعلن العمودي عدم موافقته على هذا التصرف وانحاز إلى إمام الزيدية في اليمن، وكوَّن بذلك جبهة سياسية تعارض سياسة أبي طويرق، وظل خلفاؤه من آل العمودي موالين لأئمة اليمن الزيود مدة حكمهم السياسي في دوعن على العكس من سلاطين آل كثير الذين لم تكن علاقات بعضهم بأئمة اليمن ودية.

ولم يكن موقف العمودي من أبي طويرق موقف المدافع الذي يقنع بالسلامة متى خلّى سبيله وترك له ما تحت يده، بل كان يبادئه بالهجوم

ويشن عليه الغارات في الساحل والداخل، فقد أغار مرة على «تبالة» من ضواحي الشحر في جمادى الآخرة سنة ٩٣٨هـ، وكان بها أموال لتجار الشحر حصَّنوها فيها؛ خوفاً من هجمات البرتغاليين، وفيها جوخ وزئبق ومرجان وبضائع أخرى ثمينة، فأخذ العمودي تلك الأموال جميعها وعاد بها إلى دوعن، واستولى عقب ذلك على القرين وبقية بلدان أبي طويرق في الوادي الأيمن، ثم انصرف إلى الوادي الأيسر واستولى عليه جميعه.

وأرسل مرة أخرى جنداً بقيادة أخيه عبدالله لمهاجمة الشحر، فوصلوا إلى فوَّة وأتلفوا بعضاً من النخيل، واشتد خوف أهالي الشحر وغيل باوزير منهم، ولكن الجند العمودي عاد إلى دوعن لأسباب حربية بعدما صالحه أهالي فوَّة على مال.

لم يكفّ العمودي عن إثارة القبائل ضد أبي طويرق، فقد أثار باحكيم في «القزة»، وأثار آل بامشموس فاستقلوا بحجر، واتفق مع رؤساء نهد على أن يجمعوا له خيلاً كثيراً وجنداً كثيفاً، وتعهد بأن يدفع هو أكثر نفقات الجيش، فاجتمع لديه عدد كبير من الجنود هاجم بهم المناطق الغربية للسلطنة الكثيرية وحاصر شبوة، ثم استطاع أن يغري كثيراً من قبائل البادية والعوامر والشنافر بالثورة، فاستولت القبائل المتحالفة على بور، وحاصروا هينن وأغاروا تحت شبام، كما هاجموا تريم أيضاً، وهكذا كان العمودي مبعث قلق وإزعاج شديدين لأبي طويرق.

❖ أبو طويرق يهاجم قيدون:

وقد اضطر أبو طويرق أثناء حروبه مع العمودي أن يهاجم مدينة قيدون التي ينظر إليها الناس نظرة تقديس بفضل وجود جثمان الشيخ سعيد بن عيسى بها، فنهبها جنده وخربوا كريفّها «خزان الماء» وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً حتى خرج النساء والصبيان هاربين لائذين بالمسجد الجامع من فظائع الجند، وقد احتل الجيش مدينة قيدون، وظل فريق من حاميتها متحصناً في

حصن قيدون المنيع، فحاصرته الجنود الكثيرية مدة حتى وصلت أكياس من النقود أرسلها الباشا التركي من عدن فأدخلت إلى قيدون في مهرجان عظيم، وأبرقت عينا رئيس الجند العمودي للنقود، فلم يلبث أن انحاز إلى السلطان بدر وغدر بالعمودي.

ورأى أبو طويرق أن يخلي قيدون من السكان، فنقل التجار أولاً إلى صيف ثم نقل بقية الأهالي حتى لم يبق بها إلا ست عائلات في ستة بيوت، وهكذا لم تقف حرمةُ مدينة قيدون وقداستها حائلاً بين أبي طويرق وبين تنفيذ أغراضه الحربية.

وفي ذي القعدة من سنة **٩٤٩**هـ حاول أبو طويرق أن يهاجم العمودي في «بضة» مقر سلطته فلم يستطع؛ لأن العمودي بنى حصناً في مدخل الوادي وشحنه برماة البنادق، فعاد السلطان بدر بطريق «ريدة بامسدوس»، ونزل إلى الوادي من عقبة الخريبة ومعه جند ليس بالقليل بينهم مائة وستون فارساً، فخرب ساقية بضة بعد معركة قتل فيها عدد من الفريقين وبنى عليها ثلاثة حصون، وترك فيها حاميات أمرهم بأن يحولوا دون كل محاولة لعمارة الساقية، ثم عاد إلى وادي حضرموت في ذي الحجة من ذلك العام.

❖ حصار مدينة بضة:

وفي شعبان من سنة **٩٥٥**هـ حاصرت جماعة من جنود السلطان بدر مدينة «بضة»، وكانوا تحت قيادة الأمير يوسف التركي والأمير علي بن عمر الكثيري وأخذوا يرمونها بالمدافع، وكان ذلك بعد انتقاض الصلح بين الفريقين الذي كان من أسبابه أن الفقيه بحرق - عامل بدر على منطقة الكسر - قبض على أبناء آل عامر في هينن وسجنهم بالهجرين، وأرسل يخبر بذلك السلطان بدراً وكان إذ ذاك في مدينة الشحر، واتفق أن كان لديه جماعة من آل عامر على رأسهم ثابت بن علي بن فارس وريِّس بن محمد بن علي بن فارس، فأمر بأخذ خيلهم، وعلموا بذلك فهربوا قبل أن يتمكن

من القبض عليهم.

فكان ذلك سبباً في انتقاض الصلح واضطراب الحبل واجتماع العمودي وآل عامر وآل عبدالعزيز والعوامر والشنافر ضد السلطان بدر واستيلائهم على بور ومهاجمتهم تريم كما سبق، وكان ذلك أيضا مًن بواعث هياج آل عامر الذين هاجموا هينن وزحفوا إلى «بضة» لفك الحصار عنها، وقد استطاعوا بمساعدة عساكر العمودي أن يفرقوا الجنود المحاصرين للمدينة بعد معارك قتل فيها عدد من الفريقين.

❖ العمودي يحاصر شبوة:

وهاجم العمودي صِيْف وفرق عنها عساكر السلطان بدر، ثم سار إلى «حبان» فأصلح بين قبائلها، ثم اتفق مع ثابت بن علي بن ثابت ومحمد بن علي بن سليمان وجمعوا خيلا كًثيرا وًجنودا تًعهد العمودي بأكثر نفقاتهم واتجه بهم نحو شبوة فحاصرها أشد الحصار، وقد حاول الأمير علي بن عمر - عامل بدر في شبوة - فك الحصار فلم يفلح؛ لأن قوات العمودي ونهد المحاصرة كانت من القوة بحيث لا يمكن التغلب عليها.

وفي رجب سنة ٩٥٦هـ اضطر السلطان بدر لأن يعقد صلحاً مع العمودي؛ حيث فشلت كل المحاولات للقضاء على سلطته، وكان ذلك آخر صلح عقد بين الفريقين امتد إلى أن ألقي القبض على أبي طويرق وزجّ به في المعتقل، وكان كل صلح يعقد قبل ذلك يعقبه اشتعال نار الفتنة من جديد.

❖ وفاة صاحب الترجمة:

توفي الشيخ عثمان بن أحمد العمودي بعد حياة زاخرة بالكفاح والنضال، تاركاً لخلفائه من بعده مهمة المحافظة على ذلك التراث الذي أراق من أجله الدماء وبذل الجهود، ولم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى تاريخ وفاته، ولكنها تذكر أن حرباً نشبت بين السلطان عمر بن بدر أبي

طويرق وبين الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله العمودي الذي يلي مشيخة قيدون في حدود سنة ألف وأربعة عشر، وعلى هذا يكون صاحب الترجمة قد توفي قبل ذلك التاريخ.

وإلى الشيخ عثمان يشير الشاعر الصوفي الكبير عمر بامخرمة بقوله:

يا عوض قل لمن كفُّه غياث المساكين قل لعثمان وافي الذرع شمس البراهين

وقد سجل الشيخ عبدالصمد باكثير شاعر السلطان عمر بن بدر تلك المعركة التي دارت بين الوجيه الشيخ عبدالرحمن العمودي والسلطان عمر بن بدر في قصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

جَرَّ الوجيه خميساً من عساكره مذ جَرَّه التيه والطغيان والغرر
فجندوا جندهم بالغيل إذ عميت أبصار أفكارهم هذا هو الخطر
حتى رماهم أبو بدر ومزقهم بجحفل قاده التأييد والظفر
ظلت أسود الشرى حشو الدروع على الجرد المذاكي ونار الحرب تستعر
تفري جماجمهم ضرباً وتوسعهم طعناً فكم صرعوا قتلى وكم أسروا
وللبنادق وقع في عساكرهم وللنحور فيا لله كم نحروا
والترك لم يتركوا رأسا عًلى جسد ولا بضرب القصيري منهم اقتصروا
لله بالنقعة الغراء معترك دُسْنَا الأعادي به والنقع معتكر
فكان أسعدهم من فر منهزماً يبغي النجا حيث لا منجى ولا وزر

وهذه القصيدة تذكر الموضع الذي دارت فيه المعركة «النقعة» والبلدة التي تجمع فيها جنود العمودي الغيل، وتشير إلى اشتراك الأتراك في هذه الحرب ضد العمودي وانتهاء المعركة بهزيمة جيش الوجيه وقتل بعضهم وأسر البعض الآخر، وإن كان الشاعر في سرده للحادثة يعبر عن وجهة نظر السلطان عمر بن بدر فقط وينظر إليها من زاوية واحدة.

آل العمودي وأئمة الزيود:

قلنا - فيما مضى - إن الشيخ عثمان العمودي انحاز إلى إمام الزيدية في اليمن وكوَّن بذلك جبهة سياسية تعارض سياسة أبي طويرق الذي أعلن تبعية بلاده للخلافة العثمانية، وإن خلفاءه من آل العمودي ظلوا موالين لأئمة اليمن مدة حكمهم السياسي في دوعن، حتى إن القائم منهم بالأمر سنة ألف وسبعين هجرية وهو الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي المكنى «أبو ست» طلب من الإمام في صنعاء أن يعقد له ولاية رسمية على دوعن، فأجابه الإمام وكتب له بما طلب.

ولما غزا الزيود حضرموت سنة **١٠٧٠**هـ في عهد المتوكل إسماعيل كان الشيخ العمودي الشخص الوحيد الذي ساعد هذه الحملة من الحضارم، وانضم إليها بكل من أطاعه من القبائل وتقدم لملاقاتها والترحيب بها إلى أثناء الطريق.

ومما يصور لنا العلاقات الودية المتينة بين الأئمة في اليمن وآل العمودي ما ذكره المؤرخ الجرموزي في كتابه «تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية عن غرائب الأخبار» من أنه في أواخر سنة **١٠٦٥**هـ حصل سوء تفاهم بين السلطان بدر بن عبدالله الكثيري والشيخ العمودي حتى كاد الأمر يؤدي إلى اشتعال نار الحرب بينهما، فتدخل الإمام بالمكاتبة ونصح السلطان بإجابة مطالب العمودي والإسراع بعقد الصلح، فأجابه السلطان الكثيري بما يأتي من أثناء رسالة له مؤرخة في شهر محرم سنة **١٠٦٦**هـ.

«والباعث على ذلك هو إعلامكم أن النقيب الأريب حسن بن هادي بطة قد وجهناه راجعاً إلى محلكم السامي بجواب مراسيمكم الكريمة، وشرحنا لكم فيها إجابتنا على انعقاد الصلح بيننا وبين الشيخ العمودي سنة كاملة بعد أن أبدى علينا في ذلك شرائط لا نعهدها في سائر الإصلاح،

فأجبناه إليها راعياً لجبركم وطاعتكم وإيثاراً للصلاح، ثم بعد أن توجه إليكم النقيب حسن بن هادي أبدى الشيخ العمودي علينا شرائط غير السابقة تشق علينا غاية المشقة؛ لأنها غير معهودة ولا موافقة، فأجبناه إلى ما اشترط علينا ابتغاء جبر خواطركم، وقصده بذلك نشمئز عن شيء منها أو نتعاظمها لفحشها وننكل عنها، وقصده أيضاً بذلك أن نصير عصاة لأمركم المطاع وأن نتباعد عنكم بعد أن كنا لكم من الأتباع».

فهذه الرسالة صريحة في أن السلطان الكثيري يجد في الرضوخ لتعنت العمودي في شروط الصلح زلفى لدى الإمام ووسيلة لتجنب سخطه، وفي ذلك ما نريد أن نقيمه من دليل على قوة ولاء العمودي لإمام الزيدية ومبلغ رضا الإمام عنه.

❖ ابن مطهر وعيسى بن بدر:

واستمر الخلاف على أشده بين آل العمودي وسلاطين آل كثير بحكم التنافس على السيطرة، فقد حدث سنة **١١١٥**هـ أن أغار الشيخ محمد بن مطَهَّر العمودي على بلدة «القزة» - وكان كثير التعرض للمناطق الكثيرية والفتك بمن يقاومه - فجمع السلطان عيسى بن بدر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر أبي طويرق عسكراً لقتاله تحت قيادة ابنه الأمير جعفر، ولما رأى العمودي جيش السلطان تقهقر بعد أن نصب له كميناً، فانطلقت عساكر آل كثير تجري وراء المتقهقرين غير شاعرة بالخطر، وإذا بالكمين يركب على أكتافهم من ورائهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة، وانسحب الأمير جعفر بفلول جيشه إلى الهجرين وأرسل إلى أبيه يطلب النجدة، ولكن الشيخ سعيد بن عبدالله باوزير تدخل في الأمر وأقام صلحاً بين الطرفين «هدنة» مدتها أربعة أشهر.

وفي أواخر رمضان سنة **١١٢٣**هـ أغار الشيخ حسن بن مطهّر على الهجرينبجماعات كثيرة من سيبان وآل باهبري وغيرهم، فنهبوا جميع ما في

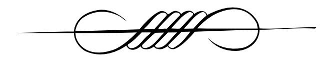
البلاد من حلي وأثاث وتمر وحبوب وحيوانات، وأقبل السلطان عمر بن جعفر ومعه أولاد عيسى بن بدر ومائتا مقاتل من يافع، فلقيهم العمودي أثناء الطريق واقتتلوا بموضع غربي «شرج باصقر» من طلوع الشمس إلى أن ارتفع النهار، فانهزم العمودي وقتل من عسكره الكثير، وقرر السلطان أن يتعقبه إلى دوعن لولا توسط الشيخ علي بن سعيد باوزير وعقده صلحاً بينهما لمدة ثلاثة شهور.

❖ الخلاف بين آل العمودي:

في أواخر القرن الثاني عشر الهجري كان الخلاف بين حكام الوادي من آل العمودي قد استحكمت حلقاته وتوسعت شقته، وكان ذلك نذيراً بذهاب قوتهم وتضعضع سلطانهم، وقد أدى هذا التنازع والانقسام فيما بينهم إلى التجاء بعضهم إلى الكسادي أمير المكلا مستنصراً به على منافسيه من أبناء عمومته، فأرسل الكسادي سنة ١٢٨٦هـ جنوداً برئاسة مجحم بن أحمد مجحم استولى على أكثر وادي ليمن، ولكن آل العمودي بعد أن تضايقوا من معاكسات جنود الكسادي ومشاكساتهم عادوا فتضامنوا للتخلص من هذا الاحتلال، ودارت بين الفريقين معارك انتهت بجلاء عساكر الكسادي عن دوعن.

ولكن المنافسات والضغائن ظلت مستمرة بين الرؤساء منهم، الأمر الذي أدى إلى إرهاق سكان الوادي بالضرائب الفادحة الغير منتظمة وظلمهم والجور عليهم، وازداد تذمر الأهالي وسخطهم حتى أن نفراً منهم لاذوا بالسلطان القعيطي بالمكلا وطالبوه بالتدخل لإنقاذهم، وكان ذلك بعد جلاء الكسادي عن المكلا، فاستقدم القعيطي الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عبدالكريم أحد رؤساء آل مطهّر واتفق معه على أن تكون السلطنة القعيطية هي المسؤولة الأولى في مناطق نفوذه مقابل نفوذ محدود له داخل

منطقته، وكان هذا بداية التدخل القعيطي في حكم دوعن، كما كان بداية النهاية لحكم آل العمودي الذي امتد قروناً طويلة، وسنذكر في ترجمة السلطان عوض بن عمر القعيطي من الحوادث ما يتصل بهذه النهاية.



«١٤»

بدر بن عمر الكثيري

نصير الزيدية - اختلافه مع ابن أخيه - تدخل الإمام في الأمر - مؤامرة - السيف أصدق من الكتب - النفير للحرب - الأخطار التي تعرض لها الجيش - آخر مفاوضة تفشل - بدء القتال والمعركة الفاصلة - السلطان يطلب الأمان - بدر بن عمر يستعيد سلطنته - اختفاء السلطنة الكثيرية.

❖ نصير الزيدية:

السلطان بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق تولى السلطنة سنة ألف وأربع وعشرين هجرية بعد أخيه عبدالله بن عمر الذي خلع نفسه واعتزل السياسة، قال عنه السيد محمد بن هاشم في كتابه «تاريخ الدولة الكثيرية»: «كان السلطان بدر بن عمر آية في الجود والسخاء، يحب الخير وأهله، ويكره الشر وأهله، أقام للشرع الشريف بحضرموت محاكم عديدة، وبنى عدة مساجد منها مسجد الحصن الذي بسيئون، ومسجد السلطان الذي هو شمالي حصن الرّناد بتريم ووقف عليها أموالاً كثيرة كافية».

«ولم تكد تستقر قدما السلطان بدر بن عمر في الولاية حتى تصدى له ابن أخيه بدر بن عبدالله بن عمر بالأذى وإذكاء المكايد حوله، فلجأ إلى موالاة أئمة اليمن وأخذ يكاتبهم ويستنجد بهم، وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدي فازدادت الهوة اتساعاً والحالة حرجاً»[1]، وساعدت هذه الإشاعة

(١) تاريخ الدولة الكثيرية.

على نفور الناس منه.

وقد ذكر الجرموزي أنه لما حج السلطان عبدالله بن عمر سنة ألف وأربعين واستخلف أخاه بدراً تبادل هذا مع الإمام الرسائل والمكاتبات في غيبة أخيه، ويمكن القول بأن بدر بن عمر كان مخلصاً في ولائه للزيدية شديد التعلق بهم، بصرف النظر عن الظروف التي مهدت لتوطيد هذه العلاقة.

وبدر بن عمر هذا هو جد آل عيسى بن بدر، الذين كونوا لهم دويلة منفصلة عن سلطنة آل عبدالله بن عمر، وكان آخر سلطان في آل عيسى بن بدر هو منصور بن عمر الذي قتلته يافع في شبام سنة **١٢٧٤**هـ.

اختلافه مع ابن أخيه:

ومهما قيل في أسباب الخلاف بين بدر بن عمر وابن أخيه بدر بن عبدالله فإن الأخير كان طامعاً في السلطنة ويرى من نفسه القدرة والكفاءة لتصريف سياسة البلاد، وقد استغلّ علاقة عمه بالإمام في تنفير آل كثير عنه، وكذلك في إثارة الرأي العام في حضرموت الذي لا يميل إلى الزيود لاختلافهم معهم في المذهب والعقيدة.

وهكذا كانت سياسة بدر بن عبدالله إبعاد الزيدية عن التدخل في شؤون السلطنة الكثيرية واستقلاله بحكم البلاد، وقد طفق منذ تولي عمه السلطنة يجمع آل كثير والشنافر ويعقد معهم المؤامرات السرية ضد عمه، ويهول لهم الأمر في موالاته للزيدية، ويزعم لهم أنه سيسهل لهم احتلال حضرموت، وساعده في ترويج هذه السياسة والدعاية لها جماعة من العلويين وغيرهم من العلماء ورجال الدين.

قال الجرموزي: «وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبدالله بن عمر، فاحتال هؤلاء على عمهم وقبضوا عليه وعلى أولاده وجميع ما يملكه وجعلوه في حصن لهم، وحلف آل كثير للسلطان بدر بن عبدالله،

فساس البلاد وأطاعه أهلها، وكانت له ملابسة للسياسة ومراعاة لأسباب الرئاسة فكان أكمل من عمه وأنهض، فأحبّه أهل تلك الجهات ولكونه لم يوال الإمام عليه السلام...».

وقيل: في كيفية الهجوم للقبض على السلطان بدر بن عمر - إن نحو أربعين من آل كثير وعشرة من مواليهم توجهوا إلى حصن سيئون من بين المدعوّين في وليمة أقامها السلطان بمناسبة زواج بعض أقاربه، ولما فتح لهم الباب دخلوا بعنف، وفتكوا بمن قاومهم حتى دخلوا على بدر بن عمر فاستسلم بدون مقاومة، وحاول ابنه محمد المردوف المقاومة فانتهره أبوه وأمره بالاستسلام فقيدوهما معاً ثم أرسلا مكبلين بالأغلال إلى حصن مريمة، حيث سجنا هناك، ثم نقلا من مريمة إلى تريس، وكان ذلك سنة ١٠٥٨هـ.

تدخل الإمام في الأمر:

علم الإمام المتوكل إسماعيل بالقبض على بدر بن عمر وأنه إنما اعتقل بجريرة موالاته له، فعدّ ذلك تحدّياً له وإهانة موجهة إليه، وكتب إلى بدر بن عبدالله يأمره بإطلاق سراح عمه، فأجابه هذا برسالة في شهر رمضان سنة ١٠٦٥هـ تتضمن إجابة الإمام إلى ما طلب من إطلاق سراح عمه والتنازل له عن ولاية ظفار ومتعلقاتها إلى آخر رسالته التي ملأها بعبارات التودّد والإخلاص وإظهار الولاء والطاعة، الأمر الذي وصفه الجرموزي بأنه لون من التلوّن والمداجاة.

واعتذر بدر بن عبدالله للإمام من اعتقال عمه بما يلي من نص رسالته للمتوكل إسماعيل:

«فأحل بنا من ضيق المعاش ما يهون مقاساة الموت دون مقاساته وصبرنا على ذلك حتى عيل منا الصبر، ولما خشينا على أنفسنا الهلاك قدمنا على العم بدر وأولاده وما ظننا أن نسلم من قبل ذلك الأمر، ولما

ضممناهم قمنا بهم وبمكالفهم ومن يلوذ بهم وقمنا لهم بالواجب من النفقات وغيرها. . . وما كان سبب طلوعنا على العم بدر إلا خوفاً على أنفسنا. . . وربما رفعوا إليكم أعداؤنا وحسادنا أن لا سبب لثأرنا على العم إلا قيامه بطاعتكم، فلا والله العظيم إنما السبب ما أوضحناه لكم في هذا المكتوب».

وهكذا لا يتردد السلطان بدر بن عبدالله في إعلان الولاء والطاعة في كل رسائله التي يبعثها للإمام إذ لم تكن عنده القوة الكافية للجهر بآرائه السياسية في إبعاد التدخل الزيدي عن شؤون حضرموت، وقد كانت حكومة اليمن من جانبها تسعى جاهدة لربط حضرموت باليمن سياسياً وإدارياً، وهذه الرسالة الآتية صريحة في تمسك الإمام بحقه في الإشراف المباشر على شؤون السلطنة الكثيرية وحتى في فرض الرجوع إلى مذهب أهل البيت في الأحكام والعقائد، كأنه يريد العمل بالمذهب الزيدي بين أهل حضرموت الشوافع، فقد جاء في رسالته إلى السلطان بدر بن عبدالله بن عمر المؤرخة سنة ١٠٦٧هـ ما يلي:

«وقد أرسلنا إليكم القاضي شرف الدين الحيمي لأخذ البيعة والعهد منكم، وليساعدكم في أمور الإصلاح ونشر أحكام الشرع، ونصب النواب والحكام، وإحياء السنة ومحو آثار البدع، والتذكير بحق الله ورسوله وحق أهل بيته المطهرين والالتجاء إلى أهل البيت في الأحكام الشرعية والعقائد، وأخذ ما أمر الله بأخذه من نحو الصدقات والمظالم، وصرف القدر الذي أمرنا بصرفه في مواضعه، وإيصال ما بقي إلينا لنضعه حيث أمر الله».

وقد وصل القاضي الحيمي إلى هينن بتاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ١٠٦٧هـ، فلقي السلطان بدر بن عبدالله هناك، وكان قد جاءها لقضاء بعض مهام السلطنة فسلم إليه الرسالة والعهد، ثم انتقلا إلى سيئون عاصمة السلطنة حيث قرأ القاضي الحيمي على الخاصة والأعيان عهد الإمام

المتوكل للسلطان بدر بن عبدالله.

وتحسنت العلاقات في الظاهر بين الإمام وبين السلطان بدر بن عبدالله بعد إطلاق سراح عمه وتوليته حكم ظفار ومتعلقاتها وتبودلت الهدايا والرسائل، وهذه صورة من رسائل بدر بن عبدالله للإمام في رمضان سنة **١٠٦٧**هـ.

«والصادر إلى حضرتكم الشريفة العلية الإمامية المحمدية من الخيْل الكرام باسم الهدية ثلاثة رؤوس: فمنهن فَرس نعامة صفراء مليحة، ومنهن فرس كحيلة حمراء جيدة، والثالث من الرءوس سميطان أصفر، تفضلوا بقبول تلك الهدية، وإن كانت تافهة غير سنيّة، وكذلك الصادر من الخيل الجياد في مقابل ما تقرر علينا لبيت المال من الزكاة والفطرة ثمانية رءوس حسبما ذكرناها لكم في كتاب مفرد بيد القاضي الجليل، ثم قبيل ما تقرر لكم من محصول بندر الشحر المحروس من الرسم الهندي وما تقرر مما رسم على البانيان في مدة ثلاثة شهور **٢٢٠** و**٣٠٠** حرف و**١٥** ذهب أحمر: الذهب الأحمر محسوب بستمائة وثلاثين قرشاً والذي من الموسم الهندي سنة **١٠٦٧**هـ وكذا الذي على البانيان **٨٥٠**، ومرسل إليكم هدية باسم محمد ابن الإمام رأسان من الخيل، ولأخيه صفي الدين رأسان أيضاً، وإليه من ولدنا عبدالله رأس من الخيل وحلية لفرسه هدية، ولأخيه حسام الدين حصان، والسلام».

❖ مؤامرة:

بعد أن تولى بدر بن عمر حكم ظفار حدث أن احتجز السلطان بدر بن عبدالله لنفسه مزرعة في ظفار؛ بحجة أنها كانت لأبيه فعدّ عمُّه ذلك تحككاً به وتدخلاً فيما فوض إليه من قبل الإمام، وعاد المتوكل إسماعيل يتدخل في النزاع ويأمر بأن تكون ظفار خالصة لبدر بن عمر، فينفذ أمره ويكف بدر بن عبدالله عن التعرض للمزرعة، ويكتب للإمام رسالة جاء فيها:

«وأمرنا الخادم أن يتركها له وإن كانت لنا؛ لأن قصدنا جبره في كل حال، ولأن الحال واحد، حال ولد ووالد، ربما تتوهمون أننا نشاركه في شيء من منافع ظفار حيث تعلمون أنا نسفّر شيئاً من المراكب إليها لأجل النوال، ونشتري اللبان مثل الأجانب، والآن إن رضي الوالد - حفظه الله - أننا نترك تعهد البندر بمراكبنا مثل تعهد الأجانب تركناه ابتغاء لما فيه رضاكم ورضاه».

والمعروف أن السلطان بدر بن عبدالله من أغنياء سلاطين آل كثير، وكان يملك في ظفار غابات من اللبان ومعامل واسعة لتصفيته وشحنه في سفنه الخاصة لبيعه في الثغور المجاورة، وكان يملك في حضرموت غيل تاربة الذي يساوي عشرات الألوف من الريالات والذي يدر عليه أموالاً وافرة، فكان من الطبيعي أن يترك استقلال عمه بشؤون ظفار أثراً سيئاً في نفسه يحمله على التخلص منه واستعادة هذه المنطقة الغنية وضمها إلى سلطته التي تخضع له مباشرة.

لذلك اتفق السلطان بدر بن عبدالله مع أخيه جعفر على احتلال ظفار بالقوة وطرد عمهما منها، واحتالوا في تنفيذ مؤامرتهم هذه - كما تقول بعض الروايات - بطريقة فيها كثير من الغش والخداع، فقد أوعز بدر بن عبدالله إلى أخيه جعفر أن يكتب إلى عمه بدر مظهراً له أنه سيسافر إلى الهند بطريق ظفار، وأنه سيقدم عليه ماراً بطريق سماها له، فخرج بدر بن عمر للقائه، وكان قد ارتاب في ما كتب إليه جعفر وصدق ظنه، فإن جعفراً قد سلك بمن معه من جنود طريقا غَير التي سماها لعمه وأسرع بهم إلى ظفار، واستولى على الحصن وقتل ابن عمه، وهكذا تم تنفيذ المؤامرة التي دبرت في سيئون عاصمة السلطنة.

ولم يكن بُدٌّ للسلطان المخدوع من الهرب بطريق البحر، فقد سافر إلى بلاد المهرة ثم منها إلى عدن، حيث واصل سفره إلى اليمن لمقابلة الإمام

والتحدث إليه بكل ما حصل من بدر بن عبدالله وأخيه جعفر، فأحسن الإمام استقباله وتلقاه الجند ومن بحضرته من العلماء ونزل ضيفاً كريما عَلى الإمام.

❖ السيف أصدق من الكتب:

استطاع الأمير بدر بن عمر أن يوغر صدر المتوكل بما أفضى إليه من أحاديث تتعلق بابن أخيه بدر بن عبدالله وأياديه الخفية في محاولة التخلص من سيطرة الإمام على السلطنة الكثيرية والحد من سلطته مهما كانت اسمية ومرنة، ولم يتردد المتوكل إسماعيل في صحة الأنباء التي أفضى بها إليه الأمير المطرود، فكتب إلى السلطان بدر بن عبدالله يستفسر عن الأسباب التي حملته على الإقدام على تدبير الحيلة المكشوفة لاحتلال ظفار والاستهانة بأوامر البيت الهاشمي في اليمن، فرد عليه السلطان بدر بن عبدالله كعادته في المراوغة والتملص يتنصل من تبعة حادثة ظفار ويلقي مسؤوليتها على أخيه جعفر، وقال: إنه لم يكن على علم بما حدث.

وتبودلت بينه وبين الإمام عدة رسائل لم تؤثر في جلاء الموقف وإقناع الإمام.

وفي رمضان سنة **١٠٦٩**هـ أرسل بدر بن عبدالله رسالة إلى الصفي أحمد أحد كبار رجال الدولة من الزيود الهاشميين لا تخرج في معناها وأسلوبها عن الرسائل التي كان يبعثها إلى المتوكل إسماعيل، وكان الصفي أحمد قبل ذلك طامعاً في انقياد السلطان بدر ولكنه يئس منه أخيراً، وقال بعد قراءته الرسالة: قد غششنا الإمام بانتظارنا لهذه المكاتبة التي هي خديعة لا محالة، ثم التفت الصفي أحمد إلى رسول السلطان بدر وقد سلمه رداً على الرسالة قائلاً: قل للسلطان هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي هذا، وأراه السيف، وبهذا الإنذار النهائي انتهت المفاوضات الكتابية، وتحرجت الحالة وأصبح الطرفان في حالة حرب.

❖ النفير للحرب:

لم يكن بُدٌّ من استعمال القوة لحل ما عجزت المفاوضات والمكاتبات عن حله، فأصدر الإمام المتوكل أمره بالتعبئة العامة ودعوة الناس في اليمن إلى الحرب، وأسند القيادة العامة للجيش إلى الصفي أحمد بن الحسن أحد كبار رجال الزيدية والذي سبق ذكره.

تحرك الصفي أحمد بمن حضر معه من الجند في يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٠٦٩هـ، ولم يكد يصل إلى موضع يقال له «المربك» من أعمال جبل اللوز حتى اجتمع إليه من الجنود ألفان ومن الخيل مائة، وأمده الإمام بأدلاء خبراء يهدونه الطريق إلى حضرموت، ثم واصل سيره ماراً بأهم المناطق التي يوجد بها كثير من القبائل الراغبة في الالتحاق بالجيش، فكان كلما مر بقبيلة انضم إليه عدد من رجالها، فانضم إليه كبار رجال خولان وأشراف الجوف ومشايخها وقبائل المعظّة وعبيدة وغيرهم.

وكان المتوكل إسماعيل يواصل إمداد الصفي أحمد بالمال والرجال فيلحقون به أثناء الطريق، فقد جهز ابنه محمداً في نحو ثلاثة آلاف يتسلح أكثرهم البنادق وبينهم ما يقرب من مائة وخمسين فارساً، وأرسل إليه من رداع نحواً من خمسين فارساً وأربعمائة راجل، ومن أصحاب الأمير علي ابن المؤيد أربعة وعشرين فارساً، ومن كوكبان عسكراً وخيلاً كثيراً، ومن أصحاب محمد بن الحسين زهاء ألف جندي، ومن «الحيمة» أكثر من ألف جندي أيضاً جُل سلاحهم البنادق، ووَكل نظامهم إلى ابنه محمد، وضم إليه العلامة أحمد بن الهادي والرئيس الكبير شرف الدين بن مطهر، والفقيه المجاهد علي بن صلاح الحملولي وغيرهم من السادة ورؤساء العسكر.

وأمر الإمام أيضاً السيد عز الدين بن دريب والقاضي الحسن بن أحمد الحيمي والقاضي الهادي الحارثي أن يسيروا بمعية السلطان بدر بن عمر الكثيري وأولاده فيلحقوا بالصفي أحمد، وكان الإمام قد أحسن إلى

السلطان بدر كثيراً وأجزل له العطاء وطيب خاطره.

كانت هذه الإمدادات تصل إلى القائد الأول متقاطرة وهو يواصل سيره في طريقه إلى حضرموت، وكانت آخر هذه الإمدادات قد وصلته وهو بـ«واسط» من بلاد العولقي، ومن هناك استأنف سيره بعدما رضي عن كثرة جيشه ووفرة عدده وكامل عدته.

❖ الأخطار التي تعرض لها الجيش:

بمجرد ما نتصور أن الصفي أحمد قد قطع بجيشه المسافة ما بين الموضع الأول الذي تحرك منه إلى أن وصل حضرموت في نحو عشرة أشهر نعرف مدى المصاعب والمشقات التي يتعرض لها جيش كثيف كهذا يمر بمناطق لا يوجد فيها ما يلزم لتموين الجيش ودوابّه من ماء وغذاء، فقد اضطر الجيش أن يحفر في بعض الطرق التي يمر بها آباراً بلغ عمقها إلى مائتي ذراع لسد حاجة الجيش إلى الماء، وكان الخطر الأكبر الذي تعرض له الجيش عندما كان يمر بجبل السوط بعدما ارتحل من ميفعة قادماً إليها من بلاد العوالق وبلاد الواحدي التي من بينها ميفعة أيضاً، فقد نفد ما كان مع الجيش من زاد وهلكت الجمال ووقع الجيش في مجاعة حتى إنهم كانوا يأكلون ما عَيِيَ من الجمال بدون نحر.

ولكن الشيخ العمودي حاكم دوعن وصديق الزيود الذي قدم للقاء الجيش ومساعدته عندما رأى ما فيه الجيش من شدة، أمر القبائل التابعة له بجلب كل ما قدروا عليه لتموين الجند فأتوهم بالطعام من الحبوب والدوم والسمن واللبن والمواشي وباعوه منهم وأضافهم الشيخ العمودي بثمانمائة جمل وعدد كبير من البقر والغنم.

وأقام الجيش في وادي يبعث ثلاثة أيام كان معظم زاده فيها من الدوم «ثمر السدر» الذي كان يرسله إليهم الشيخ العمودي، فكانوا يأكلونه مع نواه من شدة الجوع.

وكما تعرض الجيش لأخطار الجوع، وقلة الماء، وصعوبة الطريق كانت بعض القبائل الموالية للسلطنة الكثيرية والمجاورة لحدود حضرموت الغربية تشاغب الجيش اليمني وتفتك برجاله كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

❖ آخر مفاوضة تفشل:

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الإمام تزحف إلى حضرموت كانت رسل الإمام تفاوض السلطان بدر بن عبدالله وتطالبه بأن ينفذ ما تعهد به من إرسال حملة إلى ظفار؛ لتأديب أخيه جعفر واسترداد ظفار منه والقبض عليه أو طرده، فيعتذر السلطان بدر بأنه لا يقبل أحد من آل كثير الاشتراك في هذه الحملة بحجة أنهم لا يستطيعون أن يغادروا بلادهم لتخلفهم فيها الجنود الإمامية، لذلك فهو يقترح أولاً إيقاف الزحف وأن تعود الجنود إلى اليمن على أن يتكفل هو بدفع جميع النفقات التي استهلكها الجيش، ولكن الإمام يصر على استرداد ظفار والقبض على الأمير جعفر، فتفشل المفاوضات، وتعود رسل الإمام بهذه النتيجة.

وأيقن السلطان بدر بن عبدالله بأن جيوش الزيود ستكتسح بلاده، فاستشار خاصته وذوي الرأي من أنصاره العلويين وغيرهم فأشار عليه البعض بالتسليم وعدم المقاومة، وحثه الأكثرون على قتال الزيدية وحربهم، ففضل المقاومة واستعد للقتال.

❖ بدء القتال والمعركة الفاصلة:

انحدر الصفي أحمد بجيشه من ريدة الديِّن إلى وادي حضرموت حيث عسكر بالقرب من الهجرين، وكان السلطان بدر قد حشدَ جنوده قريباً من سَدْبة، وبينما كان جنود الإمام في معسكرهم خرج بعض من الجند في يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة ١٠٧٠هـ يطلبون العلف لدوابهم حتى قاربوا مدينة الهجرين فرماهم حاميتها، وكانوا سبعين من حملة البنادق، فتداعى من كان بالوادي من جنود الإمام وحملوا عليهم واستولوا على البلد

بعد أن قتلوا حاميتها وغنموا ما كان فيها من السلاح وغيره.

وخرج السلطان بدر بن عبدالله من هينن على رأس عدد غير قليل من جنوده قاصداً إلى معسكره في سدبة، وكانت قد وصلته الإمدادات من عمد والشحر وغيرها، فشجع جنوده واستعد للقاء جيش الإمام، وتحرك الصفي أحمد بجيشه من يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان، وأمسى ليلة الخميس على ميلين أو ثلاثة من جند السلطان، وأصبح الفريقان يوم الخميس متهيئين للقتال.

لقد كان يوم الخميس الخامس من شعبان سنة **١٠٧٠**هـ يوم المعركة الفاصلة، ففي صباحه زحف الجيشان حتى كادت خيل السلطان تلتقي بمقدمة جيش الصفي أحمد، وهناك بدأت المعركة ونشب القتال واحتدم الصراع، وكان جيش الإمام من القوة والكثرة بحيث لا تمكن المقارنة بينه وبين جيش السلطان بدر، ومرت بالجيشين ساعة رهيبة كان الصراع فيها على أشده، وشعر جنود السلطان بضعفهم أمام الجيش المهاجم، فاضطروا إلى التقهقر وتبعهم جيش الإمام يثخن في القتل ويأسر من قدر عليه، ونجا السلطان في جماعة من أصحابه إلى هينن، وتفرقت كل قبيلة ذاهبة إلى بلادها.

❖ السلطان يطلب الأمان:

تقدم الصفي أحمد إلى «المخينيق» بالقرب من هينن حيث جاءه رسول من السلطان بكتاب منه يطلب فيه الأمان، فرفض قائد الجيش وأمر بحصار السلطان في قلعة هينن، ولكن السلطان بدر فر منها إلى وادي جعيمة بالقرب من شبام، فدخلتها جنود الإمام بعد أن غادرها، فاستولت على جميع ما فيها من المؤن والذخائر والخزائن ولم يتركوا سوى ما يختص بالنساء من الحلي والكساء وغيره.

وسار الصفي على رأس جيشه ليلاً وأصبح في موضع يسمى «حذية»

بالقرب من شبام، وجاءه أهالي شبام يطلبون الأمان فأمَّنهم، ودخل المدينة يوم السبت ٧ شهر شعبان، وأقام في شبام ثمانية أيام قدمت عليه أثناءها وفود أهالي تريم وسيئون وعينات ومريمة وتريس والغرفة وسائر آل كثير، فأرسل إلى حصون هذه المدن وغيرها من يتسلمها ويحتلها باسم الإمام.

وغادر الصفي أحمد شبام يوم الإثنين متجهاً إلى سيئون عاصمة السلطنة، وهناك جاءته رسل السلطان مرة أخرى بطلب الأمان فأمنه على نفسه وولده وأهل بيته، وقدم عليه السلطان بدر يوم الجمعة ٢٠ شعبان فأحسن استقباله وبالغ في إكرامه وجهزه إلى اليمن لمقابلة الإمام بناء على طلب السلطان وأصحبه بسبعين من الجنود وعشرين فارساً، فلما وصل إلى اليمن أنزله الإمام في دار خاصة به هيأها له وأجرى عليه وعلى أصحابه النفقات الواسعة، وأهداه خيلاً وخلعاً ونقودا كًثيرة، وقد أقام هناك حتى اشتاق إلى حضرموت فاستأذنه في العودة إلى سيئون فأذن له، فأقام بها إلى أن مات سنة ١٠٧٥هـ.

وبعد أن تم للصفي أحمد الاستيلاء على داخل حضرموت، أرسل حملة مؤلفة من ستمائة جندي تحت قيادة بدر الدين بن جميل للاستيلاء على الشحر أهم مدن الساحل، وأرسل معه الأمير علي بن بدر بن عمر ليكون حاكماً عليها من قبل أبيه السلطان بدر بن عمر الذي أمر المتوكل بإعادة السلطنة إليه، ولم تلق الحملة في طريقها أية مقاومة فقد أظهر المسؤول عن الشحر الطاعة وسلم إليهم الحصن وشؤون المدينة والميناء.

ويقول الجرموزي: إنه كان يوجد بالشحر وقت وصول الحملة من زوارق الصيد ما ينيف على خمسمائة، وإنه يوجد بها من البانيان - البراهمة الهنود - نحو ثلاثمائة، ويقول: إن الحموم في ضواحي الشحر كانوا يقطعون الطريق ويعكرون جو الأمن في حين لا تستطيع حامية الشحر القليلة إخضاعهم.

وينقل الجرموزي أيضاً عمن صحب الصفي أحمد في غزوة حضرموت فيقول: إن وادي حضرموت وادٍ عجيب واسع طويل، كله عمارات ونخيل ومزارع تتصل من شبام إلى «المسفلة»، وهي حد المهرة يقطعه البريد الناهض في ثلاثة أيام، ثم ذكر شبام فقال عنها: مدينة كبيرة يظهر عليها أثر الضعف؛ بسبب توالي أيدي الجائرين عليها، وفيها جامع عظيم وحولها نخيل واسع وأنهار - كذا - ومزارع أكثرها لآل كثير، ولما ذكر سيئون قال في وصفها: مدينة عظيمة وفيها جامع ومساجد وعليهن أوقاف ووظائف.

❖ بدر بن عمر يستعيد سلطنته:

انتهت مهمة الصفي أحمد في حضرموت باحتلال جيوشه لجميع المناطق التي كانت تخضع للسلطان بدر بن عبدالله وتسليمه شؤون المملكة إلى السلطان بدر بن عمر تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين واعتقال كل من اشتبه فيه، ثم أعد عدته للعودة إلى اليمن بعد أن وزع العمال في المدن الحضرمية ونصب القضاة وجمع الزكاة وحرّم الملاهي وكل ما لا يقره مذهب الزيدية، ونودي بأن يزاد في الأذان «حي على خير العمل» تطبيقاً للمذهب الزيدي في صيغة الأذان، ومنع الناس في تريم من إقامة الذكر المعروف براتب السقاف.

أما ظفار فلم يتمكن الصفي أحمد من المسير إليها، ولكنه اتفق أن صاحب النعمان أرسل إليها أربعمائة نفر بقيادة رجل يدعى عامر بن أحمد فغلبوا السلطان جعفراً واستولوا على البلاد بأجمعها، وكتبوا بذلك إلى الصفي أحمد وأظهروا له الطاعة، فاكتفى منهم بذلك وأقرهم على ما هم عليه، ويقول الجرموزي: إن أهل النعمان هؤلاء يتمذهبون بمذهب الخوارج، فيكرهون أهل البيت كما يكرهون أهل المعاصي.

وتحرك الجيش اليماني عائداً إلى بلاده، وتسلم السلطان بدر بن عمر شؤون سلطنته فمضى فيها كعادته في حب الخير وبسط العدل والولاء لأئمة

الزيود، ثم سافر بعد سنتين لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، فتوفي بالمدينة سنة **١٠٧٣**هـ، فأمر الإمام بأن يخلفه في السلطنة ابنه محمد المردوف فتولاها إلى أن مات سنة **١٠٨٠**هـ، وكان محمد هذا حازما صَارماً شديد الوطأة على العشائر المتسلحة، وقد أعمل بطشه وتنكيله بالشنافر من آل كثير بأقل حق وأدنى سبيل لقيامهم مع السلطان بدر بن عبدالله ضد أبيه، وأضعف ما لديهم من شوكة حتى ألحقهم بمستوى العزّل من السلاح.

❖ اختفاء السلطنة الكثيرية:

في أوائل القرن الثاني عشر الهجري كان الناس في حضرموت منقسمين إلى قسمين:

فريق يجنح إلى الزيدية ويفضل سلطة الأئمة وهم أتباع آل علي بن عبدالله بن عمر، وفريق يؤيد سلطة الشوافع من يافع التي تعضد السلطان بدر بن محمد المردوف ويعضدها، وكان بدر بن محمد هذا شاعراً بضعف مركزه أمام التيارات المتعاكسة في سلطنته ولم تبق لديه قوة غير قوة الجنود من يافع التي أصبح هو نفسه تحت سيطرتها، وانتقضت البلاد كلها عليه، وعارضه كثير من بني عمه، فرأى أن يستزيد من الجنود اليافعيين ليستعين بهم في حفظ مركزه المتزعزع، فذهب إلى يافع وقدم بستة آلاف مقاتل منهم، واستولى بهم على جميع حضرموت سنة ١١١٧هـ.

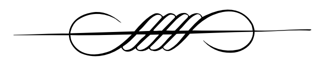
ولكن هؤلاء الجنود الذين استقدموا لتعزيز الدولة الكثيرية وتعضيدها وجدوا الفرصة سانحة والظروف مهيأة للتغلب على الحكم في البلاد وزحزحة الدولة الكثيرية عن مراكزها في داخل حضرموت وساحلها.

واشتدت الخصومة سنة **١١١٩**هـ بين آل بدر بن عمر يرأسهم السلطان بدر بن محمد المردوف وبين آل عبدالله بن عمر برئاسة السلطان عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر، وكان هذا حاقدا عًلى يافع لتدخلهم في

شؤون السلطنة الكثيرية، فحاول عدة محاولات لإيقاف التدخل اليافعي عند حد فلم يستطع، واضطر أخيراً إلى السفر من حضرموت يائسا حًيث توفي بمسقط من أرض عُمان.

ولم تطل حياة بالسلطنة الكثيرية بعده، فقد قضي عليها تماماً واختفت من الوجود في عهد ابنه جعفر بن عمر منتصف القرن الثاني عشر الهجري وأصبحت حضرموت في يد عشائر يافع، الذين كونوا لهم سلطات متعددة في كثير من مدن وقرى الساحل والداخل، وفي الوقت نفسه كان لغير يافع من القبائل والسادة والمشايخ نفوذ محدود، داخل مناطقهم التي يسكنونها.

وكانت هذه المدن والقرى الآتية تخضع لنفوذ يافع مباشرة في تريم آل لبعوس، وفي سيئون آل الضَّبي، وفي تريس آل النقيب، وفي مريمة آل البكري، وفي جِفِل آل الرباكي وآل النقيب، وفي شبام الموسطة، وفي غيل بن يمين الشناظير، وفي ريدة المعارّة كَلَد، وفي حورة آل النقيب، وفي حريضة ابن بريك، وفي لحروم القعيطي، وفي سدبة الجهوري، وفي الهجرين آل يزيد، وفي القزة آل البطاطي، وفي الشحر آل بريك، وفي المكلا آل الكسادي.



«١٥»

صلاح بن محمد الكسادي

لأول مرة في التاريخ - أمراء آل كساد - طموح النقيب صلاح - احتلال دوعن - الدفاع عن المكلا - النهاية المحتومة - جلاء الكسادي عن المكلا

❖ لأول مرة في التاريخ:

لأول مرة في تاريخ المكلا تقوم فيها إمارة مستقلة يحكمها آل كساد اليافعيون في القرن الثاني عشر الهجري، فقد كانت قبل ذلك تابعة لأية سلطة تفرض سلطانها على الساحل الحضرمي، حتى جاء آل كساد فكونوا فيها هذه الإمارة التي نتحدث في هذا الفصل عن أبرز شخصية بين أمرائها.

وقد كانت الشحر هي المدينة الأولى في ساحل حضرموت من حيث اتساع رقعتها وكثرة سكانها ومركزها التجاري والسياسي؛ لكونها أهم الموانئ التي تصدر منها وترد إليها حاصلات البلاد ووارداتها، ولأن الحكومات الحضرمية التي تستقل بشؤون الساحل تتخذ الشحرعاصمة لها، والحكومة التي تتخذ عاصمتها في الداخل ويمتد سلطانها إلى الشواطئ الجنوبية تجعل من الشحر العاصمة الثانية لحكومتها، فعظم بذلك شأن هذه المدينة، وأقبل التجار والعلماء والأدباء على الإقامة بها والتردد إليها، فلم تستطع لذلك أية مدينة ساحلية أن تنافسها أو تبرز معها في مضمار.

ولم تكن المكلا أثناء هذا التاريخ الطويل أكثر من قرية صغيرة تتكون بيوتها من أكواخ حقيرة يسكنها صيادو الأسماك الذين يردون إليها من

المناطق المجاورة، وظلت كذلك بعيدة عن أي مركز تجاري أو أدبي أو سياسي إلى أواسط القرن الثاني عشر الهجري، حيث بدأت العشائر اليافعية تتمركز في أهم مدن البلاد الحضرمية على أنقاض الحكم الكثيري الذي تداعى وتلاشى، وكانت المكلا من نصيب قبيلة آل كساد الذين كونوا لأنفسهم فيها إمارة ذات شأن، وسعوا لبسط نفوذهم على المناطق المجاورة لها وعملوا لإنعاشها وجلب التجار إليها واستخدامها في التصدير والتوريد كأحسن ميناء صالحة لرسو السفن والبواخر فيها.

وقد استطاع الأمراء من آل كساد أن يلفتوا الأنظار إلى مدينتهم ويحببوا إلى الناس الإقامة بها بفضل ما عرفوا به من حب العدل وكرم الأخلاق وحسن المعاملة والتساهل مع التجار في فرض الضرائب واستيفائها، فأخذ عدد سكان المكلا في الارتفاع وقصدها الناس كسوق للتجارة وميناء يستغنون به عن الذهاب إلى الشحر، فقد كانت كثير من السفن تأتي إلى المكلا لتفرغ فيها حمولتها وتأخذ المسافرين وما معهم من بضائع ومتاع.

وهكذا أصبحت المكلا الميناء الثانية بعد الشحر من حيث الأهمية وقوة التجارة، وطفق الناس الذين فضلوا الإقامة بها يبنون بيوتهم محترمة مرتفعة تتكون من عدة طبقات، وبنى الأمراء من آل كساد حصنهم الكبير بالقرب من الميناء مقر الإمارة يستقبلون فيه ضيوفهم، ويبتّون فيه فيما يعرض لهم من مشاكل الإمارة وقضاياها، وكان هذا الحصن نموذجاً حسناً لفن البناء في ذلك العهد.

❖ أمراء آل كساد:

وأقدم من يعرف من آل كساد هو النقيب صلاح بن سالم، وقد تولى الإمارة بعد وفاته ابنه عبدالرب، ثم أخوه عبدالحبيب، وكان شهماً صارماً، ثم محمد بن عبدالحبيب، ثم صاحب الترجمة صلاح بن محمد بن عبدالحبيب.

وكانت كلمة النقيب لقباً معروفاً يطلق على كل أمير من آل كساد، وكان النقيب صلاح بن محمد أقواهم شخصية وألمعهم اسماً وأبعدهم صيتاً، فقد كان حسن السيرة جم العدل لا يحتجب عن مظلوم، محباً لأهل العلم والفضل، متودداً إلى مواطنيه من الرعايا منصفاً لهم من نفسه وولده وجنوده، وفي نفس الوقت كان شديد الوطأة على مخالفيه قلما تقع من أحد إساءة إلا اشتد في عقوبته بكل عنف وقسوة.

❖ طموح النقيب صلاح:

وكان النقيب صلاح منذ تولى الإمارة شاعراً بضيق مساحة إمارته التي لم تكن تتجاوز أكثر من ضواحي المكلا، ومنها: بروم وفوّة والبقْرين والحرشيّات، الأمر الذي لا يتفق مع طموحه وما يزخر به قلبه الكبير من نوايا وآمال، فظل يترقب كل فرصة لتحقيق آماله في التوسع والاستيلاء على أكبر رقعة ممكنة من البلاد.

❖ احتلال دوعن:

وكانت الخلافات بين حكام وادي دوعن من آل العمودي قد بلغت حداً يصعب معه حلها، ويقال بأن بعض آل العمودي التجأ إلى النقيب صلاح مستنصراً به على منافسيه من أبناء عمومته، فكانت فرصة لم يتأخر النقيب عن استغلالها والاستفادة منها، فأرسل سنة ١٢٨٦هـ قوة من جيشه بقيادة مجحم بن أحمد مجحم استولت على معظم وادي دوعن، ومن بينها «الخُريبة» إحدى مدن الوادي الكبرى.

ويقول ابن حميد: لما أوقع النقيب صلاح بمحمد بن شيخ العمودي سنة ١٢٨٨هـ سقط في أيدي العموديين خصوصاً سكان الخريبة والرباط، فأجمعوا على مقاومة الكسادي وإزالة جماعته من وادي دوعن، وساعدهم جميع قبائلهم مثل القثم وسيبان والمراشدة والجعدة والسادة والرعايا، وكتبوا العهود فيما بينهم بذلك، وأرسلوا وفداً إلى السلطان الكثيري يطلبون مساعدته.

وفي غرة ربيع الأول من نفس العام عاد الوفد بثلاثمائة من الشنافر والعوامر وآل جابر، ولم يصحبهم أحد من قبل السلاطين آل كثير ولا من مواليهم، ولكن هذه الكتيبة عادت بعد وصولها بمدة يسيرة بحجة أن آل العمودي لم يقوموا لهم بما يلزم من نفقات، وعلى إثر رجوعهم أرسل الكسادي نحواً من مائة وخمسين مقاتلاً إلى الخريبة وهجموا على بيوت آل العمودي.

وعقد آل العمودي اجتماعاً بـ«الشعبة» عند زعيمهم أحمد بن عبدالله بن بدوي، وحضر بدعوته رؤساء المشاجرة والديّن وبلعبيد، وأجمع رأيهم على مناجزة الكسادي وجعلوا القيادة والرئاسة للشيخ صالح بن عبدالله بن مطهر، واستجاب لهم من وادي ليسر الخنابشة وآل بلحمر، ولما رأى مجحم تضافر القوم أرسل من يعرض على الشيخ أحمد بن عبدالله بن بدوي مبلغاً من المال ليصرف عنه القوم، فرفض ودارت بين الفريقين معارك أدت إلى جلاء عسكر الكسادي عن دوعن بعد أن خسروا كثيراً من رجالهم، ولم تكن خسائر العموديين وحلفائهم بالقليلة.

❖ الدفاع عن المكلا:

في عهد النقيب صلاح بدأت السلطنة الكثيرية تطل برأسها من جديد وتحاول إعادة مجدها الغابر تحت زعامة السلطان غالب بن محسن الكثيري الذي سنتحدث عنه في فصل قادم، وكانت هذه المحاولة الكثيرية ترمي إلى الاستيلاء على المدن والمناطق التي تسيطر عليها قبائل يافع ومن بينها المكلا التي يحكمها النقيب الكسادي بحجة أن هذه البلاد كانت في يوم ما تابعة لسلاطين آل كثير.

وشعرت قبائل يافع بهذا الخطر فاتحدوا تحت قيادة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي وكبار أولاده، وكونوا جبهة دفاع ومقاومة ضد آل كثير، ثم بادؤوهم بالهجوم واستردوا بعض ما كان آل كثير قد استولوا عليه.

وأثناء هذه الحروب التي دارت بين يافع وآل كثير كوّن القعيطي سلطنته الحالية، واشترك النقيب صلاح الكسادي في بعض هذه المعارك كيافعيّ يهمه الاحتفاظ بسلطة عشيرته اليافعيين في حضرموت، وكان يرى في هذه الحروب فرصة لتحقيق ما يحلم به من توسيع إمارته الصغيرة التي طالما ضايقه ضيق مساحتها، فقد كان يطمع أن يقتسم حضرموت ساحلها وداخلها هو والسلطان القعيطي.

وربما شعر القعيطي بمطامع النقيب صلاح فتجاهلها بادئ الأمر؛ لأنه يرى ضرورة اتحاد القبائل اليافعية أولاً أمام خطر آل كثير، وانتظر النقيب الكسادي نتيجة هذه الحروب ليقرر مصيره في نهايتها، واشترك الفريقان الطامحان في الدفاع والهجوم ضد آل كثير وأنفقوا كثيراً من الأموال وقدموا عزيزا غًاليا مًن الضحايا.

ففي سنة **١٢٨٣**هـ هاجم آل كثير الحرشيات بنحو ألفي مقاتل تمهيدا لًلهجوم على المكلا بعد أن استولوا على الشحر وأجلوا حكامها من آل بريك عنها، واصطدم المهاجمون بحامية الحرشيات التي لا تتجاوز المائة، وانضم إليهم من المكلا مائتا مقاتل قدموا لنجدتهم، فدارت معارك حامية توالت ثلاثة أيام أسفرت عن قتل قائد الحملة التي أرسلها القعيطي للدفاع عن المكلا واثنين وأربعين قتيلاً من يافع، وكانت أولى الاشتباكات في جول الدواعن «جول مَسْحَة» ثم حول حصن خازوق.

واستولى آل كثير على الحرشيات وذهب حاميتها بين قتيل وجريح وأسير، وقتل من آل كثير نحو مائة، واستمر الجيش الكثيري في زحفه إلى البقرين، ودارت الحميَّة برءوس من في المكلا من يافع وعلى رأسهم النقيب صلاح، فخرجوا مصمّمين على صد آل كثير مهما كلفهم الأمر، فاشتبكوا معهم في قتال عنيف في نواحي البقرين، ولّى آل كثير على أثره منهزمين تاركين وراءهم مراكز البقرين والحرشيات التي كلفهم احتلالها ثمناً غالياً.

وفي معركة حصن خازوق يقول الشاعر الشعبي المعروف عمر باعطوة الذي كان يصحب يافع عند دفاعهم عن الحصن:

على خازوق باروتنا بّيتْ وظَلَّا ونفّقنا البضاعة وسلمنا المكلا

وقد اهتمت حكومة القعيطي بهذا الحصن التاريخي الواقع بالقرب من الحرشيات، فجدَّدت بناءه وطلته من الخارج باللون الأحمر.

وكما اشترك القعيطي في الدفاع عن المكلا اشترك النقيب أيضا مًع القعيطي في صد آل كثير عن الشحر عندما أعدوا حملتهم الكبرى لاستردادها في حادثة «مرير» المشهورة سنة ١٢٦٩هـ، والتي سيأتي تفصيلها في ترجمة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي، كما ساهم النقيب أيضاً بمائة ألف ريال في نفقات الهجوم الكبير الذي قام به القعيطي على آل كثير سنة ١٢٨٥هـ واشترك في هذه الحملة بخمسمائة جندي خرج هو على رأسهم.

❖ النهاية المحتومة:

وقبل أن ينتهي الصراع بين يافع وآل كثير وتعرف نتيجته الأخيرة، اخترمت المنيّة صاحبنا النقيب صلاحاً، فرحل إلى الدار الآخرة سنة ١٢٨٨هـ ورحلت معه آماله وأمانيه، فلم يكن خليفته ابنه الأمير عمر بن صلاح في مثل خبرته وكفاءته وبعد نظره، وسرعان ما دَبَّ بينه وبين السلطان عوض بن عمر القعيطي الخلاف الذي كان من أهم أسبابه مطالبة القعيطي للنقيب عمر بالمائة الألف الريال التي استدانها أبوه في نفقات الحملة الكبرى على آل كثير، واضطر النقيب عمر أن يتنازل للقعيطي عن نصف المكلا سنة ١٨٧٣م مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يخصم منها المبلغ الذي على والده، وأرسل القعيطي إلى المكلا بحكم هذه الاتفاقية من ينوب عنه فيها، وأمده بعدد من جنوده لحماية مصالحه في المكلا.

وبطبيعة الحال لم يكن النقيب عمر راضيا عًن هذا التصرف الذي ألجأته إليه الظروف المريرة، فبقي يعمل في الخفاء للتخلص من القعيطي

وانفراده بالحكم في المكلا بعد طرده منها.

وحانت الفرصة لذلك ذات يوم كان فيه السلطان عوض بن عمر موجوداً بالمكلا فدبَّر عمر بن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض بن عمر ضحيتها مع كثير من جنوده، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه وبمن معه من الجنود بطريق البحر إلى الشحر.

ولم يتردد النقيب عمر بعد ذلك في إعلان عدائه للقعيطي وانضمامه ضده إلى صفوف آل كثير محاولاً الاستنجاد بهم عند الحاجة، وكتب إليهم مرة يحثهم على مهاجمة الشحر ويعدهم بالمساعدة، وضاق السلطان عوض بن عمر بهذه التصرفات فلجأ إلى حكومة عدن يتذمر ويتظلم لديها من أعمال الكسادي، فتوسطت حكومة عدن في الصلح بينهما رسمياً وأخذت عليهما وثيقة بالتحكيم، ثم أصدرت حكمها بتخيير النقيب بين إحدى ثلاث:

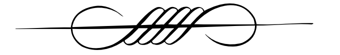
إما أن يدفع المائة ألف التي على والده حالاً، أو يتسلم من القعيطي مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا، وينتقل هو إلى بروم، أو يتسلم من القعيطي مائتي ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها.

❖ جلاء الكسادي عن المكلا:

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال الثلاث، وطلب من حكومة عدن - وكان موجودا بِّها للمفاوضة - أن تعيده إلى المكلا فأرجعته، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنجليزي عرض على النقيب أن يقبل إحدى هذه الخصال المعروضة عليه، وإلا فإنه سيضطر إلى ضرب المدينة بالمدفع، فسلم نفسه إلى قبطان البارجة «دراجون» مفضلا اَلجلاء على قبول الحكم الذي أصدرته حكومة عدن، وقد أبحرت به إلى عدن في طريقه إلى زنجبار سنة ١٨٧٧م وبصحبته عدد من أتباعه وحاشيته، وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة في ثلاثة

عشر مركباً شراعياً .

وبذلك انتهى أجل الإمارة الكسادية، ودخلت المكلا وملحقاتها تحت حكم السلطنة القعيطية ونفوذها .



«١٦»

علي ناجي بن بريك[١]

أول أمير من آل بريك - القضاء على المعارضة - الهجوم على غيل باوزير - الكسادي يهاجم الشحر - وفاة علي ناجي الأول - الأمير حسين بن ناجي - ناجي بن علي - أهم الأحداث في عهده - قدوم الوهابية - حروبه مع الكسادي - هدم القباب والتوابيت - وفاة الأمير ناجي - علي ناجي الثاني - غزو آل كثير للشحر - نهاية دولة آل بريك

❖ أول أمير من آل بريك:

في سنة ١١٦٥هـ قدم إلى الشحر من حريضة سبعة من آل بريك كلهم أخوة أبناء أب واحد، وهم: ناجي وسعيد وعبود ومرعي وأحمد وجابر وشِيخَان أبناء عمر بن بريك، وكان ناجي أكبر إخوانه، فقصدوا حارة المجرف وسكنوا بها.

وكانت الشحر إذ ذاك يتنازع النفوذ فيها عشائر متعددة من يافع، حتى أصبحت البلاد في فوضى عانى الأهالي منها ما لا يطاق من الفتن والجور والعنف والقسوة، الأمر الذي جعل هؤلاء الإخوة من آل بريك يرون في هذه الفوضى أكبر مشجع لهم في محاولة الوصول إلى حكم الشحر.

وكان أول ما فكر فيه آل بريك القيام بعقد اتفاقات وأحلاف مع قبيلة الحموم وغيرهم من القبائل التي تعيش في المنطقة المحيطة بمدينة الشحر؛

---

(١) اعتمدت في كتابة هذا الفصل على تاريخ الشحر لباحسن.

لكي يأمنوا عدوانهم على الأقل، ثم أخذوا يتقربون من البادية والأهالي ويتحببون إليهم بما عرفوا به من الأخلاق الكريمة، فأحبهم الناس ومالت إليهم طوائف الأعراب واكتسبوا سمعة طيبة مهدت لهم سلوك سبيلهم المرموق.

وطبيعي أن يتخوف منهم أصحاب السلطة في البلد، وأن يقدروا خطر هؤلاء المنافسين الجدد، وأن يفكروا في التخلص منهم، ولكن الاختلاف فيما بينهم كان معجلاً بنهايتهم ومعطياً الفرصة لآل بريك في تثبيت أقدامهم وتعزيز مركزهم، فقد استطاعوا أن ينشئوا في حارة المجرف فرضة على الساحل، ويبتنوا حصوناً في رباط باجوبان في الجانب الشرقي من المدينة، وحفروا آباراً في «العِيْص» خارج البلد، ثم خطوا الخطوة الأخيرة فجعلوا أخاهم الأكبر ناجي بن عمر أميراً عليهم، وأسندوا إليه القيام بتصريف شؤون الإمارة الناشئة.

ويؤكد العارفون بأن هناك أدلة كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن آل بريك هم فصيلة من يافع تنتسب إلى ذي ناخب، هاجرت إلى حضرموت كما هاجر إليها كثير من قبائل يافع في فترات متقطعة.

وهكذا يعتبر الأمير ناجي بن عمر أول أمير من آل بريك في الشحر، وقد استطاع بفضل حكمته وفطنته وشجاعته وما عرف عنه من صبر وجلد أن يسكت معارضيه من يافع ويتغلب عليهم بعد حوادث وحروب جرت بينه وبينهم، ما خلا رئيس آل معوضة اليافعي المقيم بحارة الخور في الجانب الغربي من المدينة، فقد امتنع واستمر في معارضته لآل بريك، ورفض الخضوع والتسليم لهم.

❖ القضاء على المعارضة:

كان لابن معوضة حصن معروف في «مرير» خارج الشحر جعل فيه جماعة من أصحابه لأخذ الضريبة على الأموال المارّة بهذا الموضع من المكلا وغيل باوزير، وكان يستعين بهذه الجباية في حروبه مع آل بريك

ومقاومته لهم، وقد ظل الأمير ناجي بن عمر متابعاً محاولاته لإخضاع ابن معوضة حتى توفي سنة **١١٩٣**هـ، وقام بالأمر بعده ابنه علي بن ناجي الملقب بـ«القحوم»، وكان شجاعاً نابهاً، فاشتد في مناجزة ابن معوضة وضيق عليه الخناق وحاصره محاصرة شديدة قطع عليه بها جميع السبل، حتى اضطر إلى التسليم وعقد صلح دخل بموجبه تحت طاعة آل بريك وانقاد لحكهم.

❖ الهجوم على غيل باوزير:

كانت غيل باوزير في تاريخها السياسي القديم تخضع للسلطة التي تتولى الشحر؛ بحكم اضطرارها إلى هذه الميناء في توريد حاجياتها الضرورية وكمالياتها، فخضعت لدولة آل كثير حكام الشحر قبل استيلاء يافع عليها، ثم استقل من بها من قبائل آل همام وآل عمر باعمر بشؤون مدينتهم متعاونين مع المشايخ آل باوزير أصحاب النفوذ الروحي في المنطقة، حتى تكونت إمارة آل بريك بالشحر، وحاول هؤلاء ضم هذه البلدة إلى إمارتهم والتدخل في حكمها مباشرة، فأبدى النقيب محسن بن جابر بن همام معارضة في ذلك، وأظهر المخالفة والعداء لآل بريك، وانضم إليه آل عمر باعمر وساندوه في حركته.

وجمع الأمير علي ناجي الأول أقواما كَثيرة، وتجهز من الشحر للهجوم على غيل باوزير واحتلالها، وكانت هذه الحملة مزودة بالمدافع وبمعدات حربية تضمن إسكات المقاومة، فلم يجد النقيب محسن بن جابر بُداً من الرحيل عن الغيل والالتجاء إلى أمير المكلا النقيب عبدالرب الكسادي، كما لحق جماعة من آل عمر باعمر بـ«الريدة» لدى أميرها الكلدي اليافعي، وبذلك تم احتلال آل بريك لغيل باوزير.

وقد حاول النقيب محسن بن جابر أن يقوم برد فعل لهذه الحادثة، فقد استطاع أن يقنع النقيب عبدالرب الكسادي بضرورة مساعدته في الهجوم

على الغيل واسترجاعها من آل بريك، وتجهز النقيب من المكلا على رأس عدد كبير من العساكر، وبينما هم بموضع يقال له «الحَدبة» أسرع آل بريك لصد هذه الحملة، وهاجموا معسكر الكسادي وابن همام، وبعد معركة عنيفة كان النصر فيها حليف آل بريك عاد الكسادي إلى المكلا بعد أن قتل محسن بن جابر في المعركة.

❖ الكسادي يهاجم الشحر:

وتحركت بعد ذلك من المكلا حملة كبيرة قوامها اثنتا عشرة مائة من مختلف عشائر يافع استقدمت من الجبل للهجوم على الشحر طلباً للثأر من آل بريك، وقد رابطت هذه الجموع بقرية «تبالة» إحدى ضواحي الشحر، ولكنها عادت دون أن تصنع شيئاً، فقد استطاع آل بريك أن يوقعوا في صفوف القبائل المهاجمة الضغينة والفرقة فاختلفوا وتفرق جمعهم وعادوا خائبين.

❖ وفاة علي ناجي الأول:

في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة عشرين ومائتين وألف هجري توفي الأمير علي ناجي الأول، ودفن في قبة السيد سالم بن عمر العطاس بعد أن أكمل ما بدأ به والده من تثبيت الإمارة ونشر هيبتها وإظهار قوتها ومدى استعدادها لمجابهة الأحداث التي تتعرض لها، ومما يجدر بالتسجيل ما ذكره السيد عبدالله باحسن في تاريخ الشحر وسمعته عن غير واحد من شيوخ الغيل المعمَّرين أن علي ناجي هذا علم أن القاضي الفقيه الشيخ سعيد بن عمر بن طاهر كان يستعمل معرفته بأسرار الأسماء والأوفاق للإضرار بالناس فأمر بقتله غرقاً في منبع للماء غزير يدعى «الحومة» خارج غيل باوزير.

وهذه الحادثة لها قيمتها من ناحية الاستدلال بها على نفسية الأمير علي ناجي وعقلية العصر الذي يعيش فيه.

الأمير حسين بن ناجي:

قام بالأمر بعد وفاة علي ناجي أخوه الحسين بن ناجي، وكان رجلاً صالحاً ذا عبادة ونسك زاهداً في الدنيا غير راغب فيها ولا ناظر للإمارة وبهجتها، ولكنه اضطر إلى قبولها حين كُلِّف بها من قبل أخيه الأمير الراحل، فمكث في الإمارة سنتين وشهرين، ثم خلع نفسه وتخلّى عن مهام منصبه لابن أخيه الأمير ناجي بن علي بن ناجي.

ناجي بن علي:

كان هذا الأمير معروفاً بالشجاعة والإقدام والكرم وسماحة النفس، كما اشتهر بالحزم والدهاء، فقام بما أسند إليه من شؤون الإمارة خير قيام وعمل على حمايتها بكل مالديه من قوة.

❖ أهم الأحداث في عهده:

(١) قدوم الوهابية:

في عهد الأمير ناجي بن علي قدم من ناحية القِبْلَة - على رأس جماعة من قبائل نجد الوهابيين - رجل يقال له «ابن قملا»، وكان أول قدومه إلى بلدة «شكلنزة» من متعلقات الشحر وضواحيها في جماعة من أصحابه رجالاً وفرساناً، ثم تقدم إلى الشحر أحد رجاله، وكان أميراً متنكراً متجسسا وًاسمه فارس بن محمد، فلقيه رجل من قبيلة بيت شنين وطعنه برمح فقتله ودفن بتربة الشيخ فضل.

ثم تدافعوا إلى الشحر خفية متسللين حتى تكاثروا بها ولم يحصل أي اصطدام بينهم وبين أحد ولم يصب أي شخص منهم بسوء أو أذى، وكانت عقيدة هؤلاء إنكار التوسل بالأولياء ومحاربة تجصيص القبور ووضع التوابيت على ضرائح المعروفين بالصلاح وإقامة القباب عليها.

(٢) حروبه مع الكسادي:

في سنة ١٢٢٧هـ أعد النقيب عبدالرب بن صلاح الكسادي سفناً وحشد فيها جماعة من جنوده، وأمرهم بأن يتعرضوا للسفن القادمة من سواحل إفريقيا الشرقية إلى الشحر في أيام الموسم وكانت أكثر هذه السفن لتجار الشحر، وقد قامت سفن النقيب بمهمتها، وساقت جميع سفن الشحر بما تحمل من بضائع إلى المكلا.

وأعد الأمير ناجي بن علي العدة لحرب الكسادي والانتقام لحادث السفن واسترداد أموال الرعايا، وحشد جماعة كبيرة للهجوم على المكلا، وعلم النقيب بهذا الهجوم فخرج بمن معه من العساكر للقاء آل بريك إلى الحرشيات خارج المكلا، ولم يصل آل بريك إلى الحرشيات حتى كان النقيب على استعداد لحربهم، وبعد معركة حامية تقهقر عسكر الكسادي إلى البقرين والدّيس، واستولى آل بريك على الحرشيات وما خلَّفه جنود النقيب من مؤن وعتاد، ثم تابعوا زحفهم واستولوا أيضاً على البقرين والديس بعد أن انسحب حاميتها من عسكر النقيب إلى المكلا، ومنع الجيش الزاحف الماء عن أهل المكلا.

وفي اليوم الثالث تسلق آل بريك الجبل المطل على المكلا، واحتلوا الحصون المشرفة على المدينة، وأطلقوا نيران مدافعهم على حصن النقيب، وتضايق سكان المكلا وحل بهم الرعب، ولم يلبث النقيب أحمد بن عبدالرب بن صلاح الكسادي أن تقدم في جماعة من أصحابه مهاجماً آل بريك في قمة الجبل وهم في الحصون، وحدثت مناوشات لم تؤد إلى نتيجة قتل أثناءها أحمد بن عبدالحبيب ورجل آخر.

وتوسط في النهاية بعض السادة من آل العيدروس وأحد المشايخ من آل باعمر، وتم الصلح على أن تعاد جميع السفن التي أخذها الكسادي بما فيها من أموال لأهل الشحر، ويعود آل بريك إلى حيث أتوا، وبذلك انتهى

النزاع وأوقفت الحرب.

ولكن النقيب عبدالرب الكسادي عاد في سنة **١٢٣١**هـ فحشد حوالي خمسة آلاف جندي وتوجه بهم قاصدا مًهاجمة الشحر، فعسكر بتبالة، ثم تحرك الجيش منها للهجوم على المدينة، واصطدم بآل بريك في موضع يقال له «المِشراف» خارج الشحر، ونشبت معركة من طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة، قتل فيها اثنان من آل بريك، وعاد الكسادي دون أن يظفر بطائل.

(٣) هدم القباب والتوابيت:

ويقول السيد عبدالله باحسن: إنه وصل إلى الشحر - قبل الحادثة السابقة - من ناحية الشرق بأرض الباطنة جماعة من الوهابية أقاموا بها أربعين يوماً، هدموا أثناءها جميع القباب المقامة على ضرائح الصالحين، وأخذوا جميع التوابيت الموضوعة على قبورهم ما عدا قبة الشيخ فضل بن عبدالله بافضل فلم تنلها يد الهدم، ولم يعترضهم آل بريك، ولم يحصل بينهم وبين أمير الشحر أي اصطدام.

ويستمر السيد باحسن في الحديث عن هؤلاء الوهابية فيقول: إنهم وضعوا التوابيت وبعض أبواب المساجد التي أخذوها في إحدى السفن التي معهم وساروا بها، ولما وصلوا إلى ثغر مرير احترقت السفينة وخرجت بعض الأبواب سليمة إلى الساحل فأخذت وأعيدت إلى مواضعها.

❖ وفاة الأمير ناجي:

في بداية سنة **١٢٤٣**هـ توجه الأمير ناجي في نحو مائة من أصحابه إلى حاكم مسقط السيد سعيد بن سلطان ومعه النقيب عبدالرب الكسادي، قيل: إنهما حكَّماه في الخلاف الواقع بينهما، وقيل لأسباب أخرى، وبعد وصولهما إلى مسقط بنحو شهر أصيب الأمير ناجي بمرض ألزمه الفراش، ثم توفي رحمه الله متأثراً بمرضه ودفن بقرية «سداب» من قرى مسقط.

❖ علي ناجي الثاني:

وأسندت شؤون الإمارة بعد وفاة الأمير ناجي إلى ابنه علي، وكان إذ ذاك فتى صغيراً، فنازعه عليها الأمير محسن بن حسين أحد أعيان العائلة، وانقسمت حاشية آل بريك إلى فريقين: فريق يؤيد محسن بن حسين، والأغلبية تناصر الأمير علي ناجي، وطال النزاع واستعرت نار الفتنة واحتدم الخلاف، وأعد كل فريق العدة لحرب الفريق الآخر، ولزم أكثر آل بريك الحياد، فلم يتدخلوا أو ينحازوا إلى أحد الجانبين.

واستمرت المناوشات سنة كاملة اضطر أثناءها كثير من أهالي الشحر إلى الرحيل عنها، وتوقفت الأعمال وتضرر الناس حتى توسط عقلاء آل بريك وبعض السادة من آل العطاس، وتم الصلح على أن تكون شؤون الإمارة خاصة بالأمير علي ناجي وحده دون شريك، وبذلك حسم الخلاف وقضى على أسباب الفتنة.

❖ غزو آل كثير للشحر:

في سنة **١٢٦٦هـ** اتفق آل كثير بداخل حضرموت مع بعض السادة العلويين على أن يستعينوا بممثلي الدولة التركية في الحجاز في تجهيز حملة من الأتراك للاستيلاء على الشحر لقاء مبالغ من النقود تدفع لهؤلاء الأتراك، وقد ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض السيد إسحاق بن يحيى والأمير عبود بن سالم الكثيري وعادوا بنحو أربعمائة جندي من الأتراك في مركب بخاري وعدة سفن شراعية.

ولما اقتربت السفن من الشحر لم تستطع دخول الميناء؛ بسبب اضطراب البحر وهيجانه، فقد كان وصولهم في فصل الخريف، فاضطروا إلى الذهاب إلى «شرمة»، وكان قد سبقهم إليها آل بريك وحصنوها بنحو مائة وخمسين من رجالهم، ولما نزل الجنود الأتراك إلى البر اصطدموا برجال آل بريك المرابطين هناك ونشبت معارك انتهت بهزيمة الأتراك

وفرارهم في السفن إلى قصيعر، وقد غرقت إحدى سفنهم أثناء عملية الانسحاب.

وكان آل كثير قد أعدوا جيشاً كثير العدد ليقوم بالهجوم على الشحر من البر في الوقت الذي يهاجم الأتراك فيه المدينة من البحر، وأقبل الجيش الكثيري مؤلفاً من قبائل مختلفة من وادي حضرموت ودوعن ومن نهد والصيعر والعوابثة وآل العمودي والحموم وغيرهم، فرابط في «دفيقة» على مسافة قريبة جداً من المدينة، وحاصر الشحر من البر، ومنع عنها كل ما يرد إليها من الضواحي، وقام الأتراك المرابطون في قصيعر بحصار الشحر من البحر وقطع الوارد إليها من البحر، وبذلك أصبح الأهالي في أزمة وعسر شديدين، خصوصاً عندما استطاعت سفن الأتراك التجول حول الميناء مباشرة بعد انقضاء فصل الخريف.

وبمقتضى اتفاقية عقدت في غيل باوزير بين الأمير علي ناجي والنقيب محمد بن عبدالحبيب الكسادي تنص على وجوب مساعدة كل منهما للآخر عند أي هجوم مسلح على المناطق التابعة لهما، تحرك الكسادي من المكلا في نحو ألف مقاتل للدفاع عن الشحر عندما بلغه نبأ وصول قوات آل كثير إلى دفيقة، وكانت هذه القوات قد اشتبكت مع آل بريك في قتال خارج المدينة، ثم عادت إلى مواقعها في دفيقة انتظاراً للفرصة المواتية.

واصطدمت النجدة الكسادية بجماعة كبيرة من الجيش الكثيري عند حصن مرير واشتبكت معهم في معركة انهزم في نهايتها جنود آل كثير، وواصلت النجدة سيرها إلى الشحر، أما الجنود الكثيرية التي انهزمت أمام قوات آل كساد فلم تعد إلى معسكرها في دفيقة بل عادت أدراجها إلى حضرموت، وحذا حذوهم بعض القبائل المرابطة في دفيقة، ولم يبق بها سوى عدد قليل من الحموم وبعض القبائل الأخرى وجماعة من الأتراك.

ورأى الأمير علي ناجي أن الفرصة مواتية لتطهير دفيقة من بقية

الجيش، فقرر الهجوم على دفيقة بالاشتراك مع النجدة الكسادية، ولكن اليأس قد دب في نفوس البقية الباقية من جيش آل كثير فأصبحوا غير قادرين على الدفاع فضلاً عن الهجوم، ولذلك ركب الأتراك البحر وعادوا راجعين، وتفرق من بقي من القبائل عائدين بالخيبة والفشل، وخلت دفيقة من الغزاة، وخرج موالي آل بريك لأخذ مخلفات الجيش من عتاد وأسلحة وأقوات.

❖ نهاية دولة آل بريك:

كان آل كثير ما زالوا يفكرون في إصرار في احتلال الشحر؛ لتكون منفذاً لسلطنتهم إلى الخارج ومركزاً لتوسعهم في الساحل، لذلك عاودوا الهجوم مرة أخرى على الشحر في جمادى الآخرة سنة **١٢٨٣**هـ بنحو ثلاثة آلاف مقاتل من آل كثير والعوامر وغيرهم، وكان الهجوم بغتة من جميع جهات المدينة البرية الثلاث، ولم يكن الأمير علي ناجي هذه المرة على استعداد لصد هذا الهجوم المباغت القوي، فلم تدم المقاومة طويلاً، وسرعان ما سقطت المدينة في أيدي آل كثير بعد أن قتل أحد عشر شخصاً من آل بريك وخمسة من آل كثير كما أخبرني بذلك الأمير علي بن صلاح القعيطي نقلاً عن الثقات الذين عاصروا الحادثة من يافع.

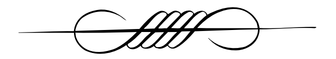
أما الأمير علي ناجي فقد ركب البحر إلى أحور مع جماعة من حاشيته وأصحابه وذويه، بينهم أخوه ناصر بن ناجي، والتجأ أكثر آل بريك إلى النقيب صلاح بن محمد الكسادي بالمكلا، ويقال بأن النقيب الكسادي لم يقابل علي ناجي عندما مر بالمكلا، فقد كان ناقماً عليه لسرعة استسلامه قبل أن تقدم نجدات يافع من الكسادي في المكلا والقعيطي في حضرموت.

وعاد ناصر بن ناجي من أحور إلى المكلا فأخبر النقيب بأن علي ناجي اتفق مع أقوام من العوالق على استرداد بلاده من آل كثير، وأن الإنكليز وعدوه بالمساعدة وحمايته من الغزو البحري، ولكن النقيب

الكسادي أقنعه بأنه لا فائدة من ذلك ولا حاجة إليه، وأن القعيطي كتب إليه من الهند يؤكد له بأنه عقد العزم على حرب آل كثير ولديه القوة الكافية والمعدات اللازمة لذلك ولا يطلب إلا العون والمساعدة وتوحيد جهود يافع في هذا السبيل.

ولم يجد الأمير علي ناجي بُدّاً من أن يتجلد لنكبته ويواصل سفره من أحور إلى عدن، ثم إلى لحج حيث مرض بها وتوفي بعد صلاة الجمعة في **٢١** ربيع الأول سنة **١٢٩٣**هـ.

ويذكر السيد باحسن أن الموجودين من آل بريك في المكلا اشتركوا في هجوم القعيطي على الشحر لاسترداد أموالهم وبيوتهم التي غلبهم آل كثير عليها كما وعدهم بذلك القعيطي، وقد تم هذا الهجوم والاحتلال في ذي الحجة من نفس العام أي سنة **١٢٨٣**هـ، كما سيأتي تفصيل ذلك في ترجمة السلطان عوض بن عمر عليه رحمة الله.



«١٧»

غالب بن محسن الكثيري

مولده، نشأته - سفره إلى الهند - بعث الدولة الكثيرية - دعاية وتمهيد - احتلال تريم - غزو سيئون وتريس - معركة مرير - غالب بن محسن يعود من الهند - الاتحاد قوة لا تغلب - الحملة الكبرى على آل كثير - وفاة غالب بن محسن - خلفاؤه من بعده - حدود السلطنة الكثيرية

❖ مولده، نشأته:

في غنيمة بوادي تاربة ولد السلطان غالب بن محسن الكثيري الذي يتصل نسبه بالسلطان عبدالله بن عمر بن بدر أبي طويرق، ولذلك تسمى هذه السلطنة الكثيرية سلطنة آل عبدالله، وكانت ولادته سنة **١٢٢٣**هـ أي في العام الذي توفي فيه الأمير جعفر بن علي بن عمر بن جعفر الكثيري الذي بذل جهوداً كبيرة لإعادة الدولة الكثيرية ففشل بعد أن استولى على شبام ودحر يافع عنها، كما استولى على وادي عمد وبعض دوعن وحورة والكسر، وبوفاته انحصرت سلطة أبنائه وخلفائه في شبام فقط، يجاذبهم حبل السيطرة فيها بعض قبائل الموسطة من يافع، وعلى أنقاض هذه الإمارة قامت دويلة آل عيسى بن بدر الكثيري في شبام سنة **١٢٣٩**هـ الذين كان آخرهم منصور بن عمر المقتول في شبام سنة **١٢٧٤**هـ.

نشأ غالب بن محسن محباً للعزلة كثير التفكر في ضياع تراث قومه، وربما اشترك مع أهل قريته في النزهة بالقنص والصيد، ولكنه لم يكن

يخالطهم إلا بمقدار، وكان يتطلب المعمّرين من الرجال فيرتاح لما يسوقون له من أخبار آبائه وما جاء عنهم وفيهم من أشعار تتعرض لتاريخهم وأوصافهم.

واتصل في صباه بأكابر علماء القطر وصالحيه من العلويين وغيرهم بواسطة عمومته الذين كانوا على أتم اتصال بهم، وتلقى عنهم دروساً في الدين والأخلاق، ثم انخرط في سلك العسكرية بـشبام عند حاكمها من آل عيسى بن بدر، فنشأ لذلك نشأة دينية عسكرية حماسية خلقت منه بطلاً صالحاً للمهمة التي اضطلع بها فيما بعد.

❖ سفره إلى الهند:

وكانت الهند في ذلك العهد أحد المهاجر التي كان الحضارم يهاجرون إليها مدفوعين بعوامل طبيعية واجتماعية باحثين عن حياة الرخاء والسعادة ومفتشين عن مجال أوسع لاستخدام مواهبهم وإرضاء مطامحهم، وكان لغالب بن محسن أقارب سبقوه إلى حيدر أباد الدكن إحدى إمارات الهند المسلمة من بينهم علي بن أحمد وعبود بن سالم الكثيري فلحق بهم سنة ١٢٤٦هـ

وسرعان ما وجد الشاب نفسه مندفعاً إلى الالتحاق بالجيش النظامي، حيث تقدم بسرعة إلى درجة الجمعدارية بما أظهر من كفاءة وبما لقي من عون وتأييد بواسطة الجمعدار عبدالله بن علي العولقي الذي مهد له الطريق للاتصال بالوزير ناصر الدولة، ولم يلبث أن لحق بالعسكريين المقربين لدى نظام حيدر أباد.

وكان في حيدر أباد أيضاً عدد ضخم من يافع على رأسهم الجمعدار عمر بن عوض القعيطي الذي اتسعت ثروته، ولقي حظوة كبرى لدى نظام حيدر أباد، وكان هذا عبقرياً واسع المطامع بعيد النظر.

❖ بعث الدولة الكثيرية:

وفي حيدر أباد بدأ غالب بن محسن يفكر في بعث الدولة الكثيرية التي تلاشت أمام سيطرة يافع، وكانت حضرموت منقسمة إلى معسكرين: المعسكر اليافعي والمعسكر الكثيري، ولكل معسكر دُعاة وأنصار، وكان حضارم حيدر أباد شاعرين بسوء الحالة متتبعين لكل ما يجري في وطنهم من أحداث ومؤامرات، وكانت الحياة السياسية في حضرموت تتدافع تدافع الأمواج الصاخبة، وتنذر بهبوب عاصفة لم يكن أحد يتوقع نتائجها في ذلك الحين.

وكان غالب بن محسن يعرف أن التفكير في بعث الدولة الكثيرية معناه التعرض لتضحيات جسيمة وجهود مضنية ستراق دماء وتبذل أموال وتقتحم أخطار، فلن تتخلى يافع عن مواضع نفوذهم التي أصبحت وطناً لهم ولأبنائهم، ولن يتأخر ذلك المنافس الخطير صاحب الثروة الواسعة والعشيرة الباسلة الجمعدار عمر بن عوض القعيطي عن إمداد عشيرته من يافع وشد أزرهم بكل مستطاع، ولن يسمح بأي عمل حربي ضدهم أو أي طمع في الاستيلاء دون أن يقاومه ويستغله لقضاء حاجة في نفس يعقوب، ولكن الحياة كفاح في نظر الجمعدار غالب بن محسن، لقد صمم على أن يستعيد مجد آبائه مهما كلفه من ثمن، فلينزل إلى الميدان ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

❖ دعاة وتمهيد:

تناجى غالب بن محسن مع عمه علي بن أحمد وعبود بن سالم طويلاً، ودرسوا الموقف من جميع نواحيه، وانتهوا إلى أن يُبْحِر علي بن أحمد إلى حضرموت، فيتصل بأنصار الحركة من رجالات الشنافر «قبائل آل كثير» وكبار العلويين، ويضع معهم المناهج للسير عليها، وقد عمل علي بن أحمد فور وصوله إلى حضرموت بالاشتراك مع عبدالله بن محسن شقيق

الجمعدار غالب على بث الفكرة والاتصال بأنصارها ومؤيديها.

وكانت أولى الخطوات العملية ابتياع بلدة الغُرَف من قبيلة القرامصة التميميين سنة ١٢٦١هـ؛ لتكون نواة للدولة ومركزاً لأعمالها، ولما قدم عبود بن سالم اشترى للدولة حصن ابن مطهر من آل مقيص واحتله برجاله في نفس العام، ونشط بعد ذلك لمحالفة القبائل، فاتصل بآل كثير بدواً وحضراً فحالفهم ثم سار إلى ريدة الصيعر ثم الكَسْر وحالف نهداً، ثم حالف الجعدة وسيبان والحموم وعبيدة، وما زال يضرب في الأرض حتى انتهى إلى عين بامعبد وهو يحالف كل من يمر عليهم من القبائل، وكانت الدعاية بحضرموت تسير سيراً حثيثاً لإحياء السلطنة الكثيرية يمدها غالب بن محسن من الهند بماله ورأيه، ويتخذ أنصاره في حضرموت كل وسيلة لنجاحها.

❖ احتلال تريم:

إن هذه القبائل التي حالفها عبود بن سالم باسم دولة آل عبدالله الناشئة تُعد من أشد القبائل الحضرمية بأساً وأكثرها عدداً، وقد أمن شرها بهذا التحالف وضمن عدم تعاونها مع يافع، فلم يبق إلا الشروع في تطبيق البرنامج وإعلان الحرب والبدء بالهجوم.

لقد كانت تريم التي تسيطر عليها قبيلة لبعوس اليافعية أقرب المدن إلى مركز الدولة وأهمها وأول مدينة في شرق الوادي تحت سيطرة يافع، والأمل بعد ذلك قوي في احتلالها بسبب النزاع والتنافس بين حكامها اليافعيين والذي نشبت من أجله معارك دموية، فقد كانت في تريم ثلاث سلطات: سلطة لعبدالقوي غرامة في حارة الحوطة، وأخرى لابن عبدالقادر في النويدرة، وثالثة للنقيب بن لحمان في الخليف، وبين هذه السلطات خصومة وتناحر.

اتفق آل عبدالله مع صاحب سلطة الخليف على أن يحتلوا مواقعه كلها

ويبقى هو كأحد الأفراد العاديين مقابل معاش يخصص له، وقد قبل هذا الوضع بعد محاولات نكاية في عبدالقوي الذي يعتبر المسيطر الأول على المدينة، وأيقن غرامة بحرج الموقف وخطورة الحالة، فاضطر بعد مفاوضات لعقد اتفاقية تنازل بموجبها لآل عبدالله عن حقه في حكم تريم مقابل مرتب خصص له أيضاً.

دخلت جنود آل عبدالله إلى تريم بموجب ذلك الاتفاق في موكب حافل قرعت فيه الطبول ونشرت الأعلام، وأطلق الرصاص، استبشاراً بهذا الفتح الذي لم يرق فيه دم، ولم يكلفهم غالياً من ثمن، الأمر الذي تألم منه عبدالقوي غرامة وجعله يضمر في نفسه الثورة والانتقام.

وانتهز غرامة عارضاً من سوء تفاهم بينه وبين آل عبدالله فثار وثار معه بعض آل تميم ووصلته نجدة من يافع سيئون، ونشبت الحرب واضطرب الأمن، واستولى غرامة على المراكز الخارجية كالمحيضرة وحصن الشاطري وغيرهما، واستمرت الفتنة حوالي سبعة شهور حفرت أثناءها خنادق تحت الأرض وأشعل البارود تحت عدد من البيوت فحصل حريق وخراب ودمار، وكان الرصاص المنطلق في الجو لا يسمح للطير بالمرور، وأقبل عبود بن سالم بجنود قدم بهم من مأرب ومن العوالق والكرب وحاصروا تريم، واشتد الحصار على رجال غرامة حتى أكلوا ما لا يؤكل في الاختيار، فاضطر إلى التسليم في ربيع الثاني سنة **١٢٦٣**هـ حيث غادر تريم إلى سيئون ومنها إلى المكلا، وبذلك تم احتلال آل عبدالله لتريم أولى المدن الحضرمية الهامة.

❖ غزو سيئون وتريس:

بعد احتلال تريم اتجهت أنظار آل عبدالله إلى سيئون التي يحكمها آل الضبي اليافعيون، وكان بينهم من التنافس على الزعامة والرئاسة والخلافات الداخلية ما بين يافع تريم، الأمر الذي كان سبباً في نجاح الخطة المرسومة

لاحتلالها، وكان أبرز المتنازعين على السلطة في سيئون آل الشيخ علي وآل الشرفي، وقد تطور النزاع بينهم إلى اشتباكات دموية تبادلوا فيها إطلاق النار.

وحلت بسيئون قبل احتلالها ضائقة من الجوع والخوف بسبب انقطاع المواصلات والتهديد المحيط بها من الداخل والخارج حتى اضطر كثير من عائلات يافع إلى الانسحاب منها ومغادرتها، وقيل: إن بعض دعاة آل عبدالله عقدوا معاهدة بين بعض آل الضبي من سكان سيئون وبين آل عبدالله؛ ليفتحوا أبواب المدينة لجنود آل كثير أو يكفوا على الأقل عن مساعدة إخوانهم.

وأقبلت قافلة تحمل الأقوات والذخائر من يافع في الشحر إلى إخوانهم في سيئون فتعرض لها آل كثير في وادي جثمة، وقد انكسر اليافعيون واستولى جماعة من العوامر على القافلة وأتوا بها إلى تريم، الأمر الذي شجع المقدم عبود بن سالم إلى الإسراع بالهجوم على سيئون فقد أقبل عليها بألفي مقاتل من آل كثير والعوامر وآل باجري وآل جابر والحموم، وبعد حصار دام ثلاثة أيام هاجم المدينة من الشرق والغرب، فلم تقاوم يافع طويلاً، وخلصت المدينة لآل عبدالله بعد خمسة عشر يوماً من بداية الهجوم سنة **١٢٦٤هـ**.

وحاولت جماعة كبيرة من يافع استرداد سيئون في ربيع الأول سنة **١٢٦٥هـ** وباغتوا حاميتها عند الفجر واحتلوا أكثر المدينة، ولكن آل كثير هاجموهم بنحو ثلاثة آلاف مقاتل، واستحر القتل في الفريقين، ودافع اليافعيون دفاع المستميت، ولكنهم اضطروا في النهاية للانسحاب.

ورأى آل كثير أن بقاء تريس الواقعة بالقرب من سيئون في يد يافع خطر يهدد سيئون، فحاصروها شهرين ومنعوا عنها الماء حتى اضطر حاكمها من آل النقيب إلى التسليم، وخرج ناجياً بنفسه في جوار سالمين بن عبدالله أحد رؤساء آل طالب الكثيرين سنة **١٢٦٥هـ**.

❖ معركة مرير:

شجعت هذه الانتصارات آل عبدالله على التفكير في غزو الساحل واحتلال الشحر لتكون مركزاً لتجارتهم ومواصلاتهم وقاعدة حربية لبسط نفوذهم على الساحل، فجهزوا جيشاً كثيفاً حاصر الشحر من البر، كما حاصرتها من البحر سفن الأتراك التي قدم بها من جُدَّة السيد إسحق بن يحيى والأمير عبود بن سالم الكثيري، وتحمس آل بريك حكام الشحر ووصلتهم نجدات يافع التي أرسلها القعيطي والكسادي فنشبت معركة حامية في «مرير» بالقرب من الشحر، استبسل فيها الفريقان وانتهت بهزيمة آل كثير وقتل عدد كبير من رجالهم، وكان ذلك سنة **١٢٦٩**هـ، وقد سبق في ترجمة الأمير علي ناجي بن بريك تفصيل وافٍ لهذه الحادثة فليرجع إليه من أراد.

❖ غالب بن محسن يعود من الهند:

كانت أنباء الانتصارات تصل إلى الجمعدار غالب بن محسن وهو في الهند فتضاعف من عزيمته وتدفعه إلى مواصلة الكفاح، وقد خلقت هذه الحوادث الدموية في حضرموت بين يافع وآل كثير جواً من الضغينة والتنافس بين غالب بن محسن وأنصاره من جهة وبين عمر بن عوض القعيطي وأنصاره من جهة أخرى، وأخذ كل فريق يهدد ويتوعد ويعمل كل ما في وسعه للفوز والغلبة، وقيل: إن ملك حيدر أباد خشي قيام الفتنة في بلاده بين العرب عندما اشتد النزاع والصراع بين البطلين، فأوعز بترحيل الجمعدار غالب بن محسن عن مملكته.

ومهما يكن من أمر فقد غادر السلطان غالب بن محسن الهند متجهاً إلى حضرموت؛ ليشرف على تنفيذ بقية المنهج الضخم وليقود المعارك بنفسه، وقد وصل إلى سيئون قادماً إليها بطريق ظفار في شهر صفر سنة **١٢٧٢**هـ حيث قوبل بحفاوة بالغة واستقبال الفاتحين.

وهكذا قدم غالب بن محسن إلى حضرموت واسمه ملء الألسنة

والأسماع، وأخباره ملء الأندية والمحافل، فقد أصبح الناس في حضرموت وليس لهم حديث سوى أنباء القتال في تريم وسيئون والاستيلاء عليهما، ثم جلاء يافع عن تريس وغزو الساحل، ومعركة مرير، إلى غير ذلك من الأحاديث التي يكون محورها ومركز الدائرة فيها غالب بن محسن.

❖ الاتحاد قوة لا تغلب:

وحدث ما كان يتوقعه غالب بن محسن من خطر منافسه الكبير الجمعدار عمر بن عوض القعيطي، فقد أيقنت قبائل يافع بأن ما تلقت من صدمات إنما هو نتيجة تفرقها وتخاذلها، فاتحدت تحت قيادة القعيطي وتوجيهه، فتغير الموقف وتكافأت القوى.

حاول السلطان غالب بعد وصوله أن يستولي على شبام وكان القعيطي قد احتلها، فحشد ما لا يقل عن ألفي جندي اتجهت إلى شبام في ذي الحجة سنة ١٢٧٥هـ، فلم يتمكن المهاجمون من الدنو من أسوار المدينة، ودارت المعركة في ضواحيها فانهزم آل كثير تاركين ثلاثة عشر قتيلاً وخمسة وعشرين جريحاً.

وغيّر غالب بن محسن اتجاهه بعد هذه الهزيمة إلى الساحل محاولاً الحصول على منفذ إلى البحر يضمن به سلامة مواصلاته من الخارج، فعقد النية على غزو الشحر وجهز جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل هاجم بهم المدينة من جميع جهاتها البرية بغتة، دون أن يكون حاكمها علي ناجي بن بريك على استعداد، فلم تكن المقاومة شديدة واستولى المهاجمون على المدينة في جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣هـ، وواصل الجيش الكثيري زحفه محاولاً الهجوم على المكلا لاحتلالها، فبدأ بمهاجمة الحرشيات والبقرين واحتلهما بعد قتال عنيف.

وكانت قد وصلت نجدة يافع من الداخل محاولة الدفاع عن الشحر، فلما علمت بسقوطها اتجهت إلى المكلا حيث انضمت إلى جنود الكسادي

للدفاع عن المكلا، فاشتبكت مع المهاجمين في قتال عنيف في ضواحي البقرين انتهى بهزيمة آل كثير وتخليهم عن مراكز البقرين والحرشيات.

وفي **٢٤** من ذي الحجة سنة **١٢٨٣**هـ أعد القعيطي حملة كبرى من البحر والبر يقدر رجالها بثلاثة آلاف مقاتل هاجمت الشحر من جميع جهاتها واقتحمت الأسوار، ولم يستطع جيش السلطان غالب المقاومة أكثر من يومين تخلى بعدها عن المدينة تاركاً زهاء أربعين قتيلاً.

لم ييأس غالب بن محسن ولم يضعف من عزيمته هذا الفشل الذي لاحقه في الساحل، فأعاد الكرة لاسترداد الشحر في رجب سنة **١٢٨٤**هـ وتمكن من اقتحام المدينة واحتلال جانب كبير منها، ولكن يافع استبسلت في الدفاع واستمرت المعارك بضعة أيام في المنازل والشوارع بالبنادق ثم بالسلاح الأبيض، فاضطر السلطان غالب إلى الانسحاب بجيشه، وكانت خسائره **١٢٠** قتيلاً و**٦٠** جريحاً و**٢٠** أسيراً.

وعاد السلطان غالب إلى سيئون ليستأنف نشاطه ويعيد التفكير في برامجه من جديد، ورأى أن بقاء آل البكري في مريمة وسط المنطقة الكثيرية خطر يهدد مصالح آل كثير فأجلاهم عنها بدون حرب في ذي القعدة سنة **١٢٨٤**هـ إلى شبام، وكردٍّ فعل لهذا التصرف أجلى القعيطي آل زيمة من غربي شبام وهم من آل كثير وأسكن آل البكري في مساكنهم، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الريضة بالقطن.

أما غيل بن يمين التي يسكنها الشناظير من قبيلة لبعوس اليافعية فقد سلمت لآل كثير قبل ذلك بواسطة بيت علي من الحموم الذين اتفقوا مع آل كثير على أن يقوموا بحرب الشناظير ولهم نصف أموال يافع في هذه المنطقة، وبعد مقاومة دامت أربعين يوماً سلم الشناظير في رجب **١٢٧٥**هـ، ولم يستطع القعيطي إرسال نجدة لهم لبعد المسافة واشتغاله بالحرب في جبهات أخرى.

❖ الحملة الكبرى على آل كثير:

كان الجمعدار عوض بن عمر القعيطي قد تشاور مع كبار رجال يافع وعقدوا النية على غزو آل كثير في عقر دارهم واسترداد ما فقدوه من أموالهم وبيوتهم في المنطقة الكثيرية، وأعدوا لهذا الغزو سبعة آلاف مقاتل من يافع ومواليهم ومن هنود ورويلة وكرب وقبائل دهم ويام وآل تميم ونهد وأخلاط من القبائل الأخرى.

وفي مستهل شعبان سنة **١٢٨٥هـ** بدأوا هجومهم وكانت مدينتا سيئون وتريم الهدف الأول من هذا الزحف، وقد وضع الجمعدار عوض بن عمر مع إخوانه خطة محكمة تكفل نجاح هذه الحملة، ولكن اختلاف قواد الفرق من الجيش القعيطي واستبداد كل رئيس برأيه وعدم تنفيذهم لأوامر القيادة العليا وتسرب الحسد والأنانية إلى من يعنيهم الأمر من يافع، كل هذه الأسباب سببت فشل هذه الحملة فشلاً ذريعاً، أضف إلى ذلك ثبات آل كثير في وجه المهاجمين فقد كانوا يرون في هذا الغزو معركة حياة أو موت بالنسبة لهم، وسيأتي في ترجمة الجمعدار عوض بن عمر تفصيل هذه المعارك.

وبالجملة فقد مُنِيَ هذا الجيش القعيطي على وجه العموم من كل النواحي التي هاجم آل كثير منها بخسائر، الأمر الذي جعل قواد الحملة يفضلون العودة من حيث أتوا قانعين من الغنيمة بالإياب.

وفاة غالب بن محسن:

سبق القول بأن نزول القعيطي في الميدان غيَّر الموقف وأكسب الكفتين تعادلاً، فلم يتمكن يافع من استرداد ما فقدوه في حضرموت، ولم يستطع السلطان غالب بن محسن إرضاء مطامعه في التوسع، وهكذا بقي الحال إلى أن أدركت غالب بن محسن الوفاة بسيئون في شهر رجب سنة **١٢٨٧هـ** عن أربعة وستين عاماً حافلة بالجليل الخالد من الأعمال.

والمعروف من شمائله أنه - رحمة الله عليه - كان شهماً مقداماً حسن السيرة متمسكاً بالدين، يقول ابنه السلطان منصور: لا أذكر أن أبي ضربني إلا مرة واحدة، كنت نمت عن صلاة الصبح جماعة في المسجد، فضربني بفَتيلة البندق - بعد أن أقفل باب الحجرة - ضرباً مبرحاً.

❖ خلفاؤه من بعده:

تولى السلطنة بعد وفاة غالب بن محسن ابنه المنصور بن غالب المتوفى بعرفات في ٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ، ثم علي بن منصور المتوفى بسيئون في شعبان سنة ١٣٥٧هـ، ثم جعفر بن منصور الذي توفي سنة ١٣٦٨هـ في جمادى الآخرة، ثم تولاها السلطان الحالي - وهو في ريعان شبابه- الحسين بن علي بن منصور بن غالب، وكان للسلطان غالب بن محسن ابن آخر غير المنصور هو محسن بن غالب تشبث أبناؤه بالاستقلال بحكم تريم، وحدث نزاع وانشقاق بسبب ذلك، ويقول بعض المطلعين: إنهم أجبروا في النهاية على التنازل عن مطالبهم في الاستقلال في سنة ١٩٤٥م.

وقد حصلت حوادث حربية في عهد السلطان منصور بينه وبين القعيطي، لم يكن لها كبير دخل في تغيير الوضع الجغرافي والسياسي لدولة آل عبدالله، ولكن أهم الحوادث في عهده معاهدة عدن المنعقدة بين الدولتين القعيطية والكثيرية في سنة ١٣٣٦هـ والتي تراضى بموجبها الفريقان على إيقاف الأعمال الحربية، وأعلنا فيها عن استعدادهما للتعاون في إصلاح البلاد.

وبمقتضى هذه الحادثة أيضاً اعترف الكثيري بمعاهدة الحماية بين القعيطي والتاج البريطاني على أنها ملزمة لحكومته، وهكذا أصبح الكثيري لأول مرة تحت الحماية البريطانية منذ ذلك التاريخ.

وأهم الحوادث في عهد السلطان علي بن منصور تعيين مستشار إنكليزي

لدولتي حضرموت تعهدتا بأن تقبلا نصائحه فيما عدا الأمور الدينية وتقاليد البلاد، وكان أول مستشار إنكليزي هو المستر إنجرامس، وفي عهد السلطان جعفر بن منصور جردت حكومة عدن حملة لإخضاع عبيد صالح بن عبدات الكثيري أمير الغرفة الذي أبى الخضوع لسلطنة آل عبدالله وكان ذلك في فبراير سنة ١٩٤٥م، وقد تمكنت هذه الحملة من احتلال الغرفة وتسليمها لسلطان سيئون بعد إلقاء القبض على الأمير عبيد صالح وإرساله إلى عدن بالطائرة، حيث واصل سفره إلى سنغافورة التي يملك فيها ضياعاً وعقارات تتألف منها ثروته التي كان يعتمد عليها في حكم منطقة الغرفة، أما في عهد السلطان الحالي فتجري عدة إصلاحات إدارية وثقافية واقتصادية بل وسياسية أيضاً.

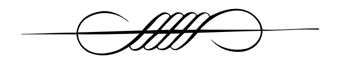
❖ حدود السلطنة الكثيرية:

في عهد السلطان جعفر بن منصور تعينت لجنة لتحديد الحدود بين السلطنتين القعيطية والكثيرية مكونة من مندوبي السلطنتين تحت إشراف المستر «شَبرد» المستشار المقيم، وقد انتهت هذه اللجنة المشتركة إلى قرار حاسم في موضوع الحدود وقعت المصادقة عليه رسمياً، وهذه هي حدود السلطنة الكثيرية نقلاً عن الخريطة الرسمية التي وضعت لتبيين الحدود:

تبتدئ في الشمال الشرقي من شرق تريم مباشرة، وتمتد في خط متعرج شرقي جنوبي إلى حصن الضبيعة قرب منطقة الحموم، ثم يذهب الخط في اتجاه غربي جنوبي إلى حسر زبون شمال ريدة المعارة، ويعود الخط في اتجاه غربي شمالي، ثم في اتجاه أقرب إلى الاستقامة منحرفاً قليلاً إلى الشمال إلى أن يحاذي وادي الحرية فيتجه إلى الشمال محاذياً لهذا الوادي حتى يصل إلى الحزم شرق شبام، حيث يمر غربي الحزم وغربي المحجر إلى قارة آل عبدالعزيز، فينحرف غربيها إلى الشمال.

ويدخل في هذه الحدود من الأودية: وادي عدم وأودية مدر وجعيمة

وعيديد وجثمة وأعالي وادي ثبي ووادي بن علي ووادي تاربة وغيرها، وتشتمل على المدن والقرى التي تبتدئ من تريم شرقاً إلى الحزم شرقي شبام غرباً ومن بينها عاصمة السلطنة سيئون، والغرفة والحوطة وجفل وتريس ومريمة وتاربة ومدودة والغرف، وأهم القبائل التي تسكن المنطقة الكثيرية هم: آل كثير والشنافر أي القبائل التابعة لآل كثير مثل آل جابر وآل باجري والعوامر وغيرهم.



«١٨»

محمد بن عمر بن سلم

أسرته، نسبه - ميلاده، نشأته - رحلته إلى مصر، دراسته في الأزهر - إجازة العلماء له - عودته إلى الشحر - زيارته لوادي حضرموت - لماذا اختار غيل باوزير - بناؤه المعهد - جانب من سيرته - وفاته - تلاميذه

❖ أسرته، نسبه:

في حارة عيديد من مدينة الشحر بيت متواضع تقيم فيه عائلة تحدرت من أسرة كريمة عرفت بالنبل والفضل، يتصل نسبها بالهاشميين من بني عقيل بن أبي طالب، ولا يعرف بالضبط متى هاجرت هذه الأسرة إلى حضرموت، ولكن التاريخ يثبت أنها كانت معروفة بهذا الاسم المتداول الآن - ابن سلم - في مطلع القرن السابع الهجري، فقد ذكروا أن العلامة الشيخ علي بن سلم أحد كبار تلاميذ السيد عبدالله بن علوي ابن الفقيه المقدم كان مجاوراً مع شيخه بمكة في شهر رمضان، فكانا إذا فرغا من صلاة التراويح أحرم كل منهما بركعتين يقرأ فيهما القرآن كله، وكانت هذه الأسرة تقطن أثناء القرن السابع بقرية في ضواحي عينات تدعى قرية آل بن سلم، فيها توفي الشيخ علي السابق ذكره، وبها دفن.

ويظهر أن أحد أجداد هذه العائلة التي نتحدث عنها اضطر أن ينتقل بأهله من الداخل أثناء الفتن والحروب التي كان وادي حضرموت مسرحاً لها طيلة قرون طويلة، فاختار الإقامة في مدينة الشحر التي كانت أهم مدن

الساحل في ذلك العصر، وهي وإن لم تكن بمنأى عن براكين الفتن والأحداث الدموية فقد كانت أسباب العيش فيها متوفرة وعوامل الأمن والهدوء أقل تعرضاً لزلزال الاضطرابات، والهجرة من مناطق الداخل إلى السواحل الحضرمية الجنوبية معروفة منذ أمد طويل.

❖ ميلاده، نشأته:

في سنة **١٢٧٤**هـ كان ميلاد صاحب الترجمة محمد بن عمر بن بكران بن سلم في بيت والده بحارة عيديد من مدينة الشحر، في عصر حالت فيه ظروف البلاد السياسية وأحوالها العامة دون ازدهارها الثقافي والاجتماعي، ومن أسرة عريقة في الشرف والفضل.

وليس بين أيدينا مصادر موثوق بها تلقي على نشأته الأولى شيئاً من الضوء سوى أنه نشأ تحت رعاية أبيه الذي لم يلبث أن عاجلته منيته في غيل باوزير أثناء زيارته لها ودفن بمقبرة «فحيل» المشهورة، وسوى أنه تلقى مبادئ القراءة والكتابة ودرس القرآن والفقه وأوليات علوم اللغة على المشتغلين بهذه الشؤون من طلبة العلم الموجودين إذ ذاك بالشحر، وكان معروفاً منذ صغره بالذكاء والفطنة والرغبة الشديدة في تحصيل العلم والانقطاع له، وقد واصل الدرس ولازم المشتغلين بالعلم حتى استطاع في سن مبكرة أن يتصدى للإفتاء والتدريس في مساجد الشحر، وكان يجلس للدرس غالباً في مسجدي عيديد وابن عمران، ولم يصل إلينا من أسماء أساتذته الذين درس عليهم بالشحر سوى اسم الشيخ ناصر بن صالح ابن الشيخ علي اليافعي، ولعله كان أكثر ملازمة له واستفادة منه.

❖ رحلته إلى مصر، ودراسته في الأزهر:

لم تكن الحياة العلمية الضئيلة بالشحر آنذاك لتشبع نَهم صاحب الترجمة أو تروي له غليلاً، وليس في هذا المقدار الذي وعاه من العلم من زملائه وأساتذته ما يكفيه القيام ببث حركة ثقافية تدب روحها في أنحاء

الساحل، فتتضامن مع الحركة العلمية التي أخذت تنمو وتتقدم في سيئون وتريم بالداخل، وهو لو كان يطلب العلم ليكون وسيلة إلى الجاه والعيش الهنيء لاكتفى بما عنده قانعاً بما يدر عليه من بسطة في العيش وأثر في الحياة محدود يتناسب مع أحوال عصره وبيئته، ولكن نظره كان أبعد من ذلك، وكانت همته أسمى من أن يقف أمام مراميها الإصلاحية إيثار الراحة والركون إلى الجاه الزائف.

لقد كان الرجل يريد مزيداً من العلم يكون ذخيرته في الإصلاح والدعوة إلى الله ونشر تعاليم الإسلام، فلم يجد أحسن من أن يتجه إلى أكبر جامعة إسلامية في العالم، إلى الأزهر الشريف، حيث يتخرج فحول الرجال وأقطاب الدين في العالم الإسلامي، والجدير بالملاحظة والأمر الذي يسترعي الانتباه في هذه الظاهرة أنه لم يكن من عادة سكان الساحل التغرب إلى الأقطار البعيدة وتحمل مشاق السفر وأتعابه في ذلك العهد طلباً للثروة والتجارة فضلا عَن السعي للعلم والأدب.

وليس من الصدفة في شيء أن يشذَّ صاحبنا فتسوقه الأقدار سوقاً إلى القاهرة دون وعي أو اختيار، فلم يبق سوى طموح الرجل وبعد نظره وسمو همته يدفعه كل ذلك دفعا إًلى الخروج على التقاليد التي ألفها مواطنوه والارتفاع بعقله وتفكيره فوق مستوى الوسط الذي عاش فيه، فإذا هو في القاهرة يكرع من أكبر منهل ديني إسلامي، ويصل سواد ليله ببياض نهاره في الدرس والتحصيل استعداداً لتنفيذ آماله وأمانيه.

ولم نقف على تاريخ رحلته إلى مصر بالضبط، ولكنا نستطيع أن نستنتج من تاريخ الإجازة التي أجازه بها كبار مشايخ الأزهر عند اعتزامه العودة إلى وطنه وبعد حصوله على شهادة العالمية أن رحلته كانت سنة ست بعد الثلاثمائة والألف، فقد كتبت هذه الإجازة في ١٥ صفر سنة ١٣١١هـ، فإذا لاحظنا ما أجمع عليه من عرفنا من تلاميذه المتحدثين عنه من أنه أقام

في مصر أربع سنين وأشهراً تبين صحة ما ذهبنا إليه من تحديد تاريخ سفره.

أما العلوم التي تلقاها في الأزهر فهي: التفسير والحديث والأصول والفقه وعلوم اللغة والمنطق والفلك وغيرها من الدروس التي كانت تدرسها الأقسام العالية في الجامعة الأزهرية.

وكان أخص من اتصل بهم من مشيخة الجامع الأزهر وتلقى عنهم علومه شيخ الإسلام محمد الأنبابي، والشيخ أحمد الرفاعي سمع عنه الحديث، والشيخ إسماعيل الحامدي سمع عنه النحو، والشيخ الأشموني، والشيخ حسين زائد مدرس علم الميقات.

❖ إجازة العلماء له:

بعد أن أنهى دراسته في الأزهر، وقرر العودة إلى وطنه كتب له كبار مشايخه هذه الإجازة التي عثرت عند أحد كبار تلاميذه على النسخة الأصلية التي أمضاها ما يزيد على خمسة وعشرين من رجال الأزهر من علماء المذاهب الأربعة، بينهم الشيخ إسماعيل الحامدي المالكي، وهارون عبدالرزاق المالكي، وحسن حسن بدير الجريسي خادم القرآن بالأزهر، ومحمد موسى البجيرمي الشافعي، وعبدالوهاب الخضري الشافعي، وحسن السقا الشافعي خطيب الأزهر، وحسين زائد مدرس علم الميقات، وإبراهيم الظواهري، وحسن المرصفي، ومتولي علي الحنفي، وأحمد السيوني الحنبلي وغيرهم، وقد جاء في هذه الإجازة بعد الديباجة ما نصه:

«وكان ممن هاجر لمصرنا، وعكف على اقتطاف ثمرات الفنون العلمية من رياض درسنا، وحضر في أزهرنا الكتب المختصرة والمطولة، من بلغ مراده من هذا الشأن واستكمله، ولدنا وقُرة أعيننا المرتوي من بحر الحقائق الشيخ الفاضل والجهبذ الكامل محمد بن عمر بن سلم العقيلي الشحري، ولما عادت على هذا الماجد عوائد أزهرنا، وتحلى بأنضر حلة من محاسن مصرنا، وحَنَّتْ له الأوطان، وطلبه الأهل والإخوان، ولبّى

وأجاب، وحَنّ للّقاء والاقتراب، بعد أن ركب في مدته الطويلة بأزهرنا جياد فكر لا تُسبق، واستعمل في تحصيله عوالي همم لا تلحق، حتى أدرك في العلوم والفضائل غاية وقفت دونها همم المحصلين، ودقة قصرت عنها أنظار المدققين، استجازنا في الفنون العلمية ومروياتنا السنية، فأجزناه بكل ما تجوز لنا روايته ودرايته إجازة عامة في التدريس والفتوى، ونوصيه بتقوى الله في السر والنجوى، أجرى الله على يده نفع العباد، ورفع كلمة الحق والسداد، ونرجوه أن لا ينسانا من خير الدعوات في أماكن الإجابات».

وقد أجازه الشيخ أحمد الرفاعي المالكي إجازة خاصة برواية صحيح الإمام البخاري وإجازة عامة بما تلقاه وأُجيز به من مشايخ عصره، وفي مصر اجتمع بالعلامة السيد أحمد بن حسن العطاس أثناء زيارته لها، وكان هذا الاجتماع بداية صلة متينة بين الشخصيتين الكبيرتين، وقد توثقت هذه الصلة بعد عودتهما إلى حضرموت وأثمرت تعاوناً بينهما فيما هو بسبيله من نشر تعاليم الإسلام والدعوة إلى الله.

❖ عودته إلى الشحر:

إذا جرينا على استنتاجنا السابق في تاريخ سفره إلى مصر فإن عودته من القاهرة إلى الشحر تكون في سنة ألف وثلاثمائة وإحدى عشرة، وقد أخذت الأحوال في البلاد الساحلية تستقر وتسير فيها الحياة سيرا طَبيعياً، فقد خضعت أهم مدن الساحل للسلطنة القعيطية القوية الفتية، وابتعدت عن الأذهان فكرة الغارات والحروب الأهلية بفضل نفوذ هذه الدولة وقوة بأسها، فكان السبيل - لذلك - ممهداً أمام المصلحين والدعاة لبث دعوتهم ونشر تعاليمهم.

وطبيعي أن يتخذ العلامة ابن سلم من الشحر مسقط رأسه محوراً لنشاطه ومركزاً لدعوته، فعقد فيها دروساً عامة للوعظ والإرشاد، ونشر أحكام الدين ومبادئ الأخلاق والفضيلة، وتذكير العامة بالله واليوم الآخر،

ودروساً خاصة للطلبة والمنقطعين للعلم.

وقد أخبرني الأستاذ السيد محمد بن هاشم الأديب المؤرخ والكاتب الحضرمي المعروف أنه كان يختلف في هذه الآونة إلى درس الشيخ محمد بن سلم للأخذ عنه والاستماع إليه، وقال: إنه عرض على الشيخ قصيدة من نظمه في مدح السلطان غالب القعيطي فأثنى عليها واستغرب صدورها من الأستاذ في مثل سنه.

وقد توافد الناس لحضور درسه وقصدوه من كل ناحية لاستفتائه في المسائل الشرعية التي تعرض لهم حتى شاع ذكره وانتشر صيته في جميع أنحاء الساحل والداخل، وعرض عليه قضاء الشحر أيام ولاية الجمعدار حسين بن عبدالله القعيطي عليها فرفض مفضلاً التفرغ للدعوة إلى الله وخدمة الدين والأمة عن طريق نشر العلم على سطوة القضاء وجاه الحكم ومتاع الدنيا، فقد كانت نزعة الرجل إلى الإصلاح الاجتماعي أقوى من أن تخضع لتأثير المادة أو شهوة الحكم.

❖ زيارته لوادي حضرموت:

أخبرني غير واحد ممن عاصروا الشيخ في هذه الفترة أنه كان مقتنعاً بوجوب البحث عن مدينة أخرى غير الشحر تتوفر فيها الوسائل التي يراها لازمة لنجاح مشروعه الذي هو بصدده من بناء مؤسسة علمية يتخصص فيها الطلبة في علوم الدين واللغة وتضم قسماً داخلياً لإيواء الطلبة الغرباء، وقبل أن يصل إلى قرار حاسم في الموضوع رأى أن يقوم برحلة إلى داخل حضرموت لزيارة علمائها وصالحيها والتعرف إليهم، وأخذ فكرة عن مدى الثقافة الموجودة هناك ونظام التدريس المتبع عندهم.

وقد كانت هذه الزيارة ذات أثر طيب بالنسبة للمشروع الذي طالما شغل تفكيره، فقد استطاع أن يُكَيّف أسلوبه في الحياة وطريقة معالجته للأمور بالمقدار الذي يضمن لخطته النجاح، وكان الرجل على جانب كبير

من الذكاء ورجاحة العقل والكياسة واللباقة، وقد أثنى عليه علماء حضرموت واعترفوا بفضله وفي مقدمتهم الزعيم الروحي الكبير العلامة السيد علي بن محمد الحبشي، وقد أشار إليه في أحدى قصائده. أما العلامة السيد أحمد بن حسن العطاس فقد كان أكثرهم اتصالاً بالشيخ محمد وأشدهم عناية به، وهو من أوائل المشجعين له على الإقامة بغيل باوزير وبناء المعهد العلمي بها «الرباط».

هذه هي الزيارة الأولى التي قام بها العلامة ابن سلم لزيارة بلدان الداخل، أما الزيارة الثانية فقد كانت بعد بنائه الرباط في غيل باوزير واستقراره بها وبعد أن كان له تلاميذ وأتباع كثيرون، فقد سار إليها في جماعة كبيرة من أتباعه وطلبته، وكان يقابل بالحفاوة والإكرام حيثما اتجه وأينما حل، وقد وجد الطلبة في هذه الزيارة الفرصة الوحيدة للتعرف إلى كثير من الشخصيات ذات المكانة المرموقة في البلاد في عصر كانت صعوبة المواصلات تحول فيه دون إتاحة هذه الفرصة لكل طالب.

❖ لماذا اختار غيل باوزير؟

أخذ ابن سلم عقب عودته من الداخل يفكر جدياً في المكان الصالح لتنفيذ مشروعه الضخم فولى وجهه نحو المكلا وتردد إليها غير مرة واعظا وًمدرساً ومتصلاً بمن فيها من الشخصيات ورجال الحكم وأعوانهم وأرباب الثروة، ودارساً للحالة هناك. وإذا كان صدره لم ينشرح للإقامة بالمكلا فقد أوجدت له هذه الزيارات المتكررة إليها أصدقاء مخلصين وأعواناً بررة أكثرهم من أرباب الثروة وذوي الجاه والنفوذ، وأكبر الظن أنه أفضى إليهم بخبيئة صدره فوعدوه بالعون والتأييد.

وفي الطريق إلى المكلا كان ابن سلم كثيراً ما يعرج على غيل باوزير فينزل ضيفاً على آل «أبو سبعة» الذين نزحوا من المكلا لزراعة التمباك «التبغ» في الغيل والتجارة فيه، وربما قصد الجامع فأدى الفريضة وزار

ضريح الشيخ عبدالرحيم باوزير، وحضر مرة أحد الاجتماعات في مسجد السيد عمر التي يقيمها الأهالي لقراءة قصة المولد النبوي، فتحدث إلى الناس في هذا الاجتماع، وأعجب الحاضرون بغزارة علمه وطلاقة لسانه وقوة بيانه، وخرجوا وقد استولى الرجل على قلوبهم فراحوا يذيعون على الناس ما سمعوا وما رأوا مُكْبِرين لهذا الزائر الغريب معجبين به.

وحدث مرة أن قدم إلى الشحر جماعة من آل باوزير سكان الغيل لاستئناف حكم أو قرار صدر من قاضي الغيل الشيخ عبدالقادر بامخرمة في صالح فريق منهم ضد فريق آخر فاستعان حاكم الشحر الجمعدار حسين بن عبدالله القعيطي بالشيخ محمد بن سلم في الفصل بين المتخاصمين وإرجاع الحق إلى نصابه، وتبين خطأ القاضي بعدما استقدم إلى الشحر ونوقش في الإجراءات والمقدمات التي بنى عليها حكمه أو قراره، وكانت هذه الحادثة من بين الأسباب التي كان لها الفضل في تردد اسم الشيخ محمد في أرجاء الغيل وفي توثيق صلته ببعض المشايخ من آل باوزير وعلى الأخص الشيخ عبدالصادق بن سالم باوزير أحد الذين قدموا الشحر في قضية الاستئناف والذي أصبح فيما بعد من أكبر أنصاره ومن أبرز طلبته، كما كانت هذه الاتصالات والزيارات المتكررة لغيل باوزير من جملة الأسباب التي دعته للتفكير في اختيار هذه البلدة الريفية الهادئة الوادعة لإنشاء المعهد الديني بها، فإن البعد عن ضوضاء المدن وصخَبها من أهم العوامل لصفاء الفكر وراحة العقل والجسم وأدعى للاستزادة من الغذاء العقلي، أضف إلى ذلك قلة تكاليف المعيشة في هذه المنطقة الزراعية وبساطتها وجودة هوائها وتوفر المياه العذبة النقية بها.

ولم تدخل سنة ألف وثلاثمائة وعشرين حتى كانت الفكرة قد تحولت إلى إرادة وعزم وتصميم، فغادر الشحر يصحبه أقدم تلاميذه الشيخ عبدالله بن محمد بن طاهر باوزير متجهاً إلى الغيل حيث نزل ضيفاً على الشيخ

عبدالصادق بن سالم باوزير، وعقد في مساء اليوم الذي قدم فيه أول دروسه العامة في مسجد الجامع، ثم استمر يلقي دروسه الليلية العامة في هذا المسجد ويجلس إلى الطلبة صباحاً في بناية خاصة أقيمت لهذا الغرض بالقرب من مسجد السيد عمر.

وقد توافد الطلبة من كل الطبقات للأخذ عنه وتفرغوا للطلب، وكان أكثر الطلبة في البداية من أبناء المشايخ آل باوزير الذين نزل ضيفاً عليهم، فبادروا إلى تعضيده ومساعدته وسهلوا له مهمته وزوجوه إحدى بناتهم، وكانوا عوناً له في كل أعماله الثقافية والإصلاحية، ثم حصل بينه وبينهم بعض الجفاء، وظل جماعة منهم مخلصين له إلى أن توفي رحمه الله.

❖ بناؤه المعهد:

وضاقت البناية الجديدة بالطلبة ولم يكن بُدٌّ من إنشاء معهد ضخم يتناسب مع المستقبل الذي يريده له صاحب الفكرة، ولم تمض شهور حتى أصبحت الفكرة حقيقة واقعة، وإذا المعهد يحتل أحسن بقعة في الشمال الغربي لمسجد الشيخ عبدالرحيم بن عمر «الجامع» ويتألف من طابقين: الأول منه للدراسة والاجتماعات العامة وأداء الصلوات، والثاني يتكون من عدة غرف لإيواء الطلبة الغرباء، وأنشئت في الجانب الشرقي من المعهد عدة برك «جوابي» تمر بها مياه العين التي حفرها مؤسس الغيل الشيخ عبدالرحيم بن عمر لِتَسُدَّ حاجة المعهد إلى الماء.

وبنى صاحب الترجمة منزلاً لإقامته ملاصقاً للمعهد من الجهة الغربية، واشترى قطعة أرض شمالي المعهد، جعل منها حديقة تابعة للمنزل كان يوليها جانباً من عنايته ويتعهد ما فيها من النخيل والمزروعات.

وانتظمت الدراسة في المعهد، وقسّم الطلبة إلى فرق حسب مستواهم في الفهم والإدراك وحظهم من الثقافة، وشغلت أكثر ساعات النهار وجزء كبير من الليل بالدروس الخاصة والعامة والاجتماعات المفيدة، ووزعت

دروس الدين وعلوم اللغة على هذه الساعات، وازدحمت الحلقات بالطلبة على اختلاف أعمارهم يتسابقون في التحصيل ويتنافسون في السبق.

وكان صاحب الترجمة يحتفظ بمكتبة كبيرة حافلة بكتب التفسير والحديث والأصول والفقه والمنطق والأدب والتاريخ وعلوم اللغة والتصوف والطب والفلك وغيرها، وكانت هذه الكتب في متناول جميع المتأهلين من الطلبة.

واتجهت الأنظار من جديد إلى غيل باوزير حيث أشرقت شمس المعرفة من هذا المعهد الديني، الذي سخرت له العناية الإلهية رسول الأزهر الشريف العلامة ابن سلم فأحيا دروس السنة وعلوم القرآن، وجدد الدراسات الفقهية واللغوية بعد أن مضت على هذه المدينة فترة طويلة اختفى فيها كل أثر للعلم والمعرفة أو كاد.

وهكذا أصبحت غيل باوزير بفضل العلامة ابن سلم قبلة الأنظار وكعبة الطلبة والزوار يقصدها الناس من كل مكان لطلب العلم ومعرفة أحكام الشريعة، كما كانت كذلك في القرن التاسع الهجري حين كان يقصدها من تريم أمثال العلامة الإمام محمد بن أحمد بافضل ليدرس القرآن والفقه والتصوف على علمائها.

❖ جانب من سيرته:

مما لا شك فيه أن النجاح الكبير الذي أحرزه ابن سلم يعود إلى ما وهبه الله من أخلاق كريمة وإلى ما يتمتع به من صفات نادرة، فقد كان الرجل صاحب مبدأ في الحياة ورسالة خاصة يؤمن بهما إيماناً عميقاً، ويخلص لهما إخلاصاً شديداً، ويعمل من أجلهما عملاً متواصلاً، استبدّ بكل وقته وتفكيره وجهده وراحته، وكان إلى جانب ذلك قوي الإرادة ماضي العزيمة، راجح العقل سليم التفكير حسن السياسة كيّساً لبقاً واسع الحلم كثير الصفح، لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلاً.

وهذه الصفات التي اجتمعت في العلامة ابن سلم هي بعينها صفات الزعماء الدينيين والمصلحين الاجتماعيين الذين يملكون قلوب الجماهير باستقامتهم ونزاهتهم وقوة شخصياتهم وإخلاصهم لمبادئهم، فتندفع وراءهم الأمة متسابقة إلى تأييدهم وتقديم المعونة لهم، وبذلك نستطيع أن ندرك سر نجاح صاحب الترجمة في تحقيق مشروعه الضخم الذي تتردد الحكومات طويلاً - فضلاً عن الأفراد - قبل أن تقدم عليه نظراً لما تتطلبه أمثال هذه المشاريع من ميزانية ضخمة ومعونة مادية وتأييد أدبي من قبل الشعب.

وكان العلامة ابن سلم يعيش في بيته عيشة زهد وتقشف وقناعة، وقد أخبرني أحد تلاميذه أنه رآه مرة يتغدى بالخبز الجاف والسمك المالح، وكان في نفس الوقت ينفق على شؤون المعهد والطلبة بسخاء نادر، وكان كثيراً ما يخص فقراء الطلبة بمزيد من عنايته ويزورهم في بيوتهم مواسياً لهم ومتفقداً أحوالهم ومتعرفاً إلى حاجاتهم ليقضيها لهم.

وكان - رحمه الله - مهيب الطلعة بهي المنظر حسن الهندام شديد العناية بنظافة ملابسه وحسن اختيارها، كما كان قوي الجسم جمّ النشاط جلداً صبوراً، ويتحدث تلاميذه عن نشاطه بالغريب المدهش.

فقد ذكروا أنه يبدأ عمله اليومي من ثلث الليل الأخير يقضيه في صلاة وتلاوة وأذكار، ثم يجلس للدرس بعد الانصراف من صلاة الصبح مباشرة، فإذا طلعت الشمس تناول فطوره في بيته وعاد لتدريس الطلبة حتى تحضر صلاة الظهر فيؤدي الفريضة، ثم يعقد درساً خاصاً لبعض الطلبة ينصرف بعده إلى بيته ليعود وقت العصر للصلاة والدرس، فإذا حضر المغرب أدى صلاته وجلس لاجتماع عام يضم جميع الطلبة وجمعاً غفيراً من الأهالي يتناول فيه مواضيع مختلفة تتعلق بدروس الطلبة ومواعظ عامة ويستمر هذا الاجتماع إلى صلاة العشاء.

وهكذا كان يقضي يومه حريصاً على أن لا يفوته جزء من هذا البرنامج

إلا حيث يضطر إلى الذهاب إلى الشحر أو المكلا أحياناً أو بعض القرى، وكثيراً ما يحدث أن يصادف قدومه وقت انعقاد الدرس فيغادر ظهر دابته إلى حلقة الدرس رأساً قبل أن يزور أهله أو يأخذ راحته.

❖ وفاته:

إلى أي حد كان يصل نشاط هذا المصلح الكبير والمربي القدير لو امتدت حياته؟ لست أدري، ولكن سنة **١٣٢٩**هـ لم تكد تدخل حتى اختطفت المنون ذلك العلامة المصلح قبل أن يتمّ رسالته ويبلغ شوطاً بعيداً في مهمته عن أربعة وخمسين عاماً، فقد كانت وفاته في سادس المحرم من ذلك العام.

وكان لموته رنة أسى في أنحاء الساحل وفي القطر الحضرمي بأجمعه، وشيعت جنازته الجموع الغفيرة ودفن في مقبرة فحيل المشهورة غربي مدينة الغيل، وقبره معروف بها يقصده طلبة المعهد وغيرهم كل يوم جمعة للزيارة، وقد رثاه كثير من تلاميذه وعارفي فضله بقصائد بالغة في الحزن والأسى، ومن بين هذه المراثي قصيدة باللغة الدارجة التي لا تتقيد بقواعد اللغة نظمها في رثائه وزير الدولة القعيطية الأول السيد حسين بن حامد المحضار العلوي، وقد تناقلها الناس وحفظوا أكثر أبياتها، ومنها هذه الأبيات التي كثيراً ما ينشدها النساء والرجال في الغيل:

ليت الفِدا يُقبَل وبانَفْدِي على الشيخ أربعون
وإلا مائة من خلق لا نفعوا ولا باينفعون
جلوس في الدنيا كذا مثل البهائم يأكلون
عليك يا بن سلم حتى الطير بايبكي شنون

وقيل في سبب وفاته إنه مات مسموماً من بعض الجهلة الذين كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، فقد شكا ألماً شديداً في بطنه عندما كان بالمكلا في إحدى زياراته لها، فنقل إلى الغيل حيث فارق الحياة بها

متأثراً بهذا الألم، عليه رحمة الله ورضوانه، وقد تناول الناس خبر السم مصدقين له؛ لأنهم يعرفون أنه ابتلى بحُسَّاد وجهوا إليه ألواناً من الأذى والمكايد لم ينالوا منه ما يبتغون.

❖ تلاميذه:

نستطيع أن نقيس مقدار النجاح الذي أحرزه العلامة ابن سلم بالمتخرجين من تلاميذه الذين استطاعوا بعده أن يحتفظوا بالرباط أثراً خالداً من آثار أستاذهم الكبير يُمِدُّ المجتمع - في حدود طاقته - بما هو في حاجة إليه من علوم الدين واللغة العربية، وقد انتشر عدد كبير منهم في كثير من المناطق والأقطار يعلمون الناس ويدعون إلى الله، فكان منهم الواعظ والمدرس والقاضي والمحامي والكاتب المؤلف إلى غير ذلك من أوجه النفع الديني والدنيوي، وقد سافر بعضهم إلى مصر لإتمام دراستهم في الأزهر الشريف كالأستاذ الشيخ محمد بن سالم باوزير، والسيد علوي مديحج، والشيخ أحمد بن محمد بن سلم.

وكان الشيخ عبدالله بن محمد بن طاهر باوزير أقدم تلاميذ العلامة ابن سلم وأكثرهم اتصالاً به، فقد بدأ دراسته عليه عندما كان بالشحر، وكان ينوب عنه في التدريس بالرباط حال حياته، وللشيخ عبدالله هذا قدرة عجيبة على الوعظ والتأثير في الناس، فكان إذا تكلم واعظاً أو مدرساً بهر مستمعيه وأدهشهم بحلاوة لسانه وسرعة بديهته وقوة تأثيره وكثرة استشهاده بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي - عليه السلام - وأقوال السلف الصالح وخصوصاً الصوفية منهم.

وكان إلى جانب ذلك - أو من أجل ذلك - محبوباً من الناس لا يسمعون بوجوده في الرباط أو في أحد المساجد حتى يغص المكان بالمستمعين إلى دروسه ومواعظه، وكان إذا صلى الجمعة في مسجد تطلعت الرؤوس عقب الصلاة إلى المكان الذي يصلي فيه منتظرة ذلك الصوت

الحبيب إلى نفوسها والحديث الحسن الوقع في قلوبها، كما كان حسن الصوت جيد الترتيل للقرآن الكريم كثير الخشوع عند القراءة، وربما قرأ في الصلاة بعض السور الطويلة فود المصلون أن يطيل ويطيل.

توفي رحمه الله في جمادى الأول سنة **١٣٥٤**هـ عن ثلاثة وخمسين عاماً، ودفن بجانب ضريح شيخه العلامة ابن سلم.

ومن أبرز تلاميذ الشيخ محمد بن سلم السيد محسن بن جعفر أبونمي، فقد كانت له معرفة جيدة بالفقه ومشاركة في بقية العلوم الأخرى شرعية ولغوية.

وله عدة رسائل - مخطوطة - في مختلف العلوم، تولى القضاء عدة مرات في المكلا وغيل باوزير، وكثيراً ما يقصد لاستفتائه في المسائل الفقهية، فيدلِّل بما يكتب على خبرة واطلاع واسعين، وبعد أن اعتزل القضاء تخلّى لتدريس الطلبة وتدريب القضاة الشرعيين في كورسات دَوْريّة تعدها وتنظمها الحكومة المحلية تحت إشراف رئيس القضاة الشرعيين.

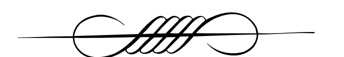
والشيخ أحمد بن محمد باغوزة هو التلميذ الوحيد من تلاميذ الشيخ محمد بن سلم الذي انقطع للتدريس في الرباط منذ وفاة أستاذه حتى كتابة هذه السطور، ولم يفارق هذه الوظيفة أو يشتغل بأي عمل آخر، ولذلك فهو أستاذ أكثر الخريجين من الرباط بعد وفاة ابن سلم، ومعلوماته في الفقه واللغة جيدة.

والذي يترجم للشيخ محمد بن سلم لا بد أن يذكر الشيخ عبدالصادق بن سالم باوزير، فقد كان من كبار تلاميذه المناصرين له المشجعين لحركته، تولى التدريس مدة في الرباط عقب وفاة أستاذه، ثم ذهب إلى الصومال الإنجليزي حيث تولى القضاء هناك، ثم عاد محالاً إلى المعاش، وتوفي سنة **١٣٧٥**هـ.

ومن تلاميذ ابن سلم الذين لهم جهاد مشكور في نشر المعرفة والثقافة

الشيخ عوض بن سالم بلقدي إمام ومدرس مسجد النور في المكلا وأستاذ المعهد الملحق به، والسيد علوي مديحج صاحب المدرسة المشهورة في الشحر، والتي تخرج منها الكثير الطيب من الطلبة وغير هؤلاء كثير وكثير.

وفيمن ذكرنا ما يكفي للدلالة على مدى النجاح الذي صادف ذلك الرجل المخلص الذي يعتبر بحق باعث الحركة الثقافية في الساحل الحضرمي، نضَّر الله محياه وبَلّ بوابل الرحمة ثراه، إنه خير من يجزي المحسنين ويضاعف أجر العاملين.



«١٩»

عمر بن عوض القعيطي «الأول»

ميلاده، نشأته - هجرته إلى الهند - صريخ يافع - من الدفاع إلى الهجوم - حرب النخيل - الدفاع عن الساحل - المعارك حول شبام - حصون الدفاع عن شبام - مناصفة شبام - الخلاف مع جيش الخالدي - قتل منصور بن عمر - حرب الكرعان - الاستيلاء على حورة - معركة السحيل - وفاة مؤسس السلطنة

❖ مولده، نشأته:

عمر بن عوض بن عبدالله القعيطي اليافعي ولد بقرية لحروم من أعمال عندل البلدة التاريخية المشهورة التي عناها امرؤ القيس شاعر العربية الفحل بقوله:

كأني لم أسمر بدمون مرة ... ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

ولا تعرف بالضبط السنة التي ولد فيها، غير أنه في حكم المؤكد أنه ولد في العقد العاشر من القرن الثاني عشر الهجري، وقد كان والده يقيم بلحروم ويتردد بينها وبين شبام كما تقتضي ظروفه وأحواله الخاصة، ولما توفي بلحروم انتقل عمر بن عوض إلى شبام مع والدته التي كان لها الفضل الأول في الإشراف على تربيته والعناية به، وتعلم في شبام مبادئ القراءة والكتابة والحساب وأوليات الدين في أحد كتاتيب شبام كما يتعلمها الأطفال في ذلك الحين، وكانت تبدو عليه منذ صغره أمارات النبل والذكاء.

وحال ضيق ذات يده دون مواصلة تعليمه ودون إرضاء نزعات نفسه الطامحة إلى المجد والشهرة، فلم يترك له أبوه من المال ما يعينه حتى في الحصول على ضرورات الحياة الأولية، فآثر الهجرة إلى الهند وكانت إذ ذاك مهجر الكثير من الحضارم الذين يشتغلون بالتجارة هناك، أو ينضمون إلى الجندية في جيوش أمراء الهند، وبالأخص نظام حيدر أباد.

❖ هجرته إلى الهند:

وتحت دافع من الاضطرار لطلب الرزق ومن العناية الإلهية التي إذا أرادت أمراً هيأت أسبابه سافر الفتى عمر بن عوض إلى الهند سنة ١٢٠٧هـ، وكان قد سبقه إليها بعض أقاربه من يافع الذين سهلوا له الالتحاق بجيش أمير ناكبور، حيث برزت مواهبه في الجندية، وبرهن عن شجاعة نادرة واستعداد للقيادة والإدارة.

وحدثت في هذه الإمارة أحداث اضطرته لأن يغادرها إلى حيدر أباد، وكان أميرها قد سمع الشيء الكثير عن بطولته وبسالته ومقدرته الحربية ومعرفته بفنون القتال، فاستقبله بما يليق به من إجلال وتكريم وعرض عليه الانضمام إلى جيشه ليتولى قيادة فرقة من الجيش العربي، فلم يتردد في قبول هذا المنصب الجديد، وانضم تحت قيادته ألفان وأربعمائة من شجعان العرب وألف من الخيالة، وخصص له مرتباً شهرياً قدره خمسة آلاف روبية، وأطلق عليه لقب «نواب جان ثار جنك» وهو من الألقاب الرفيعة في الهند.

واستطاع القائد الشاب بفضل نبوغه وعبقريته أن يشق له طريقاً إلى المقدمة، فقد حظي لدى نظام حيدر أباد حظوة كبرى، وأثرى ثراء واسعاً يبعث ذوي النفوس الطامحة إلى استغلاله في كل خالد مفيد، وهناك في حيدر أباد استقرت به النوى، حيث آثر الإقامة بها، وتزوج من كريمات إحدى العائلات الكريمة، ورزق من الولد خمسة وهم: محمد وعبدالله وصالح وعوض وعلي.

❖ صريخ يافع:

شهدت يافع في منتصف القرن الثالث عشر الهجري بطلين من أبطال آل كثير نزلا إلى الميدان فأَقَضَّا مضاجع يافع بمشاغبات وحملات تستهدف جلاء اليافعيين عن البلاد الحضرمية والاستئثار بالسلطة دونهم، أحدهما منصور بن عمر من آل عيسى بن بدر، والآخر غالب بن محسن الذي تحدثنا عنه في فصل سابق.

أما منصور فقد استطاع أن يغرس بذور الشقاق والفتنة بين قبائل الموسطة من يافع في شبام، وأخذ يناصبهم العداء حتى أجلاهم نهائياً عن شبام في **٢٧** من رمضان سنة **١٢٥٥**هـ بعد معركة دامية لم ينج منها إلا القليل من حامية شبام اليافعية، واستباح أموالهم وديارهم وعقارهم، ولم يكتف بهذا بل طفق يقلق راحة يافع وهم بمساكنهم في القطن، فقد ضرب الحصار على أخواله آل علي جابر بـ«خشامر»، وبث كثيراً من أتباعه ومواليه يعيثون في القطن فساداً.

وقد بلغت به القسوة إلى حد أنه أمر مواليه فأحرقوا دار «ابن معمّر الخلاقي»، حيث أخذوا يحفرون على حين غفلة من سكان البيت حتى تمكنوا من وضع مقدار كبير من البارود تحت البيت، ووصلوا به فتيلة يمتد أحد طرفيها إلى الخارج ثم أشعلوا فيه النار وانطلقوا هاربين، ولم تمض بضع دقائق حتى أكلت النار الفتيلة ووصلت إلى البارود، فانفجر انفجاراً هائلاً تداعى منه البيت على قواعده وهلك جميع سكانه، وكان من بينهم عقيلتان من حرم الجمعدار عمر بن عوض، قيل: إنهما عمتاه، هلكتا فيمن هلك.

هذا في غربي الوادي، أما في شرقيه فقد وضعت المناهج والخطط لتقويض سلطة يافع في تريم وسيئون وماجاورهما من قرى باسم غالب بن محسن الذي يُمِدّ الحركة من الهند برأيه وماله، وكانت هذه التطورات

والحوادث الدموية تصل تفاصيلها بكل دقة إلى الجمعدار عمر بن عوض فتثير من حفيظته وتدفعه إلى التفكير في إنقاذ عشيرته وإنجادهم واستغلال الموقف لتحقيق ما كان يدور بفكره من آمال فيها كثير من الخطورة.

وفضلاً عن ذلك فقد وجه إليه رؤساء يافع في حضرموت نداءات واستغاثات يستحثونه فيها للإسراع لدرء الخطر الداهم الذي دلّلت الحوادث على أنهم لا قبل لهم بصده والوقوف أمامه، وتجسمت الفكرة في رأس الجمعدار عمر بن عوض فأخرجها إلى حيز التنفيذ مشروعاً ضخما نابضاً بالقوة والحياة.

بدأ أولا بّأن وجه أحد أقاربه عامر بن عوض القعيطي ليبحث له عن مكان يتمركز فيه يكون صالحاً للعمل الجليل الذي يعد له العدة، فاشترى عامر بن عوض البقعة التي تدعى الآن الرّيضة من السادة آل العيدروس، وشرع يشيد فيها المباني والحصون سنة ١٢٥٥هـ، ثم بعث ابنه محمداً ليقوم بالنيابة عنه في تنفيذ الخطط الحربية إثر المفاوضة التي دارت بينه وبين وفد يافع الذي قدم من حضرموت إلى حيدر أباد مستصرخاً به سنة ١٢٥٨هـ ومفوضاً إليه تزعم الحركة وقيادتها، وأرسل بعد ذلك مولاه الماس عمر الحبشي كمستشار لابنه محمد، وكان هذا معروفاً بالحكمة والحزم وبُعْد النظر، وعلى أثر قدومهما إلى القطن واستقرارهما بالريضة قدم أبناؤه الثلاثة عبدالله وعوض وعلي.

❖ من الدفاع إلى الهجوم:

شرع أبناء الجمعدار عمر بن عوض عقب وصولهم إلى القطن يجندون رجال القبائل ويبذلون الأموال في شراء العتاد الحربي، واستقدموا من يافع عدداً كبيراً من الجند حتى تجمعت لديهم قوة كافية لانتزاع المبادأة بالهجوم من أيدي آل كثير فرفعوا الحصار عن آل علي جابر، واستولوا على الحصون التي بناها منصور بن عمر حول «خشامر» وعلى حصون «العقاد»

الواقعة بالقرب من شبام، وأجلوا آل كثير من «حذية» إحدى مدن القطن التاريخية القديمة عندما شعروا بأنهم يتجسسون في القطن لصالح عشيرتهم من آل كثير ويرفعون لهم أخبار يافع العسكرية وأسرارهم الحربية، وحصّنوا قرية «خمور» بعد أن طردوا منها من يسكنها من فخائذ آل كثير تمهيداً لهجومهم المنتظر على شبام، وبذلك استطاعت منطقة القطن اليافعية أن تتنفس من الكابوس الذي كان يجثم على صدرها، فلم يستطع أحد من آل كثير بعد ذلك أن يحدث نفسه بالاقتراب من قرى القطن فضلاً عن شن الغارات عليها.

وبعد أن اطمأن القعيطي إلى سلامة منطقة القطن وأمْنِها انصرف إلى تنفيذ خططه السياسية والعسكرية، فطفق يحالف القبائل ويعقد معهم معاهدات صداقة وعدم اعتداء من بينها معاهدات آل عبدالعزيز سكان القارة الواقعة بالقرب من شبام وآل شملان التميميين سكان السويري الواقعة شرقي تريم، كما عقد اتفاقاً مع شيخ قبيلة آل تميم بأجمعهم المقدم أحمد بن عبدالله التميمي، وبهذا الحلف أصبح أغلبية آل تميم الذين يسكنون المنطقة الواقعة شرقي تريم حلفاء القعيطي الذي اتخذ من السويري قاعدة حربية مهمة يشاغب منها آل كثير من الخلف.

ثم عقد معاهدات مع زعيم نهد الأكبر ثابت بن عبدالرب بن ثابت النهدي وتابعه أغلب قبائل نهد، ومع أمير مأرب الشريف عبدالرحمن الخالدي وأمير الدرعية في نجد محمد بن حسين بن قملا، وسلطان العوالق عوض بن عبدالله العولقي، وانتشرت الدعاية للسلطنة القعيطية والناشئة في جبل يافع لدى سلاطين يافع ومشايخهم ووصلت إلى أطراف نجد واليمن.

وتنبه آل كثير لخطر تحالف القعيطي مع القبائل المحيطة بهم من الشرق والغرب، وتوجسوا شراً من هذا التطويق الذي أحكمه على منطقتهم، واعتبروا تحالف آل تميم معه مظهراً من مظاهر العداء وسوء النية

من جيرانهم الأقربين، فشنوا الغارات المتوالية على منطقة آل تميم، ولم يتأخر القعيطي عن مساعدة حلفائه فأمدهم بنحو ألف جندي قدموا إلى «قَسَم» سنة **١٢٦٧**هـ واشتبكوا مع آل كثير في معارك متعددة انتهت بإيقافهم عند أبواب تريم، وتعرف هذه الوقائع عند يافع بحرب سنا.

ورأى آل كثير أنه ليس ثمة سبيل إلى التفاهم مع آل تميم الذين أخلصوا في ولائهم للقعيطي وتعاونوا معه على حصار منطقتهم من الشرق، فطمعوا في كسب ولاء بعض المتخلفين عن محالفة القعيطي من نهد المجاورين لمنطقة يافع في القطن؛ لعلهم بذلك يضعفون من قوة الحصار من الناحية الغربية، فقدم علي بن أحمد الكثيري إلى «عنيبدة» قرية الشراشرة النهديين الواقعة شمال القطن، وعقد معاهدة مع المتخلفين من نهد سنة **١٢٦٨**هـ بعد أن أطمعهم في مبالغ من النقود، محاولاً بذلك إحداث قلاقل ومشاغبات داخل منطقة يافع وإقلاق راحتهم في بيوتهم وبين مساكنهم.

ولكن الجمعدار محمد بن عمر القعيطي استطاع بفضل دهائه وكياسته أن يحبط تلك المساعي وأن يقنع حلفاءه من نهد بأنه ليس من مصلحتهم أن تكون منطقتهم ميدان حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومع ذلك فلم يكن المال الذي قدم به الأمير علي بن أحمد الكثيري كافياً لإغراء القبائل النهدية ودفعها في محاولة لا تعرف نتيجتها فعاد دون أن يظفر بطائل.

❖ حرب النخيل:

بعد أن احتل القعيطي «العقاد» و«خمور» وتحالف مع آل عبدالعزيز شدد الحصار على شبام، وتقدم رجال من يافع فعسكروا بالنخيل الواقع قرب مدينة شبام، وحدث أثناء ذلك أن نكث آل عبدالعزيز عهدهم مع القعيطي وانضموا هم وآل بلّضراف إلى آل كثير، ومنعوا الذخيرة والإمدادات التي ترد من «العقاد» إلى يافع المعسكرين في النخيل وقطعوا عليهم خط الرجعة، وبعد معارك طاحنة انتهت بقتل قائد الحملة اليافعية

الشيخ صالح بن عمر بن علي الحاج تراجع من بقي من يافع إلى «العقاد»، وبذلك خفت شدة الحصار عن شبام، وكان ذلك سنة **١٢٦٩**هـ، وتعرف هذه الحوادث بحرب النخيل.

❖ الدفاع عن الساحل:

وعلم آل كثير أن استفحال شأن القعيطي واشتداد ساعده إنما كان بسبب الموارد الكبيرة والأموال الكثيرة التي تأتيه من قبل البحر وبواسطة التسهيلات التي يقدمها له زملاؤه اليافعيون من آل كساد وآل بريك في المكلا والشحر، ففكروا في احتلال الشحر؛ لتكون مركزاً لتجارتهم ومواصلاتهم في الساحل، وقاعدة لقطع تجارة القعيطي وموارده من الخارج، ونواة لبسط نفوذهم في المناطق الساحلية التي يطمعون في الاستيلاء عليها، وبذلك يستطيعون أيضاً أن يتخلصوا من حركة التطويق والالتفاف التي يقوم القعيطي بإحكامها عليهم.

ولضمان نجاح هذه الفكرة جمعوا مبلغاً كبيراً من المال وأرسلوه مع من كلفوه بالذهاب إلى الحجاز ليقدمه لبعض موظفي الأتراك هناك في مقابل الحصول منهم على مساعدة حربية يستعينون بها في غزو الساحل، وقد استطاع مندوبهم أن يعود بسفينتين حربيتين تحملان جنوداً من الأتراك ومعدات حربية في الوقت الذي كان فيه جيش كثيري يعسكر في موضع يقال له «مرير» يشرف على الساحل من ناحية الشحر الغربية، واختاروا هذا الموضع بالذات؛ ليسهل عليهم الاتصال بالحملة البحرية القادمة من الحجاز، وليحولوا دون وصول إمدادات يافع إلى الشحر.

وعلم القعيطي بخبر هذا الغزو، وأدرك ما يترتب على نجاحه من عواقب وخيمة على سياسته وأهدافه الحربية فسارع بإرسال نجدة من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن علي الحاج سنة **١٢٦٩**هـ، وكتب إلى الكسادي بالمكلا يحثه على إمداد آل بريك بالجنود والعتاد، كما كتب إلى

ابن بريك حاكم الشحر يشجعه على الثبات والاستماتة في الدفاع.

ووصلت نجدات يافع فاصطدمت بالجيش الكثيري المرابط في «مرير» ونشبت معركة حامية، استبسل فيها الفريقان، وانتهت بهزيمة الجيش الكثيري، وقتل عدد كبير من رجاله، وكانت إصابات يافع وخسائرهم قليلة.

أما السفينتان فقد هاجمتا المكلا ليلاً، وكان رجال الكسادي على استعداد للدفاع، فركبوا الزوارق متجهين نحو الأتراك المهاجمين، وأطلقت المدافع الكسادية قنابلها عليهم، فانسحبوا قاصدين إلى الشحر، ولما اقتربت السفينتان من الميناء أطلقت النيران على المدينة فلم يصب أحد بأذى ولم تسبب أضراراً تذكر، وكان البحر هائجاً والرياح تعصف بشدة فلم يستطع ملاحو السفينتين مقاومة الأمواج الغاضبة فانسحبوا قانعين من الغنيمة بالإياب، وكان ذلك سبباً في فشل الحملتين البرية والبحرية[١].

❖ المعارك حول شبام:

كان القعيطي قد عقد معاهدة تحالف مع قبيلة آل هضيل الكثيرية التي تسكن الظاهرة في ضواحي شبام، واتخذ من هذا الموقع قاعدة حربية لمناوشة شبام ومهاجمتها، فاشتد الخطر على المدينة، وهاجمها القعيطي من الناحية الشمالية التي تدعى «الشويرع»، ودامت الحرب من ربيع الأول سنة ١٢٧٠هـ إلى ذي القعدة سنة ١٢٧١هـ، واستطاع المهاجمون من يافع احتلال الشويرع، وأصبحت شبام مهددة بالسقوط في أيديهم.

ولكن منصور بن عمر الكثيري حاكم شبام عمل سرّاً للاتصال بآل هضيل وحملهم على الغدر بيافع ونقض تحالفهم مع القعيطي، فتم له ما

---

(١) هذه رواية الأمير علي بن صلاح القعيطي عن حادثة مرير كما قصها على المؤلف، وفي الرواية التي سبقت في ترجمة ابن بريك نقلاً عن باحسن سياق آخر (المؤلف).

أراد وضرب الحصار على الحامية اليافعية في الظاهرة حتى اضطروا إلى إخلاء القاعدة وتسليم أنفسهم، ونزل اثنان من آل علي جابر في جوار سالمين بن عبدالله رئيس قبيلة آل طالب فأبلغهما مأمنهما، ونزل الباقون في أمان نفر من آل عيسى بن بدر فغدروا بهم وساقوهم إلى منصور بن عمر في شبام حيث اعتقلهم هناك، واستطاع هؤلاء بعد ذلك أن يفروا من السجن بواسطة نفق حفروه تحت الأرض.

وبسقوط الظاهرة في أيدي آل كثير قرر القعيطي التوقف عن مهاجمة شبام - إلى أجل - وأمر جنوده بتخريب المراكز التي في قبضتهم وبنقل سكان «الشويرع» من أهالي شبام إلى الريضة بالقطن، فجاءها منهم آل شعيب وآل معلّم وآل بربيعة وغيرهم، وقدّم لهم القعيطي مساعدات مادية ووعدهم بأن يعودوا إلى شبام في أقرب وقت.

❖ حصون الدفاع عن شبام:

أدرك القعيطي أن لا فائدة ولا جدوى من المعاهدات التي يعقدها مع الشنافر وفخائذ آل كثير فقرر عدم الاعتماد على أي حليف منهم، وعقد العزم على تطهير ضواحي شبام من بقية آل كثير فاحتل «خميّر» سنة ١٢٧٣هـ، وهاجم حصون سعيدية وبزرق والرُّكز أهم حصون الدفاع عن المدينة، وقد دافعت حاميات هذه الحصون دفاعاً شديداً اضطر معه الفريقان إلى استعمال السلاح الأبيض، وانتهى القتال بإخلاء آل كثير لهذه المراكز، واحتلال يافع لها في ذي الحجة سنة ١٢٧٤هـ.

❖ مناصفة شبام:

وأيقن منصور بن عمر بخطورة الحالة فقد ساءت الحالة الاقتصادية للمدينة بسبب انقطاع المواصلات عنها نتيجة للحصار الشديد الذي أحكمه القعيطي عليها، وسقطت مراكز الدفاع المهمة في أيدي خصومه من يافع، وبات من المتوقع أن يهجم القعيطي على شبام فيحتلها ويكون نصيب

حاكمها الطرد أو القتل، فقرر منصور بن عمر أن يختار أهون الشرور، وبعث إلى القعيطي من سعى بالصلح على مناصفة شبام بينهما كما كانت الحال بينه وبين الموسطة من يافع، فقبل القعيطي هذا الصلح، وتم احتلال القعيطي لنصف شبام في غرة محرم سنة ١٢٧٥هـ.

وكان كل من القعيطي ومنصور بن عمر يعلم حق العلم أن مناصفة شبام ليست إلا ضرورة اقتضتها الظروف وتدبير مؤقت حتى تتاح الفرصة لتغلّب أحد الخصمين على الآخر.

❖ الخلاف مع جيش الخالدي:

كتب القعيطي - أثناء حصاره لشبام - إلى الشريف عبدالرحمن الخالدي أمير مأرب أن يرسل إليه جنوداً لمساعدته في الهجوم على شبام، فأرسل إليه ما لا يقل عن ألف جندي بينهم مائتا فارس يتقدمهم نجله الشريف حسين، ولكن هذه الجنود قدمت إلى العَبْر بعد الموعد المحدد لوصولهم وبعد اتفاق القعيطي مع منصور بن عمر على مناصفة شبام.

وأرسل القعيطي يخبر نجل أمير مأرب بأن لا حاجة على مواصلة سيره إلى حضرموت، وأنه مستعد لدفع نفقات الجيش وتكاليفه، فأبى الخالدي إلا التقدم بجيشه، وقيل: إن منصور بن عمر هو الذي أغراه وطلب إليه الوصول إلى شبام؛ ليكون عوناً له ضد القعيطي، ووصلت فرسان الشريف إلى القطن تنهب وتعيث فساداً، وحاولت فصيلة من الفرسان أن تمر بالمسحرة في طريقها إلى شبام - وكان على رأسها الشريف حسين نفسه - فاعترضتهم جماعة من يافع وأطلقت عليهم الرصاص، ودارت معركة قتل فيها الشريف حسين وثلاثة من بني عمه وأربعة من جنوده وجرح اثنا عشر جندياً، وقتل من يافع ثلاثة وجرح ثلاثة، وتفرق بقية جنود الخالدي عائدين من حيث أتوا.

وعلم الشريف عبدالرحمن الخالدي بهذا الحادث المؤلم الذي سبّبه

تسرّع ابنه واستبداده برأيه، وكان حريصاً على تحسين علاقاته مع القعيطي، فقدم بنفسه إلى القطن وجدد المعاهدة وأزال ما حصل من سوء تفاهم.

❖ قتل منصور بن عمر:

قلنا: إن مناصفة شبام لم تكن حلاً للمشكلة، وإنما كانت تدبيراً مؤقتاً اضطر إليه منصور بن عمر اضطراراً ريثما تتاح له الفرصة للانتقام من خصمه، ويظهر أن الأمير منصور بن عمر لم يجد طريقة أجدى وأسرع من الاغتيال، فدبر مؤامرة لاغتيال الأمير عوض بن عمر القعيطي مع كبار مستشاريه من يافع وكانوا موجودين في شبام فدعاهم لحضور مأدبة في قصره، وكان قد وضع أكياساً من البارود تحت البساط فتأخروا عن الحضور.

ولم يكن بُدٌّ من ردّ فعل لهذه المؤامرات والمكايد المتكررة من منصور بن عمر، فقرر الجمعدار عوض بن عمر وضع حد لمشكلة شبام بقتله والتخلص منه، وأوعز إلى أحد أتباعه في شبام أن يدعو الأمير منصوراً إلى وليمة غداء تكون فيها نهايته، ولبّى منصور بن عمر الدعوة، وكان في انتظاره كبار مشايخ يافع، وعلى رأسهم الشيخ سالم بن علي بن هرهرة، ولما وصل الأمير منصور تقدم لمصافحته الشيخ سالم بن علي وشد على يده وأعطى الإشارة ليافع فهجموا عليه وقتلوه، وقتل ممن حاولوا الدفاع عنه والمقاومة من آل عيسى بن بدر ومواليهم نحو ثلاثين نفراً، وبذلك تم احتلال القعيطي لشبام سنة ١٢٧٥هـ.

وأبدى القعيطي عطفه على نجل الأمير منصور فقرر له مرتباً شهرياً، ولما رغب في السفر إلى إندونيسيا زوده بكل ما يحتاج إليه، ومنحه مبلغاً كبيراً من المال.

❖ حرب الكرعان:

كان سقوط شبام في يد القعيطي باعثاً لخوف آل كثير وقلقهم، ورأوا

أنه من الضروري لسلامة منطقتهم استرداد هذه المدينة المهمة فحشدوا ما لا يقل عن ألفي جندي في أوائل ذي الحجة سنة **١٢٧٥**هـ، وقرروا الهجوم على شبام من الناحيتين الغربية والشمالية، وكان في شبام الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي فعبأ من عنده من يافع والموالي ثلاث فرق: فرقة بقيت في المدينة للدفاع عنها، وهاجمت الفرقتان الأخريان الجيش الزاحف من الجنوب والشمال، وقدمت نجدات يافع من «خشامر» وقرى القطن ودامت المعركة غربي شبام في موضع يقال له «الكرعان» وفي جرب هيصم، فانهزم آل كثير تاركين ثلاثة عشر قتيلاً، وأصيب خمسة وعشرون بجراح، وقتل من جنود القعيطي أحد الموالي وجرح خمسة.

❖ الاستيلاء على حورة:

في سنة **١٢٧٥**هـ باع آل عمر بن جعفر من عائلة آل عيسى بن بدر الكثيري بلدة «حورة» وحصونها ومراكزها للقعيطي بخمسة آلاف ريال بواسطة ابن مخاشن الحمومي، وكانت هذه الصفقة سبباً في نقمة المتخلفين من معاهدة القعيطي من نهد على ابن مخاشن فتألبوا عليه وأجمعوا على حربه، وأمدهم الكثيري بمدفع من مدافع الميدان ونفقات المحاربين، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بسبب ثبات ابن مخاشن ومساعدة القعيطي له وتخاذل نهد إثر ذلك.

وهكذا تكون حورة المدينة الثانية التي احتلها القعيطي بعد شبام، وكانت السلطنة القعيطية عبارة عن هذه المساحة الضيقة الواقعة ما بين شبام شرقاً وحورة في الغرب، وبقيت كذلك مدة حياة الجمعدار عمر بن عوض ولم يحصل التوسع إلا في عهد خلفائه من أبنائه.

❖ معركة السحيل:

لم يبق من مراكز شبام المهمة بيد آل كثير سوى «سحيل ابن مهري» الواقع جنوب شبام، فقد دافع عنه آل كثير دفاع المستميت، وثبتوا أمام

هجمات يافع ما يقرب من أربع سنوات تقصف المدافع مراكزهم وتنهمر عليهم طلقات الرصاص، فيشتبكون مع المهاجمين في معارك تتساقط قتلاها وجرحاها من الجانبين، ثم انتهت بتسليم جميع حصون السحيل للقعيطي إلا حصن المعيقاب فقد ظل يدافع، حتى توسط منصب آل الشيخ بو بكر في عقد صلح وافق عليه الفريقان، وسلم الحصن إلى القعيطي بموجب وثيقة الصلح، ودفع القعيطي عشرة آلاف ريال مقابل أموال آل مهري في السحيل والمسيلة والسباخ النجدي التي آلت كلها للقعيطي سنة ١٢٨١هـ.

❖ وفاة مؤسس السلطنة:

في ضحى يوم الأربعاء شهر صفر سنة **١٢٨٢**هـ توفي في حيدر أباد الجمعدار عمر بن عوض القعيطي مؤسس السلطنة القعيطية، بعد أن وضع حجر الأساس لسلطنة أثبتت وجودها، وبرهنت بصلاحيتها للبقاء على أنها من خير إمارات الجنوب العربي، وإذا لم تتح الفرصة للجمعدار عمر بن عوض بأن يعود من الهند إلى حضرموت مسقط رأسه فقد كان القائد الأول لجميع الحركات السياسية والحربية يوجهها بتفكيره وارشاداته، ويمدها بكل ما تحتاج إليه من مال وعتاد وخبرة ومعونة.

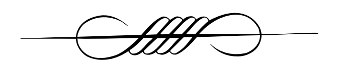
وقد كتب وصيته المشهورة قبل وفاته بأكثر من سنتين وأوصى بنيه فيها بالتعاون والتعاضد على الحق وبالصبر والرفق بمن ولّاهم الله عليهم، وأن يحكموا الشريعة المطهرة ويسمعوا الشكية، ويرعوا الرعية، ويصلحوا النية، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ويرحموا الضعفاء والمساكين، وينصروا المظلوم ويردعوا الظالم، إلى آخر ما جاء في وصيته.

وقد نصّت هذه الوصية على أن يكون خلفاءه في القيام بالأمر بعده أبناؤه الثلاثة عبدالله وصالح وعوض، وأوصى ابنيه محمداً وعلياً بالامتثال والطاعة والتعاون على حفظ مقامهم ومنصبهم، وأن يكونوا جميعاً إخواناً

متناصرين على الحق ومتبعين للحق، وقد أجاز محمد وعلي وصية والدهما بعد وفاته وكانا مثال التعاون والإخلاص مع بقية إخوانهما طيلة حياتهما.

والمعروف من شمائله - رحمه الله - أنه كان كريماً شجاعاً، كثير العطف على الضعفاء، شهماً مقداماً، خبيراً بالشؤون الحضرمية عارفاً بعادات القبائل وطرق معيشتهم وأساليب حياتهم، وقد أشرف على شؤون أبنائه بنفسه، وأحسن تربيتهم حتى جعلهم أكفاء للمهمة الكبرى التي خلفها لهم، وقد أرسلهم جميعاً إلى حضرموت ما عدا صالحاً فقد أبقاه قيّماً على شؤونه المالية بالهند.

سلام الله عليه في العصاميين الخالدين



«٢٠»

عوض بن عمر القعيطي

باني السلطنة - قدومه إلى حضرموت - السلطان الأول - التطلع إلى الساحل - احتلال الشحر - محاولة خطيرة - الاستيلاء على الغيل - حصن العولقي - احتلال الموانئ الشرقية - هجوم آل كثير على شبام - الخلاف بين القعيطي والكسادي - تسليم المكلا إلى القعيطي - معاهدة الحماية - الأميران حسين ومنصّر - وادي دوعن - منطقة حجر - وصيته - وفاته

❖ باني السلطنة:

ولد في الهند بحيدر أباد الدكن في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وقضى هناك فجر شبابه متلقياً ما تسمح به ظروفه من مبادئ العلوم، وكان معروفاً منذ صغره بوفرة الذكاء ورجاحة العقل وحسن الاستعداد، وبالرغم من نشأته في وسط أرستقراطي تغمره مظاهر الثراء والترف فقد نشأ كامل الرجولة، ميالاً إلى الخشونة والتقشف، محافظاً على الأخلاق، مواظباً على أداء واجباته الدينية، فلم تبطره النعمة، ولم تعْلَق بأخلاقه وسلوكه هنات المترفين.

وكان ملازماً لحضور مجالس والده التي تغص دائماً بكبار الحضارم من يافع وغيرهم، فكان يستمع بكل دقة وإمعان إلى ما يدور في هذه المجالس من أخبار حضرموت وحوادثها، ويستوعب في ذهنه المتوقد كل ما يفوه به المطلعون على أحوال البلاد الحضرمية، فنشأ كأنه عاش في

حضرموت من فرط ما علق بذهنه من مسميات وأعلام وحوادث، وتاريخ قديم وحديث.

ويعتبر الجمعدار عوض بن عمر الرجل الأول الذي يعود إليه الفضل الأكبر بعد والده في إنشاء السلطنة القعيطية والسهر على حمايتها، وإذا كان والده هو المؤسس الأول لها، وصاحب الفكرة الأولى في تكوينها فإنه يعتبر بحق بانيها ومشيّد دعائمها وأركانها، وإذا لم يكن هو أسن إخوانه فقد كان أكثرهم نشاطاً وجلداً وحماساً، وأوفرهم ذكاء ويقظة، وأشدهم طموحاً وتطلعاً، وكان والده يقدر فيه هذه الصفات، ويحلّه من نفسه محلاً خاصاً وكثيراً ما يعتمد عليه في حل ما يعرض عليه من مشاكل، ويعير آراءه ما تستحق من أهمية.

❖ قدومه إلى حضرموت:

قدم الجمعدار عوض بن عمر إلى حضرموت المرة الأولى سنة ١٢٦١هـ، وقد وصل إلى «الريضة» ليباشر تنفيذ الخطط التي رسمها والده لإنقاذ يافع وإنشاء السلطنة، فكان يشترك مع أخويه محمد وعبدالله اشتراكاً فعلياً في تسيير دفة الأمور، والأمر الذي يستحق الإعجاب والتنويه أن أبناء الجمعدار عمر بن عوض كانوا جميعاً في حياة والدهم وبعد وفاته مثال التعاون والتساند والأخوة الصادقة والمحبة الصحيحة التي انتدبهم لها والدهم العظيم.

وقد عاد الجمعدار عوض بن عمر مرات إلى الهند في مناسبات تتعلق بالشؤون العسكرية والسياسية في حضرموت للاتصال فيها بأبيه القائد الأول والتشاور معه بصددها واتخاذ التدابير الحربية والمالية بشأنها، ولرُبَّما اضطرته الظروف وهو بحضرموت للإقدام على بعض التصرفات المستعجلة فيوفق فيها ويقره والده عليها، ويثني على جرأته وإقدامه وحسن إدراكه، وقد استطاع أثناء توليه السلطنة وقبلها أن يكسب عطف أعيان حضرموت

وسادتها بحسن سياسته ومرونته وبُعْد نظره، رغماً عما قد تشبّع به الجو الذي يحيط به من نفور عن العشائر اليافعية بسبب الإشاعات التي انتشرت عنهم أثناء الفوضى السياسية التي كانت تغمر البلاد.

❖ السلطان الأول:

كان الجمعدار عوض بن عمر هو الخليفة الشرعي لوالده بالاشتراك مع أخويه عبدالله وصالح، كما تنص على ذلك وصية الجمعدار عمر بن عوض التي سبقت الإشارة إليها في ترجمته، فقد أوصى بأن يكون هؤلاء الثلاثة فقط من أبنائه خلفاءه والقائمين بالأمر من بعده، وأوصى ابنيه محمداً وعلياً بالطاعة والامتثال لهم، فأخذ الجمعدار عوض بن عمر عقب وفاة والده يعالج الشؤون الحربية والسياسية بكل ما عرف عنه من حنكة ودهاء وسياسة لاقياً من إخوانه الأربعة كل عون وتأييد، فقد كان هو ألمعهم اسماً وأبرزهم شخصية وأقدرهم على مواجهة الصعاب والتغلب عليها.

والجمعدار عوض بن عمر هو أول من أطلق عليه لقب السلطان من العائلة القعيطية المالكة، فقد أصدرت حكومة الهند أمراً سنة **١٩٠٢**م بأن يطلق لقب السلطنة على الأمير عوض بن عمر وخلفائه من القائمين بالأمر بعده، بدلاً من لقب الجمعدار الذي يعبر في الاصطلاح الهندي عن رتبة عسكرية خاصة، وذلك بعد أن أصحبت السلطنة القعيطية ذات كيان خاص معترف به.

❖ التطلع إلى الساحل:

وكان الحصول على منفذ إلى البحر من أهم الأمور التي تشغل بال الجمعدار عوض بن عمر فلا بد من أن تسيطر دولته الناشئة على ميناء تتلقى بواسطته الإمدادات الحربية والمالية من الخارج وتجعل منه قاعدة لتوسعها في الساحل والحد من طموح منافسها الخطير السلطان غالب بن محسن

الكثيري، وإذا كان غالب بن محسن الكثيري قد فكر نفس التفكير فسبق إلى احتلال الشحر وطرد أميرها علي ناجي بن بريك سنة **١٢٨٣**هـ فتلك فرصة هيأتها الأقدار لتدخل القعيطي في شؤون الساحل دفاعاً عن الحقوق اليافعية المسلوبة وحماية لنفوذهم ومصالحهم في الساحل.

❖ احتلال الشحر:

قدم السلطان عوض بن عمر من الهند في **٢٣** رمضان سنة **١٢٨٣**هـ على رأس مائتي مقاتل من مهاجري يافع بالهند وخمسمائة من الهنود الرويلة، ومعه ثلاث بواخر وست سفن شراعية مزودة بعشرين مدفعاً وذخائر كثيرة، وقدم الشيخ علي الحريبي أحد رؤساء يافع من بلاد اليوافع يقود ألفاً وخمسمائة «١٥٠٠» من شجعانهم، ووصل من القطن الجمعدار محمد بن عمر القعيطي ومعه مائتا مقاتل من يافع ومواليهم وثلاثمائة من الحلفاء، كما وصل من نجد الأمير منصور بن حسين بن قملا يقود خمسمائة من رجاله بينهم مائة فارس.

وفي **٢٤** من ذي الحجة سنة **١٢٨٣**هـ هاجم المدينة ثلاثة آلاف مقاتل من الجنوب والغرب والشمال، وأسرع المهاجمون من البحر بزوارقهم إلى البر، حيث أنزلت الرجال والمعدات الأمر الذي سهل لبقية الجيش اقتحام الأسوار والهجوم المباغت السريع فلم يقاوم آل كثير سوى يومين فقط، انهزموا بعدها تاركين زهاء أربعين قتيلاً، وقتل من يافع ستة عشر رجلاً، وعاد السلطان غالب بن محسن إلى حضرموت بفلول جيشه.

وعاد السلطان غالب بن محسن لاستئناف الهجوم على الشحر في رجب سنة **١٢٨٤**هـ مدفوعاً بإغراء ومساعدة الجمعدار عبدالله بن علي العولقي صاحب حصن الصداع، وكان هذا الرجل من أولي المطامع السياسية ومن أصحاب الثروات الواسعة، وكان السلطان عوض بن عمر في الشحر على رأس ألف مقاتل من يافع أثناء هجوم آل كثير عليها، ونجح

المهاجمون في الاستيلاء على أكثر من ثلثي المدينة بعد قتال شديد دام ستة أيام حتى أنهم احتلوا دار باجمال المواجهة لدار ناصر التي يقيم فيها السلطان عوض بن عمر.

واشتد ضغط آل كثير على حامية المدينة، وأشار رؤساء يافع على السلطان عوض بأن يكون في إحدى السفن الراسية بالميناء لينجو بنفسه إذا قدرت عليهم الهزيمة، فرفض وأطلعهم على خنادق البارود التي أحاطها بدار ناصر، وقال لهم: إنه صمم على أن يشعل هذا البارود ليموت تحت جدران الحصن هو ومن معه إذا كتبت عليهم الهزيمة، ورأى رؤساء يافع أمارات الجد في ملامح وجه قائدهم الأول، فجدد ذلك من حماسهم وبث فيهم روح المغامرة، فاندفعوا في شوارع المدينة يلقون بالسلاح الأبيض كل من وجدوه من آل كثير حتى اضطر آل كثير للانسحاب، متوهمين أن مدداً قد وصل ليافع تاركين مائة وعشرين قتيلاً وستين جريحاً وعشرين أسيراً، واستولت الجنود اليافعية على جميع ما خلفوه من مؤن وذخائر، وقتل من يافع أربعة وعشرون وجرح عشرة.

❖ محاولة خطيرة:

أقلقت الجمعدار عوض بن عمر تلك الهجمات العنيفة التي يقوم بها غالب بن محسن الكثيري، والتي تعرقل خططه الحربية وتكلفه خسائر فادحة في الأرواح والأموال، فحاول غزو العاصمة الكثيرية ليكون - إذا نجح - في مأمن من أي عدوان يفسد عليه برنامجه السياسي والحربي.

جمع ما لا يقل عن سبعة آلاف جندي من يافع ومماليكهم ومن الهنود الرويلة وآل تميم وقبائل نهد والقبلة مثل الكرب ودهم ويام وغيرهم من سائر القبائل، وقد تجمعت هذه الجيوش على حدود المنطقة الكثيرية قادمة إليها عن طريق العبر وشبوه، ووادي العين ووادي حذية وعقبة الفقرة، وكان النقيب صلاح بن محمد الكسادي أمير المكلا مشتركاً في هذه الحملة

بخمسمائة جندي من أتباعه وبمائة ألف ريال استدانها من القعيطي مساهمة منه في نفقات الجيش.

وقد تكاملت هذه الجيوش مستعدة للهجوم في أواخر رجب سنة ١٢٨٥هـ بقيادة الأمراء محمد وعوض وعبدالله وعلي أبناء الجمعدار عمر بن عوض وكبار رؤساء يافع.

وفي مستهل شعبان سنة ١٢٨٥هـ بدأوا هجومهم فهاجمت الموسطة وآل تميم ونهد وقبائل القبلة دار الهاجري والمحايل وقسبل وهي حصون الدفاع الغربية لسيئون، واخترق آل الضبي بقيادة أحمد عامر الحضرمي ويافع الجبل المسيلة مستهدفين سيئون، وهاجم الهنود ومماليك القعيطي وأخلاط القبائل بحيرة وهدامة - المحترقة - فاحتلتها بعد مقاومة بسيطة من حامية هدامة، وكان مهمة هذه الفرقة المحافظة على خط الرجعة وتأمين المواصلات لمهاجمي سيئون، أما الجيش الزاحف بطريق عقبة الفقرة بقيادة علي صالح الجهوري فكان هدفه احتلال تريم ومشاغبة آل كثير من الخلف.

لقد كان هذا الجيش الكثيف مزوداً بأحسن الأسلحة وكامل المعدات، وكانت الخطة الحربية التي وضعت له محكمة ومنظمة، ولكن الزمام كان قد أفلت من يد القيادة العامة واختلف الجنود وتنازعوا ولم ينفذوا أوامر القيادة العليا، ودب إلى صفوفهم التخاذل وسوء النية، فكانت النتيجة لذلك هي الهزيمة والانسحاب، وتكبد الخسائر في الأرواح والمعدات.

فقد وصلت طلائع مهاجمي سيئون حوالي تريس، وكان كل شيء يبشر بنجاحهم لو نفذت الخطة المرسومة، ولكن إخوانهم من الموسطة تحت دافع من تأثير الحسد والأنانية بدأوا يتخاذلون زاعمين بأن احتلال سيئون لن يستفيد منه سوى آل الضبي الذين سيصبحون حكام المدينة وسادتها فما لهم يقدمون أرواحهم ثمناً لغنيمة ليست لهم، ألا يكفي أنهم خلصوا مدينتهم شبام من أيدي خصومهم؟ ومع ذلك فهم يرون آل كثير يستميتون في

الدفاع في المعارك التي خاضوها معهم بسبب وجود القوة الرئيسية منهم هناك، ولأنهم يعتبرون المعركة معركة حياة أو موت بالنسبة لهم، فدبّ الفشل في قبائل الموسطة وانسحبوا من مراكزهم الأمامية دون أن تلحق بهم أية خسارة، وبذلك تمكن آل كثير من ضرب مهاجمي سيئون من الخلف بغتة فانهزموا، وبانهزامهم انقطع خط الرجعة على مماليك القعيطي والرويلة ومن معهم فانسحبوا بعد أن قتل منهم سبعون وجرح أكثر من أربعين، ولولا مهارة قائد هذه الفرقة لم ينج منها أحد، وتعرف هذه المعركة بمعركة هدامة.

أما الفرقة الزاحفة إلى تريم بطريق عقبة الفقرة فقد طمع الحموم فيما معهم من مؤن وعتاد من جهة، وأحبوا مساعدة آل كثير من جهة أخرى، فأوعز المقدم ابن مجنّح - زعيم بيت علي - إلى البدو في قافلة الحملة أن يتخلوا عن القافلة، ففعلوا وهاجمها برجاله في المكان المسمى «الغلاغيل» فجأة، فقتل القائد علي صالح الجهوري وابنه عبدالقوي وعشرون من يافع وانهزم الباقون تاركين جميع ما في القافلة من أقوات وعتاد حربي، وتسمى هذه الحادثة بواقعة «الغييضات».

وكان من أبرز القتلى في حملة سيئون القائد الباسل أحمد عامر الحضرمي، فقد احتل قارة آل عبدالعزيز بجيشه المنسحب من هدامة، ولكن حصن الصقعان ظل يدافع حتى سقط القائد صريعاً في الميدان فلاذ جنوده بالفرار إلى شبام، وهكذا قضى على تلك الحملة الكبيرة والاستعداد الهائل بالفشل الذريع.

ومما يذكر بهذه المناسبة أن النقيب صلاح بن محمد الكسادي لم يقم بأي دور إيجابي في هذه الحملة هو الآخر، فقد كان يتوجس شراً من مطامع القعيطي التي لا تقف عند حد، ويرى أن انتصار القعيطي في هذه المعركة الحاسمة ليس في صالحه، ثم هو في نفس الوقت يخشى أن تهاجم

المكلا وهو على رأس أكثر جنوده في داخل حضرموت، وكان ذلك من بين عوامل الهزيمة.

أما السلطان عوض بن عمر فلم يضعف من عزيمته ما حل بخطته من فشل، فقرر السفر إلى الهند ليستعد للقيام بحملة أخرى للقضاء على سلطة ونفوذ العولقي وغيره من أنصار آل كثير في الساحل، فسافر في شوال سنة **١٢٨٥**هـ.

❖ الاستيلاء على الغيل:

كان آل عمر باعمر أقدم قبيلة مسلحة تسكن غيل باوزير قد عقدوا اتفاقاً مع القعيطي بعد استيلائه على الشحر سنة **١٢٨٣**هـ، وافقوا بموجبه على أن يرسل القعيطي من يمثله في الغيل، فأرسل إليها عنبر عبيد أحد موالي آل الرباكي اليافعيين فأقام فيها مدة جاعلاً مقره حصن الرقيمي الواقع شرقي المدينة، وكان يفصل في القضايا التي تعرض عليه ويباشر ما تمكن مباشرته من سلطته.

وكانت الغيل في تاريخها السياسي القديم تتبع دائماً السلطة السياسية التي تحكم الشحر وتخضع لها لأسباب اقتصادية في الغالب، فالشحر هي الميناء الوحيد الذي كان سكان الغيل يعتمدون عليه في التصدير والتوريد وشراء ما يحتاجون إليه من الأقوات والبضائع فلا يمكن أن تستقل عن الشحر أو تعادي السلطة القائمة فيها لاحتياجها إليها في اقتصادياتها المهمة.

وعلى هذا الأساس خضعت الغيل للسلطنة الكثيرية الأولى ثم لابن بريك عندما احتل الشحر، وعادت إلى سلطة آل كثير بعد استيلاء غالب بن محسن على الشحر، فلما احتلها القعيطي بادر آل عمر باعمر إلى إعلان خضوعهم، وهم يعلمون عدم موافقة آل كثير والعولقي على هذا التصرف.

ولكنهم عادوا تحت تأثير العولقي وآل كثير وإغرائهم فرفضوا الخضوع

لسلطة القعيطي، وأنذروا عامله عنبر عبيد بأن يبارح الغيل، وأخبرني أحد المطلعين من آل عمر باعمر بأن آل كثير فكروا في اغتيال عنبر عبيد، فصدهم عن ذلك عقلاء آل عمر باعمر وذهبوا به إلى الشحر في حراستهم حيث أبلغوه مأمنه.

وعجلت هذه الصدمة التي تلقاها السلطان عوض بن عمر بإبراز الفكرة التي تدور برأسه، فقرر احتلال شحير تمهيداً للزحف على الغيل، فأرسل قوة كبيرة من يافع في نفس اليوم الذي قدم فيه عامله مطروداً من الغيل استولت على شحير دون سابق إنذار، وقبل أن تغرب شمس اليوم الذي تحركت فيه من الشحر، ولم تلق أمامها أية مقاومة.

وشعر العولقي وآل كثير بضياع الفرصة التي كان الواجب أن يكونوا هم المستفيدين منها، فإن القبائل المقيمة في شحير جميعها موالية لهم وسترحب باحتلالهم لها، حيث يكون هذا الاحتلال درعاً يقي غيل باوزير من الهجوم القعيطي المنتظر، ومع ذلك فلا بد للدفاع عن الغيل من إرغام القعيطي على إخلاء شحير، وأعدوا عدتهم للهجوم عليها في صفر سنة ١٢٩٢هـ، ولكنهم فشلوا وارتدوا خائبين.

وكانت الغيل في هذه الفترة ميداناً لتجمعات جنود العولقي وآل كثير وأتباعهم من قبائل الحموم وغيرهم، وكان الهدف من هذه التجمعات الاستعداد للهجوم على الشحر بقيادة الأمير عبود بن سالم الكثيري وعايض بن سالمين بن طالب الكثيري، وأدرك القعيطي أن آل عمر باعمر في الغيل من الضعف والتأرجح في الاتجاه بحيث لا يقوون على مقاومة الضغط الكثيري، ولذلك فلا بد من حسم الموقف، والقضاء على مشاغبات العولقي وآل كثير باحتلال هذه المدينة التي تهدد سلامة الشحر وتكوِّن خطراً على نفوذ القعيطي في الساحل.

أما آل باوزير أصحاب النفوذ الروحي في هذه المدينة فقد حافظوا

على حيادهم بين المعسكرين أتم المحافظة، ولم ينحازوا إلى أحد الفريقين فكانوا موضع احترام الجميع وتقديرهم، وكان لهم من نفوذهم على قبائل الساحل واحتفاظهم بموقفهم المشرّف قوة تبعث الفريقين المتحاربين على التنافس في خطب ودهم وكسب ولائهم، ولذلك لم يتعرض أحد منهم لسوء عند هجوم جنود القعيطي على الغيل، ولم تفتش بيوتهم ولا بيوت أتباعهم.

وتحركت قوات القعيطي في أواخر رجب سنة **١٢٩٢**هـ متجهة إلى الغيل، وكانت مؤلفة من ألف وستمائة مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمي وسعيد بن علي النقيب وسعيد حيدر البكري، وعسكرت جنوب شرق الغيل في الموضع المعروف بقارة المجوّب، ولحق السلطان عوض بن عمر بجيشه وأصدر أمره بالهجوم، فنشطت مدفعية الجيش تضرب المدينة بقنابلها، ثم زحف الجنود إثر ذلك، وبعد قتال لم يدم طويلاً دخلوا الغيل بعد أن فر منها آل كثير وحلفاؤهم ولم يبق منهم سوى أفراد قلائل كانوا هدفاً لنيران بنادق الجيش القعيطي.

وكان آل عمر باعمر قد رحّلوا عائلاتهم وأطفالهم من الغيل، وغادرها كثير منهم إلى صهوت وريدة العليب مبتعدين عن الاصطدام بقوات القعيطي، ولم يبق منهم كما أخبرني ثقة من آل عمر باعمر إلا من خضع لإغراء آل كثير، وقد قتل عدد من هؤلاء وفر بقيتهم إلى صهوت وحصن العولقي، وحصر عمر بن سعيد البعوض بن عمر باعمر في بيته مع نفرين من عشيرته وثلاثة من مواليهم، وبعد مفاوضات خرجوا في أمان جماعة من يافع أوصلوهم إلى صهوت على بعد أميال غربي الغيل.

ونودي بالأمان إثر انتهاء المعركة، وفرق السلطان عوض بن عمر الحاميات على المدينة وضواحيها، وسمح لآل عمر باعمر بالعودة إلى منازلهم فعادوا بعد حوالي أسبوع من احتلال الغيل، ولكنهم على ما يظهر

لم يكونوا على استعداد لتناسي الماضي والدخول في عهد ودي جديد، وسرعان ما رفضوا دفع الضريبة التي فرضها القعيطي على حاصلات الغيل.

وأدرك القعيطي أنه لا يمكن الاطمئنان إلى وجود آل عمر باعمر في الغيل كقوة مسلحة غير مستعدة للتفاهم معه والرضوخ لأوامره، فاستدعاهم إلى الشحر، وسجنهم بعدما كبلهم بالحديد، ثم أطلق بعضهم بعد تفاهم واتفاق معهم على شروط حيث عادوا إلى الغيل وفر البعض من السجن، فلحقوا بالصومال الإيطالي من إفريقيا الشرقية، وتوجد الآن منهم عائلات كبيرة في مركه ومقدشوه.

❖ حصن العولقي:

الجمعدار عبدالله بن علي العولقي من أصحاب الرتب العسكرية الرفيعة في الهند، ومن المقربين لدى نظام حيدر أباد، وكان ذا ثروة واسعة وطموح إلى السلطة، ولما رأى نفوذ القعيطي يتسع في حضرموت وتتجه أنظاره إلى الساحل طمع هو الآخر في أخذ نصيبه من تركة الإمارتين المعرضتين للزوال في الشحر والمكلا أمام المتنافسين الأقوياء.

وسعى إلى توحيد جبهة مع آل كثير وآل عمر باعمر لجلاء يافع عن الساحل، وكان العولقي لا يخفي عداءه للقعيطي، بل بالعكس كان يتوعده ويهدده وأنه سيحول بالاشتراك مع حلفائه دون تحقيق مطامحه، وفي حديث له مع السلطان عوض بن عمر بالهند تبادلا فيه التهديد والوعيد، قال السلطان عوض للعولقي: إن حصنه بالصداع سيكون مصيره الخراب بأيدي يافع، وإن عليه نذراً أن ينقل جزءاً من ترابه بعد هدمه إلى حيدر أباد لينثره أمام العولقي والمتعصبين له من أعوانه، وقيل: إن السلطان عوض وفّى بنذره هذا بعد استيلائه على الحصن.

وتوفي العولقي سنة ١٢٨٤هـ في حيدر أباد، وخلفه ابنه الوحيد محسن بن عبدالله الذي ورث من أبيه عداء يافع والقعيطي، فاستمر هذا متعاوناً مع

آل كثير في إقلاق راحة القعيطي في الساحل وإثارة القلاقل والمشاغبات ضده، وكان سقوط الغيل في يد يافع فرصة للهجوم على حصن العولقي والبر بوعد السلطان عوض في هدمه وتخريبه.

وتحركت فرقة من الجيش الذي احتل غيل باوزير متجهة إلى الحصن الذي يقع شرقي مدينة الغيل بالقرب من الصداع، وكان قد تحصن فيه جماعة كبيرة من العوالق وآل عمر باعمر ومن انضم إليهم من البادية، ونظراً لضخامة الحصن ومناعته وقوة بنائه اكتفى السلطان عوض بضرب الحصار عليه عدة أشهر حتى أكلت حاميته الجلود والدم، وحاول العوالق أن يحصلوا على مساعدة عسكرية من آل كثير بذلوا لهم من أجلها الذهب والسلاح فلم يفلحوا.

وكانت تجري أثناء الحصار مناوشات حربية، ثم لم يقو المحاصرون حتى على إطلاق الرصاص من شدة الجوع، وحفر الجنود من يافع سراديب تحت الأرض عندما امتنع عليهم الحصن ليحرقوه بالبارود فسلّم أهل الحصن قبل أن تتم هذه العملية، وخرج من بقي منهم في حالة يُرثى لها، وبذلك تمكن القعيطي من القضاء على أهم مركز في الساحل كان يستخدم ضده.

❖ احتلال الموانئ الشرقية:

أرسل السلطان عوض بن عمر قبل احتلال الغيل ثلاثمائة مقاتل من الشحر إلى الحامي فاحتلوها سنة **١٢٨٧هـ**، ثم احتلوا رأس باغشوة والقرن والديس بدون مقاومة تذكر.

وفي سنة **١٢٨٨هـ** أرسل خمسمائة مقاتل احتلت قصيعر بعد قتال مع حاميتها، وبذلك تم احتلال الموانئ الشرقية جميعها وأصبحت المناطق المجاورة لهذه الموانئ تابعة لسلطة القعيطي.

❖ هجوم آل كثير على شبام:

كانت الانتصارات التي أحرزها القعيطي في الساحل سبباً في ازدياد نقمة آل كثير وتضاعف قلقهم، فانتهزوا فرصة ذهاب معظم يافع من شبام إلى القطن في ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ لقضاء أيام العيد هناك بين أهليهم، فهجموا على شبام يوم الزينة العاشر من ذي الحجة ودخلوها ونهبوا المتاجر وروّعوا السكان.

وكان في شبام الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي على رأس عدد قليل من يافع، فأرسل إلى القطن يطلب النجدة، فقدم عليه خمسمائة وسبعون مقاتلاً قاتلوا آل كثير في شوارع المدينة قتالا عَنيفاً حتى اضطروهم إلى الانسحاب بعد أن قتل منهم خمسة وعشرون، دفن عشرون منهم في موضع على مقربة من سدّة شبام عند نخلات تعرف الآن بنخل عشرين، وقتل من يافع سبعة.

❖ الخلاف بين القعيطي والكسادي:

في سنة ١٢٨٨هـ توفي النقيب صلاح بن محمد الكسادي حاكم المكلا قبل أن يتمكن من دفع المائة الألف الريال التي استدانها من القعيطي أثناء الحملة الكبرى على آل كثير، فطالب السلطان عوض بن عمر خليفته النقيب عمر بن صلاح وشدد عليه في المطالبة مغتنماً فرصة وجوده في المكلا على رأس قوة من جنده، فاضطر النقيب إلى الموافقة على التنازل عن نصف المكلا وعن بروم والحرشيات للقعيطي مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يقتطع منها الدين الذي على والده، وكان ذلك سنة ١٨٧٣م.

وكان هذا التنازل الذي يبدو في الظاهر كتسوية للنزاع نذيراً بتفاقم فتنة بين القعيطي والكسادي، فقد أخذ النقيب عمر يفكر في التخلص من الفخ الذي وقع فيه، ولم يجد أحسن من الالتجاء إلى آل كثير مستعيناً بهم على خصمه القعيطي فأرسل إليهم سراً يحثهم على مهاجمة الشحر، ويخبرهم

بضعف حاميتها ويعدهم بالمساعدة، فطمعوا في النصر هذه المرة أو أرادوا أن يجربوا حظهم مرة أخرى، وأقبلوا بقبائلهم وعبيدهم وعسكروا في دفيقة بالقرب من الشحر تحت قيادة عبود بن سالم الكثيري، ولكنهم رجعوا خائبين بعد أن طال عليهم المقام بدون جدوى ودب في صفوفهم الفشل واستولى عليهم الملل.

وأرسل آل كثير مرة ألفاً وأربعمائة مقاتل إلى الكسادي لمساعدته في حرب القعيطي، فثارت حماسة يافع الموجودين بالشحر وطلبوا من السلطان عوض بن عمر أن يسمح لهم بالتعرض لهذا الجيش قبل أن يصل إلى الكسادي في المكلا فلم يوافقهم، ولكنهم تغلبوا عليه في النهاية وتجهز منهم ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة عمر عوض القعيطي، وانضم إليهم من غيل باوزير مائتا مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمي، والتقى هذا العدد القليل من يافع بالجيش الكثيري في موضع يقال له «التّخْم».

وكان آل كثير قد دبروا خطة محكمة لتطويق يافع بعد أن تحصنوا في مواقع حصينة، ونشبت معركة حامية قتل فيها من يافع خمسة وأربعون ومن آل كثير اثنا عشر، ثم انسحبت جنود القعيطي وواصل الجيش الكثيري سيره إلى المكلا بعد أن حز رأسي القائدين اليافعيين عمر عوض القعيطي وسعيد أحمد الحضرمي، وكانا من بين القتلى، وسار بهما على رأس جريدة إلى المكلا، وقد بقي هذا الجيش مرابطاً في الحرشيات بضعة شهور، ثم عاد إلى الداخل دون أن يصنع شيئاً.

وكان هذا العداء السافر للقعيطي من جانب الكسادي من بين الأسباب التي جعلت السلطان عوض بن عمر يعجل بالتفكير في القضاء على سلطة الكسادي، أضف إلى ذلك أنه بينما كان السلطان عوض في المكلا أثناء اقتسامها مناصفة بينه وبين الكسادي دبر النقيب عمر بن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض ضحيتها، ولكنه استطاع أن ينسحب بمن معه من

يافع بطريق البحر في وضع أثار غيظه وحمله على التعجيل بالحل النهائي لمشكلة الكسادي.

ولم يجد أفضل من أن يتجه إلى حكومة عدن التي قامت بدور الوسيط بينهما، واستدعت إليها النقيب عمر وأخذت منه ومن القعيطي وثيقة بالتحكيم، ثم أصدرت حكمها بأن خيّرت النقيب بين إحدى ثلاث: إما أن يدفع المائة الألف التي على والده للقعيطي حالاً، أو يتسلم من القعيطي مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا وينتقل هو إلى بروم، أو يتسلّم من القعيطي مائتي ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها.

❖ تسليم المكلا إلى القعيطي:

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال وطلب من حكومة عدن أن تعيده إلى المكلا ففعلت، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنكليزي عرض على النقيب أن يقبل إحدى الخصال الثلاث التي عرضتها عليه حكومة عدن وقال له: إنه سيضطر - في حالة رفضه - إلى ضرب المدينة بالمدفع.

ولم يجد النقيب عمر بُداً من تسليم نفسه إلى قبطان البارجة «دراجون» التي أبحرت به إلى عدن في طريقه إلى زنجبار في نوفمبر سنة ١٨٨١م مفضلاً الجلاء عن المكلا على قبول الحكم، وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة في ثلاثة عشر مركباً شراعياً وسافر معه عدد من أتباعه وحاشيته.

ووجدت بخط بعض المعنيِّين بالتاريخ الحضرمي أن جلاء الكسادي عن المكلا كان في سنة ١٨٧٧م الموافق ١٢٩٤هـ، وبذلك دخلت المكلا وملحقاتها تحت سيطرة السلطنة القعيطية ونفوذها.

❖ معاهدة الحماية:

لقد أصبحت أهم الموانئ في الساحل الحضرمي تحت نفوذ القعيطي

وفي قبضته بالإضافة إلى شبام والقطن وحورة في الداخل، وكان له إلى جانب ذلك قوة تحمي سلطنته الناشئة وأنصار في طول البلاد وعرضها يؤيدونها بكل أنواع التأييد، وبذلك أضحت حقيقة واقعة، ولم يتردد ممثل الحكومة البريطانية بعدن في الاعتراف بها رسمياً باسم التاج البريطاني.

وكان السلطان عوض بن عمر قد اتخذ قراراً هاماً بالاشتراك مع أخيه عبدالله يقضي بضرورة الدخول في معاهدة رسمية مع الحكومة البريطانية لحماية سلطنتهما الناشئة من أي عدوان من الخارج أو الداخل، وبدأت المفاوضات فعلاً بواسطة المستر «هنتر» معاون حاكم عدن الذي قدم إلى الشحر لهذا الغرض.

وفي يوم الثلاثاء **١٣** فبراير سنة **١٨٨٨**م الموافق **٢١** جمادى الثانية سنة **١٣٠٥**هـ وقعت معاهدة الحماية هذه في الشحر أمضاها السلطان عوض بن عمر وأخوه عبدالله بحضور المستر «هنتر» ثم أمضاها حاكم عدن الجنرال «هوج» بعد ذلك عن الحكومة البريطانية.

وأهم نصوص المعاهدة: اعتراف القعيطي بأنه تحت حماية بريطانيا العظمى، وموافقته على أن لا يرتبط مع أية دولة أجنبية أو شركة إلا بعد رضى حكومة بريطانيا وموافقتها.

وفي مقابل ذلك تعهدت الحكومة البريطانية بأن تحمي الدولة القعيطية من اعتداء أية دولة أجنبية، وأن تساعد في قمع كل حركة عدائية ضده من الداخل، وهذه هي المعاهدة الأولى مع حكومة القعيطي.

❖ الأميران حسين ومنصّر:

في **٢٥** نوفمبر سنة **١٨٨٨**م الموافق سنة **١٣٠٦**هـ توفي الجمعدار عبدالله بن عمر بالشحر، فطالب ولداه حسين ومنصّر في الحال بنصيبهما في حكم البلاد، وكان الأول حاكماً في الشحر والآخر في غيل باوزير، واحتدم النزاع بينهما وبين عمهما وكاد يؤدي إلى فتنة، وفشلت كل تسوية

للخلاف، فاضطر السلطان عوض أن يلجأ إلى حلفائه الإنكليز الذين وافقوا على أن يغادر الأميران البلاد إلى الهند مقابل تعويض عن مطالبهما، وقد أرسلت حكومة عدن بارجة إلى الشحر نقلت الأمير حسيناً إلى عدن، ثم لحقه بها أخوه منصّر حيث سافرا منها إلى الهند، وبذلك أصبحت السلطنة محصورة في عقب السلطان عوض بن عمر فقط.

❖ وادي دوعن:

استمر الوادي بعد جلاء قوات الكسادي عنه على حالته من الفوضى والانقسام وفقدان الأمن والعدالة وتحكم الأقوياء في الضعفاء وإرهاق الأهالي بالضرائب الفادحة التي لا تقوم على أساس ولا تهدف إلى غاية سوى إشباع حاجة الرؤساء إلى المال الذي يقدمونه وقودا لًلفتن والحروب المستمرة فيما بينهم.

ولم يستطع الأهالي صبراً على هذه الحالة التي لا يعرفون لها من آخر، فقدم المفكرون منهم عرائض الشكوى والتذمر إلى السلطان القعيطي الذي قام بمفاوضات مع حاكم الخريبة الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عبدالكريم العمودي، وقد قبل هذا أن تخضع منطقة نفوذه للقعيطي مقابل مائتي ريال تدفع له شهرياً من ضرائب سوق الخريبة، ثم أعلن عصيانه وحبس بعض الذين قدموا عرائض الشكوى إلى القعيطي، فاضطر السلطان عوض بن عمر إلى حربه، ولم يثبت ابن عبدالكريم أكثر من أربعين يوماً هرب بعدها متوجهاً إلى جهة القبلة بعد أن قُتل جماعة من أصحابه.

ولم يلبث أن جمع عسكراً كثيفاً من البادية هاجم بهم الخريبة في رمضان واستولى عليها وأكثر من السلب والنهب، وأعد السلطان القعيطي عدته لحسم الموقف، فأرسل قوة كبيرة من المكلا بقيادة مولاه عبدالخالق الماس، وأشار على الأمير صلاح بن محمد بن عمر القعيطي أن ينجده بقوة من القطن، فقدم بنفسه إلى دوعن على رأس مائتي مقاتل، ووقف

حاكم بضة وزعيم آل العمودي الأكبر على الحياد كما وقف غيره من آل العمودي ومنعوا أتباعهم من القبائل أن يساعدوا ابن عبدالكريم.

واستنجد حاكم الخريبة بقبائل الديّن والقثم فجاءه ألف وخمسمائة منهم، واشتبكوا في معارك متعددة انتهت بهزيمة العمودي واحتلال الخريبة وما تحت نفوذه من قرى دوعن سنة **١٣١٧**هـ بعد أن تكبد الجيش القعيطي مشقات، وعانى صعاباً كثيرة، ثم أسند حكم الوادي إلى المقدم عمر بن أحمد باصُرَّة الخامعي السيباني الذي قدّم للجيش القعيطي مساعدة فعّالة في حربه للعمودي.

وقد كان القعيطي مبتعداً عن الاصطدام بقبائل ليسر حتى بدأت قبائل هذا الوادي تتحكك بجنود القعيطي من يافع، وحصل نزاع بين الخنابشة سكان الجحي وبين آل باهبري الذين استنجدوا بالحالكة سكان وادي ليسر، فتدخل المقدم عمر بن أحمد باصُرَّة لمساعدة الخنابشة وأمدهم بالمال والسلاح وبالجنود من يافع وأرسل القعيطي من المكلا ذخائر وأسلحة، واستمرت الحرب نحو ستة أشهر انتهت باندحار قبائل الحالكة، وبعد بضع سنين وصل إلى المكلا رؤساء آل بلحمر مع بقية زعماء الحالكة وبعض آل العمودي وحالفوا القعيطي، وبذلك انضم وادي ليسر إلى سلطته.

❖ منطقة حجر:

يسكن هذه المنطقة ويسيطر عليها قبائل أشداء معظمهم من نوّح يتقاسمون السلطة فيما بينهم، وفي هذه المنطقة يوجد نهر حجر العظيم الذي يمر بأجود الأراضي الصالحة للزراعة وغراسة النخيل وأشجار الفاكهة، وهي بعد ذلك من المواقع المهمة للدفاع، وبها مراكز استراتيجية ذات أهمية كبرى، ولذلك فقد أدرجها السلطان عوض بن عمر ضمن برنامجه، وتمنى على الله أمام الكعبة الشريفة عندما زارها حاجاً أن لا يميته حتى يضمها إلى سلطنته.

وفي سنة **١٣١٧**هـ جهز ستمائة مقاتل من يافع وآل تميم لاحتلال هذه المنطقة، وعلمت بهم قبائل حجر فكمنوا لهم في رؤوس الجبال المشرفة على الوادي الذي سيمر به الجيش القعيطي، وبينما كانت الجنود تسير في طريقها آمنة مطمئنة انهمرت عليها طلقات الرصاص كالمطر من المواقع التي كمنت فيها القبائل، فذعر الجيش الذي فوجئ بهذه المعركة على حين غرة وحاول الدفاع دون جدوى، فانسحب تاركاً ثلاثة وستين قتيلاً.

لم تضعف هذه الهزيمة من عزيمة القعيطي ولم تصرفه عما عقد العزم عليه من احتلال هذه المنطقة الغنية الخصبة، فأعاد الحملة عليها سنة **١٣١٨**هـ حيث أرسل مائتي مقاتل من يافع وبمعيتهم وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوده بالمال لشراء أراض بوادي حجر تكون نواة للتدخل في هذه المنطقة، واستطاع المحضار بحكمته ودهائه أن يعقد حلفاً بين الحكومة القعيطية وبين قبائل حجر، وكان الحلف فاتحة النفوذ القعيطي في هذا الوادي، فقد تم بعده بالتدريج خضوع جميع قبائل حجر وميفع، ودخلت هاتان المنطقتان تحت حكم الدولة القعيطية وأصبحتا جزءاً من السلطنة ومن أحد ألويتها الهامة، وسوف يظل هذا الجزء المهم من الدولة مصدراً عظيماً للثروة القومية إذا اتجهت النية الصادقة إلى استغلاله والاستفادة منه.

❖ وصيته، وفاته:

وتفادياً للنزاع والشقاق بين خلفائه كتب السلطان عوض بن عمر وصيته في سنة **١٣١٤**هـ **١٨٩٨**م والتي تنص على أن يكون خليفته الأول بعد وفاته ابنه السلطان غالب، ثم ابنه الآخر عمر بن عوض، ثم حفيده صالح بن غالب، كما نصت على أن يكون الثاني في الخلافة نائباً عن الحاكم في المكلا عندما يكون الآخر في الشحر والعكس بالعكس، كما يجب أن يكون هذا كبير موظفي الدولة - أي رئيس الإدارة - وتعرضت هذه الوصية

لتعيين نواب عن الحاكم في مدن الألوية وواجباتهم في تقديم الحسابات له عن الدخل والصرف وغير ذلك من تعليمات رآها لازمة للمحافظة على أملاك العائلة في الهند وحضرموت.

وفي سنة **١٣٢٥**هـ **١٩٠٩**م توفي السلطان عوض بن عمر في الهند في حيدر أباد، حيث احتفل بجنازته احتفالاً يليق بمركزه البارز في هذه الإمارة الهندية، وشيّع إلى مرقده الأخير بين ثناء المعجبين وصالح دعواتهم.

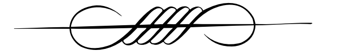
لقد أدرك عوض بن عمر هذه السلطنة فكرة في رأس والده، ثم صحبها مشروعاً ضخماً وقف حياته لتحقيقه وإخراجه إلى حيز الوجود، ثم غادرها حقيقة واقعة تتمثل في أكبر رقعة من القطر الحضرمي تمتد في الساحل من حدود قصيعر شرقا إًلى منطقة حجر غرباً، وتتكون نواتها في الداخل من المساحة الواقعة ما بين شبام في الشرق وحورة في الغرب، وتربطها بأكثر القبائل وثائق حلف تطورت بعد ذلك إلى نفوذ شمل جميع المناطق التي تسكنها هذه القبائل، ولم يشأ أن يترك هذه السلطنة الناشئة عرضة للعواصف والتقلبات، فعقد مع بريطانيا العظمى معاهدة الحماية لهذه الدولة، فليرقد رقدته الأخيرة مطمئناً إلى نجاحه، واثقاً من قوة بناء السلطنة وثباته.

وبمقتضى وصيته خلفه في السلطنة ابنه الأكبر السلطان غالب المتوفى سنة **١٣٤٠**هـ **١٩٢٢**م، وكان شهماً جواداً معروفاً بحب الخير والرحمة بالضعفاء والمحتاجين والإحسان إليهم، كثير المحبة لشعبه وإسداء الخير له.

ثم تولاها بعده السلطان عمر بن عوض الذي اهتم بتنظيم الجيش حتى أصبح قوة فعالة منظمة ذات فائدة كبيرة للمحافظة على الأمن في البلاد، وفي عهد هذين السلطانين حصلت إصلاحات في تنظيم الجهاز الحكومي، وأنشئت محاكم رسمية ومصلحة للجمارك في المكلا يقوم عليها موظفو الدولة، وحصل اهتمام بالتعليم والصحة العامة، إلى غير ذلك من أوجه

الإصلاح.

وبعد وفاة السلطان عمر سنة **١٣٥٤**هـ تولى السلطنة صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب الذي كان عهده نقطة تحول في التاريخ الحضرمي بأجمعه.



«٢١»

صالح بن غالب القعيطي

مولده، دراسته - ولعه بالعلم - رحلاته بالخارج - رغبته في الإصلاح - المعاهدات مع حكومة بريطانيا - توطيد الأمن - عقوبة آل جابر - تجديد الهدنة - العناية بالجيش - تحسين الإدارة - الخدمات الاجتماعية - الوحدة الحضرمية

❖ مولده، دراسته:

ولد السلطان صالح بن غالب في العقد العاشر من القرن الثالث عشر الهجري بالهند في حيدر أباد الدكن، وفضلاً عن حدب والده عليه ورعايته له فقد كان موضع عناية جده العظيم السلطان عوض بن عمر، حيث كان يختصه بمزيد من الحب ويؤثره على غيره من أفراد الأسرة.

وفي سن مبكرة التحق بالتدريب العسكري وانضم إلى الجيش في حيدر أباد، ثم انصرف إلى الدرس والتحصيل، وأكب على تلقي العلوم والمعارف مستعيناً في ذلك بكبار علماء عصره في الهند وبموهبته الفذة في الاستفادة من كل ما تصل إليه يده من كتب القدماء والمحدثين، حتى نال حظاً كبيرا مِّن العلوم التي لا يمكن التوسع فيها إلا للأذكياء من حملة الشهادات الجامعية العالية.

❖ ولعه بالعلم:

ثم أخذ يتتبع أنباء النهضة العلمية الحديثة ويقرأ ويستوعب كل ما

وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات ومخترعات، وربما حاول بنفسه تطبيق بعض النظريات العلمية وتجربة ما يدرسه من أصول الفن والصناعة، وكثيراً ما يصلح بيده بعض الأجهزة والآلات كالراديو والميكرفون وأداة تسجيل الصوت وأجهزة السينما والكهرباء وغيرها من المخترعات الحديثة.

وقد دفعه ولعه بالبحث وحبه للعلم إلى تأليف عدة كتب لها قيمتها من الناحيتين العلمية والأدبية، فكتب «مصادر الأحكام الشرعية» في ثلاثة أجزاء، و«الآيات البينات في الدلالة على خالق الكائنات»، و«مفردات القرآن» بالعربية والأوردو، ومبحث «وجوب التعبد بالآحاد»، وكتباً أخرى في الأصول والهندسة والملاحة البحرية وغيرها.

وله مع زواره من العلماء والأدباء ورجال الدين من وطنيين وأجانب مواقف تنطق بفضله وغزارة علمه وسعة اطلاعه، فقد كان يبحث مع كل من يضمه مجلسه من حملة العلم وأرباب الثقافة بحث المتضلع الواثق من معلوماته، فيدهشهم بما يحويه دماغه الكبير من علوم ومعارف.

وقد اعترف المستر «وندل فلبس» رئيس البعثة الأمريكية التي زارت حضرموت أخيراً في طريقها إلى بيحان للبحث عن حضارة القتبان بأن بعض الأسئلة العلمية التي كان يوجهها إليه صاحب العظمة نزلت على رأسه نزول الصاعقة، حيث لم يستطع الإجابة عليها فاضطر أن يحيلها إلى بعض المختصين من أفراد بعثته الذين حضروا هذه المقابلة.

وهو يتكلم إلى جانب لغته العربية اللغات الهندية والفارسية والإنكليزية والفرنسية، وتوجد لديه أكبر مكتبة في جنوب الجزيرة العربية تحوي مجموعات من الكتب القيمة في اللغات العربية والإنكليزية والهندية، وقَلّ أن يوجد كتاب قيم من هذه الكتب لم يطلع عليه أو يستفد منه، وقد وضع هذه الكتب أخيراً في مكتبة عامة بالعاصمة تعرف بـ«المكتبة السلطانية» لتكون في متناول جميع القراء من أفراد الشعب.

❖ رحلاته إلى الخارج:

وصاحب العظمة من المعجبين بالمدنية الحديثة المتتبعين لأحدث تطوراتها، المشجعين للاستفادة منها، والاقتباس من كل صالح مفيد من آثارها، وفي نفس الوقت يعتبر من أشد الشرقيين محافظة على التقاليد القومية النافعة، ولا عجب في ذلك فهو أحد علماء الدين البارزين الواقفين على أسرار الدين الإسلامي، الواثقين من صلاحيته لحكم الحياة، وحل مشاكلها، وتلبية حاجاتها المتجددة.

وللوقوف على آثار هذه المدنية ومظاهرها قام برحلات عديدة لزيارة بلدان العالم المتحضر، فزار كثيرا مِّن بلدان أوربا، كما زار تركيا ومصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية، هذا فضلاً عن زيارته لعواصم الهند ومراكز النهضة الحديثة فيها، وقد زار الحجاز والأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج.

❖ رغبته في الإصلاح:

وقد كانت ثقافة السلطان صالح الواسعة وخبرته بشؤون العالم ووقوفه على أحواله وتطوراته سبباً في اختلاف نظرته إلى الحكم وواجباته عن نظرة غيره ممن سبقه من السلاطين، فالبلاد في نظره أمانة في عنق الحاكم عليه أن يسعى بكل الطرق والوسائل لتقدمها ورفاهيتها، وليست عقاراً خاصاً به يستغله لمصلحته الخاصة.

وعلى هذا الأساس وجه دعوته إلى سلاطين حضرموت وأعيانها وسادتها للاشتراك في إصلاح البلاد وترقية أبنائها عندما كان نائباً عن عمه السلطان عمر في المكلا سنة ١٣٤٦هـ، فلبى نداءه السلطان علي بن منصور الكثيري وجماعة من الأعيان، وتكونت في الشحر لجنة تحت رئاسة كل من السلطانين صالح بن غالب وعلي بن منصور قررت إيفاد مندوب عن الحكومتين إلى جاوه لدعوة الحضارم المهاجرين هناك للاشتراك في هذا

الإصلاح، وقد جاء في خطاب السلطان صالح إلى حضارم جاوا ما نصه:

«لقد دعاني الواجب الوطني أن أبذل قصارى جهدي في إصلاح وطني الحضرمي المبارك، وأجتهد بقدر طاقتي ونفوذي في إزالة ما فيه من أسباب القلاقل والفتن، ووضع أساس متين للعدل والأمان، وحسم الفوضى والاستبداد، وقد هدتني هذه الفكرة إلى السعي في وضع خطة أساسية أتمكن بها من إيجاد اتحاد تام بين أفراد الأمة، وإيجاد وئام وثقة بين الأمة والقوة الحاكمة، وإزالة سوء التفاهم من بينهم ليتيسر لنا الوصول إلى ما نحن بصدده، فوجهت الدعوة إلى من شممت فيهم رائحة الصلاح من أعيان حضرموت، وطلبت منهم أن يرسلوا وفداً إلي من ساداتها وأعيانها ورؤسائها، ورجوت منهم تلبية دعوتي للإصلاح فلبوا دعوتي بارتياح».

«وبعد مفاوضة استقر رأينا على إبرام اتفاق بيننا يكون أساس الوحدة القومية، كما تقرر أن نرسل وفدين: وفداً إلى حضرموت يطوف على جميع القبائل والسكان لتفهيمهم مقاصدنا ودعوتهم إلى الإصلاح بالطرق السلمية، ووفداً يتوجه إلى جاوا لاستنهاض همم أهل الوجاهة واليسار من الوطنيين الأحرار للأخذ بيد الهيئة الاجتماعية والاشتراك في إقامة جمعية من الوطنيين تتساعد مع الهيئة الحاكمة في الأقطار الحضرمية وهيئة الوفد الحضرمي في إجراء الإصلاحات الوطنية اللازمة كنشر المعارف وإقامة شركات وطنية لإنماء الزراعة وإحياء الصناعة».

ثم قال: «وقد أوفدت إليكم أحد رجالنا الأخصاء وهو الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب الساسي مندوباً ومفوضاً من قبلي للمفاوضة معكم في كل ما به إصلاح الوطن الحضرمي وأبنائه، وأرجو أن تتوفقوا معه لما يحقق آمال إخوانكم بالوطن فيكم».

وقدم الطيب الساسي إلى سنقفورا وانعقد المؤتمر الحضرمي هناك المعروف بـ «مؤتمر سنقفورا» في شوال سنة ١٣٤٦هـ الموافق أبريل

١٩٢٨م، ولكن بعض الهيئات الحضرمية لم تشترك فيه بسبب الخلاف الموجود حينذاك بين الإرشاديين والعلويين، وقيل عن المؤتمر ما قيل. . . فكان ذلك من بين أسباب فشله وعدم تنفيذ قراراته.

وقد ظهرت رغبة السلطان صالح في إصلاح الأوضاع بحضرموت في شكلها العملي عندما تولي السلطنة بعد وفاة عمه سنة ١٣٥٤هـ، فقد جاء في خطابه الذي ألقاه عقب توليه الحكم ما يلي:

«ولا يخفى عليكم أن فلاح الأمة لا يتأتى إلا إذا كانت عرى الوفاق بين السلطان والرعايا وثيقة، وكان الأمن والسلام ضاربين في جميع نواحي المملكة وأطرافها، لأن السلطان والرعية كالأب الشفيق وأولاده فلكليهما حقوق لبعضهم على بعض، فعلى السلطان أن يبذل جهده في ترقية الملك وترقية أحوال الرعية، ولا ينجح في هذا المرام إن لم تكن الرعية مستعدة كل الاستعداد لمعاضدته في مهامه وتوثيق عرى الوفاق معه، وعليه أن يدفع الظلم والعدوان عن رعيته، ويحفظها تحت عنايته وعدله، ويعمل لتحسين كافة شؤونها الاجتماعية».

وكانت هذه الرغبة في الإصلاح من بين الأسباب التي حملته على قبول مساعدة الحكومة البريطانية في إقرار الأمن في البلاد وتحسين الإدارة وإصلاح شؤون الثقافة والصحة العامة والعمران وتنظيم المالية وغيرها، وقد تم من هذه الإصلاحات الشيء الكثير الذي كان فساد الأوضاع فيما مضى يحول دون تحقيقه.

❖ المعاهدات مع حكومة بريطانيا:

كانت أولى صلات حضرموت الرسمية بحكومة عدن هي معاهدة سنة ١٨٨٨م التي عقدها مع حكومة بريطانيا السلطان عوض بن عمر جَدُّ صاحب الترجمة، ودخلت بلاده بموجبها تحت الحماية البريطانية.

وفي سنة ١٩١٨م - ١٣٣٦هـ عقدت في عدن معاهدة بين القعيطي

والكثيري في عهد السلطان غالب بن عوض القعيطي قَبِلَ فيها سلاطين آل كثير أن تكون معاهدة سنة ١٨٨٨م ملزمة لهم، وارتضوا بتنفيذ شروطها وتعهداتها بأمانة، وبذلك دخلت بلادهم لأول مرة تحت الحماية البريطانية منذ ذلك التاريخ.

ومن بين نصوص هذه المعاهدة اعتراف السلطان القعيطي وسلاطين آل عبدالله بأن حضرموت إقليم واحد من متعلقات الدولة البريطانية تابع لسلطان الشحر والمكلا، وأن آل عبدالله يحكمون في داخل حضرموت على مدن وقرى سيئون وتريم وتريس والغرف ومريمة والغيل فقط، وأن فخذ الشنافر تابعون لسلاطين آل عبدالله فيما شملته حدودهم.

واعترف وقبل سلاطين آل عبدالله - في هذه المعاهدة - بأنهم لن يعترضوا في الحكم على حضرموت ما عدا المدن والقرى السابق ذكرها، وأنه ليس لهم حق التعرض في محلات أخرى، كما ارتضوا بأن تكون جميع معاملاتهم ومراسلاتهم مع الدولة البريطانية بواسطة السلطان القعيطي.

وينص الشرط السادس في معاهدة عدن هذه على أن الفريقين يوقفان الفتن وألا يصير من أحدهما انتقام أو مطالبة في عوض، وإذا حدثت مخاصمات في المستقبل تجتهد حكومة عدن في إصلاحها بواسطة التحكيم.

وقد أمضيت هذه المعاهدة في ١٧ شعبان ١٣٣٦هـ وقعها السلطان غالب بن عوض القعيطي عن نفسه وخلفائه، والسلطان منصور بن غالب وأخوه محسن عن دولة آل عبدالله.

وفي هاتين المعاهدتين تقف الحكومة البريطانية بحضرموت عند حدود الحماية فقط.

ولكن العلاقة الجديدة بين حكومة بريطانيا والسلطنة القعيطية نظمت

على أساس معاهدة الاستشارة التي تم التوقيع عليها في أغسطس سنة ١٩٣٧م أمضاها السلطان صالح بن غالب عن نفسه وورثته وخلفائه، ووقعها عن بريطانيا المستر «رايلي» الوالي والقائد الأكبر في محمية عدن.

وينص البند الأول على أن يتعهد السلطان بأن يتقبل نصيحة المستشار الذي تعينه حكومة بريطانيا في جميع الأمور ما عدا المسائل المتعلقة بالديانة المحمدية والعادة، أما البند الثاني والأخير فهو ينص على اعتراف الحكومة البريطانية بحق سلاطين الشحر والمكلا في تعيين خلفائهم عرضة لموافقة حكومة جلالة الملك.

وفي عام ١٣٣٩م عقدت معاهدة استشارة مماثلة مع السلطان الكثيري عندما أعيد النظر في الاتفاقية القعيطية الكثيرية لسنة ١٣٣٦هـ لإزالة بعض الاعتراضات في النص الأصلي، وبمقتضى هاتين المعاهدتين أصبح المستر «إنجرامس» أول مستشار مقيم للسلطنتين بالإضافة إلى وظيفته كمعتمد بريطاني لمحمية عدن الشرقية التي تتكون من الإمارات القعيطية والكثيرية والواحدية وبلاد المهرة.

❖ توطيد الأمن:

وكان من الأمور المسلم بها أن انعدام الأمن في المناطق القبلية بحضرموت هو من أكبر العوائق لتقدم البلاد وإصلاحها من جميع النواحي، وكان كل شيء يوحي بعدم استطاعة سلاطين الحكومتين القعيطية والكثيرية وحدهم إخضاع القبائل التي تعودت الفوضى.

ومهما يكن من أمر فإن الحكومة البريطانية التي وقفت سابقاً عند حدود الحماية، ولم يبد منها أي اهتمام بالشؤون الداخلية لحضرموت، أصبحت تفكر في الاهتمام بهذه الأمور.

ومن الواضح أن الدافع الأول لها في ذلك هو المحافظة على مصالحها الخاصة، فهي تخشى توسع بعض الدول الأجنبية ومطامعها

كإيطاليا مثلاً في ذلك الوقت، وتريد أن تبقى عدن في أمان من أي تهديد يسببه احتلال دولة أجنبية لأي قطر من أقطار الجنوب إلى غير ذلك من الأسباب.

وكان بداية هذا الاهتمام أو أول مظاهره قيام السير «برنارد رايلي» الضابط المقيم في عدن آنذاك - والذي أصبح والياً فيما بعد - بزيارة لحضرموت سنة **١٩٣٣**م وكنتيجة لهذه الزيارة قرر إرسال المستر إنجرامس ليرفع تقريراً عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد، وقد طاف المستر «إنجرامس» حضرموت سنة **١٩٣٥**م وأرسل تقريره إلى لندن لدراسته، وعاد المستر «إنجرامس» مرة ثانية إلى حضرموت في سنة **١٩٣٦**م لتنفيذ السياسة الجديدة التي قررتها الحكومة البريطانية، وكانت هذه السياسة تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى توطيد الأمن في كافة أنحاء البلاد، وقد عقدت بين كثير من القبائل المتحاربة الهدنة الأولى لمدة ثلاث سنوات تبتدئ من ذي الحجة سنة **١٣٥٥**هـ **١٩٣٦**م.

وأعلنت الهدنة باسم السلطانين ورحبت أكثرية القبائل بها بعد مفاوضات لإقناعهم بفائدتها ونتائجها الطيبة، اشترك وساهم فيها عدد من الرؤساء والأعيان أصحاب المقاصد الحسنة، وكان الكل يتطلعون إلى إنهاء حالة الخوف والفتن والقتل التي تعيش فيها البلاد.

وعقب إعلان هذه الهدنة تم تأليف مجلس للصلح الغرض منه تسوية الخلافات التي تحدث بين القبائل بعد دراستها، حتى يساعد ذلك في التقليل من أسباب الفتن والاضطرابات، ولتمر فترة الهدنة في أمن وسلام، ولكن الناس كانوا غير واثقين من قدرة الحكومتين على تنفيذ الهدنة ومعاقبة من تحدثه نفسه بخرقها والإخلال بشروطها.

❖ عقوبة آل جابر:

كان السادة آل الكاف قد قاموا بإنشاء طريق للسيارات من تريم إلى

الشحر، وصرفوا في تعبيدها مبالغ ضخمة، وكانت القبائل التي تتركز معيشتها فيما يحصلون عليه من أجور جمالهم التي تنقل البضائع بين الساحل والداخل قد عارضت في إنشاء هذا الطريق، ووضعت العراقيل في سبيل مشروع السادة آل الكاف الذي لم يكن من أهدافه الإضرار بمصالح القبائل - طبعاً - وإن كانت مشكلة أصحاب الجمال قد نجمت فعلاً عقب افتتاح هذا الطريق.

ورغم القوانين الصارمة التي وضعتها الحكومتان لتحديد أنواع البضائع التي تحملها السيارات فإن ذلك لم يخفف من قلق أصحاب الجمال وخوفهم من القضاء على أهم مصدر لارتزاقهم.

وحدث في **١٦** رمضان سنة **١٣٥٥**هـ **٣٠** نوفمبر **١٩٣٦**م أن تقدم أحد قبيلة آل جابر واسمه صالح بن سعيد بن إسماعيل بن يماني ووضع أحجاراً على الطريق بقرب الخرب، ومنع سيارة آل الكاف من المرور، وكان يركبها المستر «إنجرامس» وجماعة آخرون، وطلب منهم دراهم بالتهديد كما يقول إنذار حكومة عدن الموجه إلى رؤساء آل جابر.

وفي **٣٠** رمضان **١٣٥٥**هـ **١٤** ديسمبر **١٩٣٦**م تقدم رجل آخر من نفس القبيلة بالقرب من «رسب» وأطلق الرصاص على سيارة آل الكاف، وكان فيها القبطن «بتش» الضابط البريطاني الذي استعير من سلاح المهندسين الملكي لمسح الطريق، فتعطلت السيارة وجرح نفران من الركاب.

وقد وجهت حكومة عدن إنذاراً إلى رؤساء آل جابر تأمرهم فيه بأن يسلموا حالاً الغرامة المفروضة عليهم نظراً لعجزهم عن الدفاع عن الاتهامات الموجهة إليهم كما يقول الإنذار.

أما هذه الغرامة فهي عشرة جمال سليمة وثلاثون بندقية ومائة شاة وأضعاف النقود والبضاعة المأخوذة من الركاب، وذلك نحو ثلاثين ريالاً، ويضاف إلى هذه الغرامة تسليم ستة رهائن من كل بيت من القبيلة، ورفضت

قبيلة آل جابر تنفيذ هذا الحكم، فقام سلاح الطيران الملكي بإلقاء القنابل عليهم وعلى مساكنهم، وأنزل بهم أضراراً بالغة، وكان الناس يعتقدون قبل ذلك أن حكاية إلقاء القنابل ضرب من التهديد فقط.

بعد أن أنزلت الحكومة عقابها الصارم بآل جابر وجهت إلى الذين يتعرضون للطرق من القبائل إنذاراً تحذرهم فيه وتطلب منهم أن يعتبروا بما حل بهذه القبيلة، وقال لهم الإنذار: إن آل جابر أوقفوا المسافرين، وأطلقوا الرصاص على السيارات، وأخذوا نقوداً بالتهديد، وبسبب عدم تسليمهم للغرامة التي فرضت عليهم رمتهم الطائرات بالقنابل من الجو مدة بضعة أيام، فتكبدوا خسائر فادحة وأضراراً، ومنعوا من الدخول إلى البنادر والأسواق.

ثم قال الإنذار: إن رمي القنابل مخيف جداً فهو يهدم البيوت ويتلف الزرع ويطرد الناس من مساكنهم، والحكومة البريطانية ترغب في أن تكون صديقة للناس ولا تريد أن ترميهم بالقنابل، ولكنها تريد أن يعيش الناس في المحمية بأمان فيقوموا بأعمالهم وينالوا السعادة.

وكان هذا الإنذار الحكومي المؤرخ في **٢٢** ذي الحجة سنة **١٣٥٥**هـ موقعاً بإمضاء المستر إنجرامس.

❖ تجديد الهدنة:

كان أجل الهدنة الأولى التي تمتد إلى ثلاث سنوات فقط ينتهي في عام **١٩٤٠**م، ولذلك عملت الترتيبات لمد أجلها إلى عشر سنوات أي إلى سنة **١٩٥٠**م، ومرة أخرى بذل الرؤساء والأعيان كل ما في استطاعتهم للحصول على توقيعات القبائل على هذه الهدنة العامة، وقد نالوا في ذلك توفيقاً كبيراً، فقد حصلوا على ما يزيد على ألف وثلاثمائة توقيع يمثل مختلف القبائل في الجهة الحضرمية، وفي النهاية أصبحت هذه الهدنة صلحاً عمومياً، فقد تناسى الناس أثناء هذه المدة أحقادهم وثاراتهم أو

اضطروا إلى تناسيها، وعاشوا في جو من الاطمئنان والأمن يختلف كل الاختلاف عما أَلِفوه من قلق واضطراب، وإن كان البعض قد شعر بفقد نفوذه وهيمنته أمام السلطة الجديدة التي أخذت قوتها تثبت وجودها بشكل واضح ملموس، كما شكا البعض الآخر من عدم البت في قضاياهم التي يتقدمون بها إلى الجهات المسؤولة للفصل فيها، وكانوا لذلك يتحسرون على ضياع سلطتهم كلما حدث شيء من هذا القبيل.

❖ العناية بالجيش:

وللمحافظة على الهدوء والاستقرار اللذين بدأت البلاد تنعم بهما وجهت الحكومة عنايتها إلى إعادة تنظيم الجيش الحكومي المعروف بالجيش النظامي وغيره من قوات الأمن، ولهذا الغرض ألغي نظام سلطة المقادمة السابق من يافع وموالي الدولة - العبيد - وأضيف مساعد حربي بريطاني إلى موظفي مستر إنجرامس ليشرف على تدريب قوات الأمن المختلفة في البلاد.

وأنشأت الحكومة قوة جديدة تعرف بالشرطة القعيطية المسلحة لتقوم ببعض أعمال البوليس وكذلك بواجبات عسكرية في المناطق الريفية، كما أعيد تنظيم الشرطة المدنية في نفس الوقت، وكونت الحكومة البريطانية قوة خاصة تحت إشرافها المباشر تسمى جيش البادية الحضرمي على طراز الجيش العربي المشهور بالأردن، واستقدم له ضباط أردنيون، وتكفلت الحكومة البريطانية بدفع نفقات هذا الجيش، وكان الغرض منه القيام بأعمال الأمن في المناطق البعيدة كمناطق الحدود والأجزاء التي لم تستقر بعد في محمية عدن الشرقية.

❖ تحسين الإدارة:

وكانت الخطوة الثانية التي اتجهت إليها الحكومة بعد استتباب الأمن وتأمين المواصلات هي تحسين الإدارة، ومعلوم أن هذا الاتجاه يتطلب

اعتمادات مالية تمكن الإدارة في الدولة من القيام بمسؤولياتها في نواحي الخدمات العامة على اختلاف أنواعها، ولذلك وضع نظام مالي للدولة على أساس الطريقة المالية المعروفة في تقييد الإيرادات وضبط وجوه الصرف وإعداد الميزانية لكل عام، حيث تصبح القانون المالي للسنة، ولا يمكن الإخلال بها أو الخروج على نظامها، وقد تسلم السلطان وعائلته بموجب هذا النظام الجديد مبالغ معينة ثابتة في الميزانية بدلاً من إطلاق يده في واردات الدولة - كما يشاء هو - كما كان الحال سابقاً.

وتم تجهيز الجهاز الإداري للدولة في شكل سكرتارية تشتمل على إدارات مسؤولة عن جميع نواحي الحكومة تحت إشراف وتوجيه سكرتير الحكومة، وقسمت السلطنة إلى ألوية عُهِد بإدارتها إلى نواب حدد اختصاصهم، وإلى مناطق يديرها قوّام تحت إرشاد النواب، وحددت العلاقة بين السلطان وإدارته بتأليف مجلس للدولة للنظر في شؤون الدولة العليا، ويتكون من بعض كبار الموظفين ومن أعضاء غير رسميين معينين يمثلون بعض النواحي في البلاد، والسلطان في هذا المجلس يصادق على القوانين التي تقوم بتنفيذها الإدارة التي يرأسها سكرتير الدولة، ولهذا السكرتير وضع أوامر إدارية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وللسلطان الحق في أن يتدخل بسلطة عالية عندما تستدعي ذلك الظروف الهامة.

وفي سنة ١٣٦٩هـ ١٩٤٩م صدر قانون المجالس البلدية والقروية التي تسلمت سلطتها المحلية من السلطان عن طريق تعليمات تم تحديدها وتعيينها من قبل سكرتير الدولة ويقوم بتنفيذ قرارات هذه المجالس الموظفون الإقليميون التابعون للحكومة المركزية.

❖ الخدمات الاجتماعية:

وتم تَبعاً لتحسين الإدارة وإصلاح الجهاز الحكومي عدة إصلاحات تهدف إلى تحسين الخدمات الاجتماعية والنهوض بالشعب في حدود

إمكانياته، فأنشئت مصلحة للمعارف تحت إدارة ناظر سوداني هو الشيخ القدال سعيد القدال الذي أصبح سكرتيراً للدولة فيما بعد، ثم وزيراً للسلطنة، واستقدمت دار المستشار من السودان المستر «جرفس» أحد كبار الموظفين البريطانيين في مصلحة المعارف السودانية ليضع تقريراً تسير إدارة المعارف الحضرمية على ضوئه، وقد تطور التعليم في حضرموت وفقاً للاقتراحات التي قدمها وبسبب خبرة المدرسين السودانيين الذين استقدموا للتدريس وتدريب المعلمين الوطنيين، وقد تم حتى الآن إنشاء ثلاثين مدرسة ابتدائية في أنحاء القطر للبنين والبنات، وأنشئت في غيل باوزير مدرسة متوسطة ومدرسة ثانوية صغرى، ومعهد ديني ومدرسة ابتدائية نموذجية، وتقدر ميزانية التعليم في الدولة بنصف مليون شلن.

واهتمت إدارة المعارف القعيطية أيضاً بإرسال البعثات من الطلبة المتخرجين من المدرسة المتوسطة لإتمام دراستهم الثانوية والعالية في مدارس السودان ومصر والعراق وسوريا مستعينة في ذلك بالمساعدات المادية السخية التي تقدمها الجمعية الخيرية بالمكلا والتي تشرف عليها حكومة المكلا، وقد عاد بعض هؤلاء الطلبة بعد أن أتموا دراستهم فشغلوا وظائف التعليم والإدارة.

وإلى جانب الاهتمام بالتعليم أعطت الحكومة جانباً من عنايتها للنواحي الصحية، فبنت في المكلا - العاصمة - مستشفى يعمل فيه أطباء هنود، وزودته بالأدوية التي توزع مجاناً، وبغرفة للكشف بالأشعة، وأخرى للعمليات الجراحية، وعشرات من السُّرر للمرضى الذين تتطلب حالتهم البقاء في المستشفى، حيث يصرف لهم الدواء والغذاء مجاناً، ودرب عدد لا بأس به من الوطنيين للعمل في المستشفى وفي وحدات صحية في أكثر مدن الدولة وقراها، وتشرف على هذه الناحية الصحية مصلحة خاصة تحت إدارة رئيس الأطباء الهندي المستر «رندي» وهو يقوم بالإشراف على

الناحيتين الوقائية والعلاجية، وعين أخيراً دكتور بريطاني هو المستر «كوركل» ليقدم نصائحه في تحسين الأحوال الصحية في المحميات بأجمعها.

وفي سنة **١٩٣٩**م أنشئت مصلحة للبريد، ثم أسست إدارة زراعية في كل من الدولتين القعيطية والكثيرية تحت إرشاد وتوجيه ضابط زراعي مستعار من الحكومة البريطانية، وأعدت قروض لإنشاء السدود وترميمها وشراء المضخات والآلات الزراعية، وأنشئت في سيئون ورشة لترميم المضخات والآلات الزراعية.

وكان إصلاح القضاء من المشاريع التي لم تغفلها الحكومة القعيطية، فقد قامت بتنظيم المحاكم الابتدائية الشرعية في كافة أنحاء القطر، ودربت قضاة هذه المحاكم وزودتهم بالتعلميات والإرشادات، ونظمت طريقة الاستئناف في العاصمة، وأصدرت في عام **١٩٥٠**م قانوناً جنائياً مأخوذاً من كتب الفقه الإسلامي، ويرجع كثير من الفضل في هذه الناحية إلى نشاط وغيرة رئيس القضاة الشرعيين الشيخ عبدالله بكير.

وفي عام **١٩٥٢**م صدر قانون يخوّل للإدارة سلطة إنشاء محاكم للمجالس المحلية لتسوية أمور النزاع بين الأهالي في مناطقهم، وقراراتها قابلة للتنفيذ من قبل السلطات الإقليمية في القضايا المدنية التي تتعلق بمبلغ مائة شلن أو أقل، ولها سلطات لفرض غرامات لا تتجاوز **٣٥** شلناً.

❖ الوحدة الحضرمية:

هذا هو أهم ما قامت به الحكومة - حتى الآن - من إصلاحات في مجال الخدمة الاجتماعية، وينتظر أن تتوفر فرص الإصلاح بصورة أوسع عندما يتم تحقيق فكرة الوحدة الحضرمية التي تجرى الآن محادثات رسمية بشأنها، والتي ينتظر أن تضم سلطنات القعيطي والكثيري والواحدي وبلاد المهرة، وإذا تدفقت منابع البترول في المناطق الحضرمية التي يجري فيها

التنقيب هذه الأيام فإنه لا يستطيع الواحد منا أن يتكهن بمدى التقدم الذي ستحرزه هذه البلاد.

وإلى جانب الوحدة الحضرمية التي تتجه الجهود إلى تحقيقها برزت فكرة أخرى أوسع وأشمل ترمي إلى توحيد الإمارات الجنوبية بأجمعها توحيداً يحقق الأماني الوطنية التي أيقظها فجر الوعي الذي صحا على ضوئه سكان هذه الإمارات فأدركوا حاجتهم إلى حياة أفضل ومستقبل مشرق يتجاوب مع الأفكار الجديدة التي تستلهم وحيها من الأماني القومية العربية العامة وتعاليم الإسلام العظيم.

وإني لعظيم الأمل في أن يكون هذا الكتاب التاريخي الذي اختتمه الآن بالحديث عن الوحدة والاتحاد من بين الأشعة التي تسلّط على الطريق لتتضح وتستقيم للسالكين.

والحمدلله في البدء والختام.

رمضان ١٣٧٦هـ - أبريل ١٩٥٧م

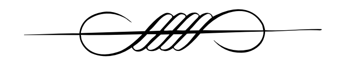
أهم مصادر الكتاب

١- تاريخ ابن خلدون.
٢- تاريخ الأمم والملوك للطبري.
٣- الكامل ابن الأثير.
٤- معجم البلدان للحموي.
٥- الإصابة في أسماء الصحابة لابن حجر.
٦- الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.
٧- أضواء الماضي للكيالي.
٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي.
٩- تجارب الأمم لابن مسكويه.
١٠- البداية والنهاية لابن كثير.
١١- الأغاني لأبي فرج الأصفاني.
١٢- محاضرات التاريخ الإسلامي للخضري.
١٣- تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي.
١٤- تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان للسالمي.
١٥- تاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم.
١٦- تاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف.
١٧- تاريخ حضرموت السياسي لصلاح البكري.
١٨- في جنوب الجزيرة لصلاح البكري.
١٩- المشرع الروي في مناقب آل باعلوي للشلي.
٢٠- جني الشماريخ للسيد علوي الحداد.

٢١- عقود الألماس للسيد علوي الحداد.
٢٢- تعليقات السقاف على رحلة باكثير.
٢٣- نسيم حاجر لابن عبيدالله.
٢٤- رحلة إلى الثغرين لابن هاشم.
٢٥- مجلة الرابطة العلوية - المجلد الأول -.
٢٦- معالم تاريخ الجزيرة العربية للمؤلف.

مصادر مخطوطة:

١- تاريخ الطيب بافقيه.
٢- النور السافر للعيدروس.
٣- تاريخ الشحر لباحسن.
٤- الرحلة المتوكلية للجرموزي.
٥- البضائع لابن عبيدالله.
٦- وثائق ومخطوطات قديمة في تاريخ آل باوزير.
٧- مذكرات الأمير علي بن صلاح القعيطي.



محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

